

سلسلة اعلام الفكر العالمي



مَدَام كوري

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تأليف : إيف كوري
تدريب : أحمد الصراوي محمد

سلسلة اعلام الفكر العالمي

مَدَام كوري

التميزة الخالدة

تأليف : ايڤ كوري

تعريب : احمد الصاوي محمد

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية ممدى ومبالعة - ص.ب. : ١١/٥٤٦٠

بناية برج شهاب - سلة الخياط - ص.ب. : ١٩٥١١٩

برقيا : موكياي - بيروت

جميع حقوق الطبع محفوظة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الاولى

نيسان (ابريل) ١٩٧٨
...

للذكرى

ذكرى امرأة : تزوجت فى الرابعة عشرة وترملت فى
العشرين ، وماتت فى الخمسين

والان لم يعد لى الا الحبر والورق ، لانك ترفعت عن دارنا ،
أماه .. كنت أناديك بلسانى ، من صميم وجدانى ..
وسئمت جوارنا ، وآثرت جوار الله .

سأعود الى البيت فأجد الظلام سائدا ، لان عينيك
العزيزتين لاتضيئانه .. وأجد السكون شاملا ، لان قلبك
الذى كان يخفق بحبى غائبا وحاضرا ، قد كف عن الخفقان
سأمراض ، فلا أجد يدك تربت على خيرا من الدواء ،
ولا احس قبلاتك وعبراتك التى فيها البرء والشفاء ..
وقد أسعد ، فلا أفاك تشتركين فى سعادتى التى هيهات
أن تتم من دونك ، أو تكون بغير حضورك .. وسأشقى
أياما طوالا ، شقاء لا عهد لى به ، لأنك لست معى تحملين
أعباء شقائى ، كما فعلت مدى ثلاثين عاما ونيف ...

ان الايدى الغريبة ستحضر لى طعامى ، فلا أجد له
بعدك طعما ولا مذاقا .. فقد كان ما تقدمين لى من
الطيبات من صنع روحك لا من صنع يدك ! ..

سأسافر الى بلاد بعيدة ، فلا أحمل فى فؤادى دموعك
الطاهرة ، زاد التقوى .. وسأعود ، فلا يتفتح قلبى
لضحكاتك الساحرة .. لن أجد بعدك لوعة الذهاب ، وان

اذوق بعدك متعة الاياب ! ..

يا حبيبتي اننى كلما ذكرت ، ايام مرضك وانت تبكين
وتقبلين يدي «لاغفرلك!» ، صياحك من هول الالم ، وشكواك
.. اكاد افقد رشدى او افقد ايمانى ، وكلا الامرين شر ..
فاذكر قول اناتول فرانس : « انى اغفر الله كل شيء الا
الالم » .. ثم اعود فأجد أنك أنت الشهيدة فى كل حياتك
من المهد الى اللحد .. ربما اردت أن تتمى رسالتك ..
فتعذبت هذا العذاب الاليم كله ، حتى اذا نزل قضاء الله .
استروحت قلوبنا بعض العزاء والسلوى .. لان الله ،
آخر الامر ، قد لطف بك ، فكف الداء الذى لا دراء له عن
قتلك البطيء الفظيع ، وعن قتلنا معك .. فكأنك من وراء
القبر قد احسنت الينا ، احسن الله اليك ...

يا صديقتى .. لقد علمتنى ما هو الحب وما هو
الخير ، فصرت فى حياتى أمزج الخير بالحب ، وأمزج الحب
بالخير .. وأعيش بهما ، وأعيش لهما ، ولا أفرق بينهما
.. وانى اعاهدك على أن أحيا واموت بالحب والخير على
لسانى جزءا من جنائى ..

لقد كنت يا أماه تدعين الله أن احمك على يدي ..
فلما حان الفراق لم احمك بيدي ، بل وقفت مسلوب
العقل ، أنظر بجمود الى أذرع أخرى قوية ، أجنبية ،
تحمل شخصا لا اصدق أنه هو الذى كان كل حياتى ! ..
لأنك انت فى قلبى منذ مولدى .. وانت فى قلبى تلميذا
يتيما فى القاهرة ، وطالبا فقيرا فى باريس ، وشابا معذبا
بخياله ، ورجلا شقيا بآماله .. وانت أنت فى قلبى يا أماه
ما حييت وبعد الحياة نفسها .. واننى لاعلم اننى أعيش
فى فؤادك الحى ابدا ، لان قاوب المؤمنين جزء من الله الحى
الذى لا يموت ..

يا بنيتى .. انك كنت فى السنوات الاخيرة كالبنيت

الصغيرة .. كنت صغيرتي ، وأصبحت لك أما وأبا ..
كنت طفلتى العزيزة المدللة ، ورددت اليك بعض حنانك وأنا
طفل .. أما حنانك وأنا فتى ، وأما حنانك وأنا شاب ،
وأما حنانك وأنا رجل .. فبهات ان يتسع له فى الدنيا
غير قلب الام ...

يا حبيبتى .. لقد عاش الموت بيننا فى هذه
السنين الثلاث كأنه فرد من أسرتنا يسكن بيننا ، ويمد
يده الى الطعام والشراب معنا ، ويستمتع الى الحدوث
ويتدخل فيه ! .. وكنت كلما شكوت أو توهمت أضحك
كاذبا حتى تطمئن نفسك ، ونفسى تتمزق ، لأن الموت كان
نزىلا مقيما واقفا بالمرصاد .. لا يشفق ولا يحيل ، بل
يسخر ، ويقهقه بفضاعة ، ويسقيك السم قطرة قطرة ،
ثم جرعة جرعة .. ويسقينى ..

يا صديقتى .. قد آن لى أن أختتم هذه المناجاة ...
وأنت تعرفين السبب ، لان اجمل ما كان يدور بيننا ،
كان همسا لا يسمعه أحد ، ولا يفهمه أحد ...
سمأناديك صادعا يا أمام ، وأنا واثق من أنك من وراء
الابدية ستلبين النداء ، وتجيبين الدعاء .. فأقول لك :
« والآن امام الى اللقاء ... »

« ما قل ودل »

(الاهرام) فى ٢ نوفمبر ١٩٢٨

مقدمه ..

ان فى حياة مارى كورى من الآيات البينات ما يجعل قصتها كأسطورة من أساطير الاولين .

فهى امرأة .. وهى تنتسب الى أمة مفلوبة على أمرها .. وهى فقيرة .. وهى جميلة .
وان نداء قويا دعاها الى مغادرة وطنها « بولونيا » ،
لتدرس فى باريس ، حيث عاشت سنين فى وحدة واملاق
وهناك تلقى رجلا عبقريا مثلها ، فتزوجه ، فيصبح
هناؤهما فذا فريدا ..

ويبدلان جهدا ، أشد الجهود اضاء وجديا ، الى
أن وفقت مارى وبير كورى لاكتشاف عنصر سحرى ،
هو الراديوم . ولم يهيه اكتشافهما لمولد علم جديد
وفلسفة جديدة فحسب ، بل هيا للجنس البشرى
سبيل علاج داء فظيع .

وفى اللحظة التى يشرق فيها مجد هذين العالمين
الخيرين على العالم ، يخطف الموت من مارى زوجها ،
رفيقها العظيم ، فى طرفة عين .

وعلى الرغم من جزع القلب واوجاع البدن ، تمضى
وحدها فى العمل الذى بداته واياه ، وتتقدم بالعلم الذى
خلقه معا .

وليست بقية حياتها الا هبة سخية ، وعطاء متصلا ..

فهى تكرر لجرحى الحرب كيائها ، وتقف عليهم صحتها .. ثم تعطى ، فيما بعد ، نصائحها ، ومعرفتها ، وكل ساعة من وقتها لتلاميذها . علماء المستقبل الذين قصدوها من كل بقاع الارض .

وما كنت لأغتر لنفسي ذنبها لو اننى حاولت أن اضيف أقل الزينة الى هذه القصة ، الشبيهة بالأسطورة .. فلم أرو حكاية واحدة الا وأنا واثقة منها ... ولم أحوّر أو أبدل جملة واحدة أصيلة ، أو ابتكر لون فستان .. فالوقائع حدثت ، والاقوال فعلا قيلت .

ولما أتمت رسالتها ، وأبلغتها ، ماتت ، وقد أضنتها العلل ، بعد ما أثبت المال والثراء ، واستكبرت التكريم ، ولم تعبأ بالنعم والآلاء ..

وأنى أرجو أن يشعر قارئ هذا الكتاب ، شعورا متصلا خلال صفحاته ، بأن شيئا فى مارى كورى كان أندر من عملها ، ومن ذات حياتها ، وهو بناء خلقها المتين المكين ، وجهد ذكائها الملح العنيد ، والقربان الخالص من مخلوقة تستطيع أن تعطى كل شيء ، ولا تأخذ أو تتقبل شيئا .. وفوق هذا كله : نوع هذه النفس التى ما كان للشهرة الذائعة ، ولا للشدة القارعة ، أن تغير ذرة من جوهرها النقى ، وصفائها النادر .

ولما كانت لمارى كورى هذه النفس العلوية ، رفضت أعراض الدنيا وأموالها ، والمزايا التى يحصل عليها أمثالها ، من النابفين والعظماء ، الذين دانت لهم شهرة لا حد لها

ولقد تأملت من الدور الذى أرادتها الدنيا على أن تلعبه . وكانت طبيعتها من دقة الحس وكرامة الحرص بحيث ظلت عاجزة ، الى النهاية ، عن اتخاذ الموقف الذى

يقترحه عليها المجد ، أو الشكل الذى يقتضيه ذبوع
الصيت ، فلم تعرف الوقوف فى المعارض ، ولم تحسن
المشى فى المواكب !
ولم تدر كيف تكون شهيرة !

كانت أمى فى السابعة والثلاثين عندما ولدت . ولما
كبرت الى حد أن عرفت حق المعرفة ، كانت قد صارت
امراة مسنة ، بلفت ذروة الشهرة . ومع ذلك فان
« العالمة المشهورة » هى التى أجهلها ، ولعل ذلك
راجع الى أن فكرة علمها وشهرتها لم تكن تشغل بالها .
بيد أنه يخيل الى اننى عشت دائما مع الطالبة الفقيرة ،
المسحورة بالأحلام ، التى كانت تدعى « مانيا » أو « ماريا
سكلودوفسكى » قبل أن اجىء الى الدنيا بزمن طويل .

وكانت مارى كورى ، فى يوم موتها ، لا تزال تشبه
تلك الفتاة . ولم تستطع مهمتها الطويلة المدى ، العظيمة
الاثر ، الجليلة الخطر ، أن تكبرها أو تصغرها . . ولم
تستطع أن ترفع ، ولا أن تخفض ، من قدرها .

فقد كانت ، فى ذلك اليوم الاخير ، لطيفة ، عنيدة ،
حية ، متطلعة الى جميع الأشياء ، كما كانت فى أيامها
الخاملة الاولى . . .

ولقدسية سرها كان من المستحيل أن تفرض عليها ،
فى يوم موتها ، دون تجديف ، الجنائز الرسمية الحافلة
التى تقدمها الحكومات لعظمائها . .

فدفنت ، فى هدوء شامل ، وبساطة مطلقة ، فى مقبرة
ريفية ، بين زهور الصيف ، حتى كأن تلك الحياة التى
انتهت ان هى الا مثل الوف غيرها .

الا ليت لى موهبة كاتب ، لأحدث عن « التلميذة

الخالدة « التي قال عنها آينشتين : « ان ماري كوري ،
من بين جميع المشهورين ، هي وحدها التي لم يفسدها
المجد » ...

فمرت ، في ذات حياتها ، كأنها أجنبية عنها ، ماثلة ،
على سجيتها ، لا تكاد تتبين مضيرها المدهش ، الذي
يحير الألباب ...

ايف كوري

مانيا ...

يسود السكون شوارع فارسوفيا أيام الآحاد ، ولا سيما شارع نوفولبيكني ، حيث كانت مدرسة الصبيان المحفور اسمها على الحجر ، بحروف روسية ، فوق الباب الكبير الموصد بالرتاج .. وكانت هذه الردهة ذات الأعمدة اقرب ما تكون الى معبد مهجور . لقد غابت الحياة عن هذا البناء الواطى الممتد ذى الطابق الواحد ، المنتشرة فيه ادراج التلاميذ الخشبية التى خدشتها ضربات المطاوى وأسنان الأقلام بالأحرف الأولى من الاسماء .. ولم يعد يسمع الا جرس كنيسة « العذراء » المجاورة ، أو دوى دولاب عربة ، من حين الى حين ، أو وقع حوافر جواد يقطع الطريق .. ووراء الباب الحديدى أينعت فى حوش المدرسة أربع شجيرات زنبق يتضوع شذاها على المارة ، فيلتفتون الى ندائها الصامت الزكى ، معجبين .

وكان الجو حارا ، ولم يبق من شهر مايو الا اقله .. فمدينة فارسوفيا شمسها شواظ من نار ، كما ان ثلجها زمهرير ..

ومع ذلك كان هناك شيء يعكر ذلك الهدوء الشامل . فقد كان الجناح الايسر من البناء هو مسكن المسيو « فلاديسلاو سكلودوفسكى » Wladyslaw Sklodowski

استاذ الطبيعة ووكيل المدرسة .. وكانت تصدر منه صيحات حادة ثاقبة ، وضربات كأنها من وقع مطرقة .. ثم صوت انهيار قصر من قصور الأطفال .. فقد كانت « مانيا » تلاعب « جوزيف » بالمكعبات الخشبية ، وكانت ساحة المعركة حجرة واسعة مربعة تشرف نوافذها على حوش المدرسة الداخلى ، وفي أركانها أربعة أسرة صغيرة .. وكان أربعة أطفال بين الخامسة والتاسعة كأنهم فى معركة حامية : « جوزيف » و « برونيا » و « هيللا » و « مانيا » .. ولا عجب اذا فاز الاول ، فسدد اليهن مدافعه ، وربح منهن أرضا ، وزحزحهن عن مواقعهن .. فهو الأقوى ، وهو الأكبر ، وهو الأعلم : وهو أيضا الرجل الوحيد بينهم ، حوله بنات ، وليس الا بنات ، كلهن فى زى واحد ، وقد وضعن ، على ثياب يوم الأحد مريلات صغيرة قائمة اللون ذوات جيوب .

والحق أن أولئك البنات كن يحسن النضال ، يناضلن بقوة .. فكانت عينا « هيللا » تشعان بحماسة وحشية كانت « هيللا » ناقمة على أن ليس لها من العمر الا ست سنوات ونصف سنة ، كانت تريد أن تسبق فى اللعب وتنتصر ، كانت تحسد السنين الثمانى التى لأختها « برونا » ، تلك العيلة الشائقة ذات الشعر الأشقر المنطلق غدائر كأنها أسواط تضرب الهواء .. وإلى جانب « برونيا » مساعدتها الصغيرة التى تجمع لها ، من الأرض ، ذخيرتها لمعركة المكعبات الخشبية ...

— ماذا جرى ؟ ..

قالت ذلك « زوسيا » ، كبيرة أولاد سكلودوفسكى الخمسة ، وهى تدخل ، وقد بدت ، بين اخوتها ، كبيرة ، ولو لم تكن قد بلغت بعد سنتها الثانية عشرة .. وكان شعرها البلاتينى طليقا ، متهدلا على كتفها .. وكان

وجها جميلا مشرقا ، وعيناها حالمتين ، فيهما لون
الرماد الحار ...

— أمى تقول انكم تلعبون من امد طويل ، فكفى ..
فحاولت مانيا البقاء بقولها :
— ولكن برونيا في حاجة الى ... فانى انا التى تحمل
اليها المكعبات .
ان أمى تدعوك اليها .

فبعد لحظة تردد ، أخذت مانيا يد اختها وخرجت في
كبرياء .. وكان في الحجرة المجاورة صوت رقيق ، يدعوها
ويدللها بالأسماء المصغرة ، المنوعة حنانا وحباً :
— مانيا .. مانيوزيا ...

ففى بولونيا يهيمون بهذه المصغرات ، وفى أسرة
سكلودوفسكى هذه يطلقون « زوسيا » Zosia على
« صوفى » Sophie ، البنت الكبرى . و « برونيا »
Bronia عندهم بدل « برونيسلافا » Bronislawa وقد
أصبحت « هيلانه » Helana : « هيللا » Hela ..
أما « جوزيف » فهو « جوزيو » Gozio . بيد ان احدا
ممن فى البيت لم يحظ بمثل ما حظيت به « ماريا » —
الصفرى — من المحبات المدللة ، فهى آخر العنقود ،
وهى عزيزة البيت .. فهى « ماريا » Marya و « مانيا »
Mania و « مانيوزيا » Maniusia .. الخ !

وعطفت عليها أمها تصلح من زينتها ، بيدن شاحبتين ،
نحيلتين ، وتنظم شعرها ، وترفع دوائره المسدلة على
الوجه العنيد ، وجه عالمة عظيمة ، من علماء المستقبل ..
فخضعت الصغيرة ، واستسلمت ، وسرى عنها ...
ان حب « مانيا » لأمها لا حد له .. فقد خيل اليها انه
ما من مخلوقة على ظهر الأرض تعادلها رقة وطيبة قلب ،
او تعادلها حكمة ...

وكانت أم هذه الأم كريمة المنبت ، قليلة المال . وقد
فتن بها زوجها ، فاقترن بها خفية ، رغم احتجاج والدى
الفتاة الجميلة ومعارضتهما .. ثم مرت السنون والايام ..
وانجبا ستة أولاد ، كانت بينهن بلا شك ، مدام
سكلودوفسكى ، والددة مارى بطلة هذا الكتاب ، أوفرهن
ارزانا وأشدهن ذكاء .. فليس فيها ذلك الشذوذ ، أو
القلق ، أو التهور الذى نراه فى الجنس السلافى ألوانا ..
وقد تربت تربية فنية فى إحدى مدارس فارسوفيا ،
واصبحت معلمة فى المدرسة نفسها التى تخرجت منها ،
ثم ناظرة لها . فعندما طلب يدها الأستاذ فيلاديسلاو
سكلودوفسكى كان قد اختار بلا شك زوجة فاضلة . لم
تكن ذات مال ، ولكنها كانت كريمة العنصر ، تقية ، عاملة ،
ولها مهنة ثابتة .. وكانت كذلك موسيقية ، تعزف على
البيانو ، وتغنى بصوت شجى أغانى ذلك العهد ..

ثم هى جميلة جدا .. ففى صورة زواجها نرى محياها
الفاتن ، وشعرها السخى الغزير الناعم ، واهدابها الهلالية
المدهشة ، ونظرتها المطمئنة من عينيها الرماديتين
النجلاوين ، كالعيون المصرية ..

وفى ٧ نوفمبر ١٨٦٧ ولدت من هذا الزواج الموفق ،
فى هذا البيت السعيد ، مانيا الصغيرة (مارى كورى) ..
— والآن ، هل نمت يا حبيبتي مانيوزيا !

ومرت مدام سكلودوفسكى بأصابعها الرقيقة على
جبين صفرى بناتها ، بتلك الحركة الحنون التى تعهدها
البنت من أمها ... فلم تكن مانيا تذكر سواها ... فأما
لم تعانقها قط ، ولم تقبلها .. وكانت لا تتصور هناء مثل
هناء الالتصاق بهذه المرأة الساهمة ، ولا تدرك بعد
السبب القاسى لهذا الحرمان الذى قضت به أمها .. فقد
كانت الأم مريضة مرضا خطيرا ، اذ ظهرت عليها أعراض

السل حين مولد مانيا ، وظلت خمس سنوات ، برعم
الاستشارة والاستشفاء ، والداء يسرى .. وكانت دائما
نظيفة الملبس ، قوية الايمان ، متظاهرة بالصحة ..
وفرضت على نفسها قواعد دقيقة : فلا تتناول طعامها
الا في آنية خاصة بها ، ولا تقبل ولدها وبناتها . ولم
يكن هؤلاء الصغار يعرفون عن ذلك الداء الا قليلا ..
فكانوا يسمعون نوبات السعال الجاف في الحجرة
المجاورة ، ويرون قناعا من الاسى على وجه ابيهم ،
ويرددون جملة ، أضافوها الى صلوات المساء : « يا الهى
أسبغ على والدتنا ثوب الصحة والعافية »

وكان من سوء الطالع ، فى عام ١٨٧٢ ، ان يكون المرء
بولونيا - من رعايا روسيا - وينتسب الى تلك الطبقة
الذكية المرفهة الاعصاب ، التى تختبر الثورة فى احشائها ،
والتي تشكو ، اكثر من اية طبقة سواها فى المجتمع ، من
العبودية المفروضة عليها بحكم القياصرة .

ومنذ قرن كامل قبل ذلك ، كان الملوك الشرهون ،
الجيران الأقوياء لدولة مستضعفة ، قد قرروا القضاء
على بولونيا .. فتنازعوها ثلاث مرات متتابة ، وقطعوا
أوصالها قطعا ، أصبحت رسميا : المانية ، وروسية ،
ونمساوية . وفى مناسبات عدة هب البولونيون ضد
المحتلين الذين غلبوهم على امرهم .. فلم يوفقوا الا الى
زيادة ضغط قيودهم وأغلالهم .. وبعد فشل ثورتهم
الجريئة فى ١٨٣١ امر القيصر نيقولا بأعمال انتقامية
صارمة فى بولونيا الروسية .. فكان الوطنيون يعتقلون ،
ويبعدون جماعات ، وتصادر ممتلكاتهم .

وفى ١٨٦٣ وقعت محاولة أخرى وكارثة أخرى .. فلم
يكن لدى الثوار الا الفؤوس ومناجل الحصاد والنبايت ،
ليواجهوا بها بنادق القيصر . وانقضت ثمانية عشر شهرا

فى نضال موئس ، وفى النهاية تدلت جثث زعماء الثوار
من خمس مشانق على أسوار فارسوفيا ..
ومن ذلك الحين ، وقد عمل كل شىء لارغام بولونيا
على الطاعة ، وهى تأبى أن تموت .. وبينما كانت قوافل
الثوار المقيدين بالأسفاد فى طريقها الى ثلوج سيبيريا
المتجمدة ، تدفق سيل من رجال البوليس والأساتذة
وصغار الموظفين على البلاد .. فماذا كانت مهمتهم ؟ أن
يراقبوا البولونيين ، وأن يضعفوا ايمانهم ، وأن يصادروا
الكتب والصحف المشتبه فيها ، وأن يبطلوا استعمال
اللغة القومية شيئا فشيئا . وقصارى القول : أن يقتلوا
روح أمة .

ولكن سرعان ما نظم المعسكر الثانى المقاومة . وقد
دلت البولونيين تجاربهم على أنه لا أمل لهم فى الحرية عن
طريق القوة ، وفى تلك الآونة على الأقل .. فكان واجبهم
اذن أن ينتظروا ، وأن يحولوا بينهم وبين الأخطار التى
يتعرض لها المنتظرون ، وأن يحاربوا فيهم الجبن وفتور
الهمة ..

وبذلك بدلت المعركة ارضها .. ولم يعد أبطالها أولئك
المحاربين المسلحين بالمعاول الذين يهاجمون القوزاق ،
ويموتون قائلين : « ما أسعد أن نموت فى سبيل الوطن ! »
.. لقد أصبح الأبطال الجدد هم المفكرين والفنانين ورجال
الدين والمعلمين .. أولئك الذين تتوقف عليهم عقلية
الجيل الجديد .. وكانت شجاعتهم تقضى بالتظاهر
والمراءاة باحتمال أى مدلة ، عوضا عن أن يفقدوا المراكز
التى ما زال القيصر يسمح لهم بها .. وبذلك يؤثرون
سرا فى الشبيبة البولونية ، ويوجهون مواطنيهم ...

وهكذا كانت تحت مظاهر الأدب تقوم العداوة اللدود،
بين المستعمرين المستبدين والمستعمرين المجاهدين ، فى

المدارس البولونية ، بين الاساتذة البولونيين المحققين ،
والنظار الجواسيس الروسين .. بين أمثال أسرة
سكلودوفسكى - بطة هذا الكتاب - واتباع القيصر
نيقولا ...

وكان يطرق سمع مانيا من كلام الكبار : « البوليس ..
القيصر .. الأبعاد .. مؤامرة .. سيبيريا » .. وظلت
هكذا ، تسمع عبارات غامضة ، تبعث فيها الخوف ، دون
أن تعرف ما مفزاها .. وكانت بفطرتها تتجنبها ، ولا
تتعجل الساعة التى تدرك فيها معناها ..

ولم يكن يلفت نظر مانيا الصغيرة ، اللوحات الزيتية ،
التي تزخرف الجدران باطاراتها الذهبية ، لا ، ولا ألوان
التحف القديمة ، من مرمر ، أو خزف صينى من صنع
سيفر .. بل ذلك الجهاز الموضوع فى اناء زجاجى ،
مغلق ، ذى أنابيب بلورية ، وموازن صغيرة ، وأشياء
معدنية ، وأوراق ذهبية ، وعويونة مكبرة ...

فلم تتصور مانيا ماذا يمكن أن يكون هذا كله ..
فشبت ذات مرة على أخمصى قدميها تتأمل مبهوتة ..
فدخل أبوها ، وعرفها به بقوله : « جهاز الطبيعة

Phy-Sics app-a-ra-tus»

اسم عجيب ! ..

فلم تنسه ، وهى لا تنسى شيئاً أبداً .. وكانت ، حين
ما تكون مرحة ، تترنم باسم جهاز الطبيعة السحرى :

« فيزيكى آباراتوس » !

أيام كئيبة

- ماريا سكلودوفسكى !
- أفندم !
- حدثينا عن ستانيسلاس أوجست .
- ستانيسلاس أوجست انتخب ملكا على بولونيا في ١٧٦٤ .. وكان ذكيا ومثقفا جدا ، وصديقا للفنانين والكتاب .. وقد عرف الأدوية التى كانت تضعف المملكة ، وحاول أن يجد لها علاجا .. ولكنه ، اسوء الحظ ، كان رجلا تنقصه الشجاعة .
- كانت متفوقة بين أترابها ، تلك التلميذة التى تنهض من درجها ، فى الصف الثالث ، الى جانب احدى النوافذ العالية ، المشرفة على العشب المغطى بالثلج ، فى حديقة غناء .. والتى تردد درسها بصوت رخيم رزين وهى فى ثوب المدرسة ، الأزرق القاتم ، ذى الأزرار الصلب ، تزيينه ياقة بيضاء ، منشأة جيدا ، تكاد تبتلع محيا تلك البنية ، ذات السنوات العشر .. والى جانبها شقيقتها هيللا ، فى مثل الثوب المحتشم ، والشعر المعقوص ، طبقا للقواعد الصارمة فى مدرسة مدموازيل سيكورسكا !
- ولم تكن المعلمة الجالسة الى مقعد التدريس بأجمل بزة ، أو اتم اناقة .. كانت فى مسوح سوداء ، عتيقة النمط .. ولم تكن من الجمال على كثير أو قليل ..

وكانت معلمة و « ضابطة » في وقت معا .. وهذا مازادها شدة وحدة . وان كان لم يحل دون نظرتها حنانا وحبا الى الصغيرة مانيا .. كيف لا تكون المعلمة فخورة بمثل هذه التلميذة النجيبة . وهى دون سفرى رفيقاتها بعامين ، لا يكاد يصعب عليها شيء .. دائما الاولى فى الحساب ، والاولى فى التاريخ . والاولى فى الادب . وفى اللغة الألمانية ، وفى اللغة الفرنسية ، وفى الديانة ؟ ...

وساد الفصل السكوت . بل سادده شيء أكثر من السكوت .. فان درس التاريخ يخلق جوا حارا .. ان عيون اثنتى عشرة صبية وطنية متحمسة تتجه الى وجه معلمتهن ، فيقرآن عليه خطورة الحديث وجلال الوطن .. وها هى ذى مانيا تتكلم عن ملك من ملوك بولونيا ، مات من زمن طويل ، ولا ترحمه فتقول :

— ... لسوء الحظ ، كان رجلا تنقصه الشجاعة .. وكأن السكون ، والاصفاء ، والالقاء ، أشبه بمؤامرة خفية ، بين المعلمة وتلميذاتها ، فى الدرس البولونى ، عن تاريخ بولونيا .

وفجأة ، ارتجفت هؤلاء المؤتمرات لسماع جرس كهربائى سرى ..

دقتان طويلتان .. ثم دقتان صغيرتان .. فكانت علامة منذرة سببت اضطرابا شديدا وصمتا عميقا .. وأسرعت المعلمة فأخفت أوراقها .. وأسرعت الأيدي النحيلة فألقت الكراسيات والكتب المدرسية البولونية فى مرايل خمس تلميذات ، خفيفات ، رشيقات ، مكلفات بهذه المهمة ، فأسرعن واختفين بالكتب من باب يؤدى الى عنابر القسم الداخلى ، وألقين بحمولتهن فى مكان خفى أمين ، وعدن ، يلهثن ، الى مقاعدهن ..

ثم فتح باب الفصل ! وظهر « هورنبرج » ، مفتش

المدارس الحرة بمدينة فارسوفيا ، في سترته الوجيهة ،
سمينا ، المانى الزينة ، ثاقب العينين من وراء منظاره
الذهبي .. فنظر الى الطالبات دون ان يفوه بكلمة ...
ووقفت بالقرب منه ، في ثبات ظاهرى ، الناظرة ،
مدموازيل سيكورسكا ، التى كانت تصحبه ، وتنظر الى
الطالبات مثله .. ولكن بأى قلق مستكن ! .. ان
الفرصة اليوم كانت قصيرة ، بحيث لم يكد البواب يمد
يده الى الجرس المصطلح عليه حتى كان هورنبرج ، قد
تقدم دليله ، ودخل القاعة .. فهل كل شئ كما يجب
ان يكون ؟! .. يا رباه ! ..

كل شئ على ما يرام .. فان خمسا وعشرين صبية
سغيرة ، منحنيات على مناسجهن ، يشتغلن بالابرة ،
وعلى ادراجهن المقصات ، وبكر الخيط .. وقالت
الناظرة ، في ثبات ، باللغة الروسية :

- ان هؤلاء الصغيرات يعملن ، ياسيدى المفتش ،
ساعتين كل اسبوع فى التطريز .
فتقدم هورنبرج نحو المعلمة :

- ماذا تقرأين يا آنسة ؟

فردت المعلمة بكل هدوء ، وقد استردت وجنتاها
شيئا فشيئا لونهما الطبيعى :

- هذه قصص « كريلوف » .. وقد بداناها اليوم ..
ورفع هورنبرج غطاء أقرب درج اليه ، فلم يجد
كراسة ولا كتابا !

وكانت التلميذات قد وصلن فى نسيجهن الى « الفرزة »
التى يحسن الوقوف عندها .. وشككن الابرة فى
النسيج ، وتوقفن ، وشبككن اذرعهن على صدورهن ،
ولبثن ، بلا حراك ، متشابهاً ، فى اثوابهن القاتمة ،
وياقاتهن البيضاء .. وبدت هذه الوجوه الخمسة

والعشرون ، كانها شاخت بفتة ، وعبرت تعبيرا حازما ،
بليغا ، أخرس ، عما تنطوى عليه من الخوف ، والمقاومة ،
والحق .

وتقبل المفتش الكرسي الذي قدمته اليه المعلمة ..
وسألها أن تنادي احدى الطالبات ..
فالتفتت ماريا سكلودوفسكى ، فى الصف الثالث ،
نحو النافذة ، وقد تقطب جبينها الصغير .. وتضرعت
فى سرها : « الهى لا تجعل الدور دورى ! . دعهم يتجهون
الى غيرى يا الهى .. الى سوى ! .. »

ولكنها كانت تعلم حق العلم انها هى المختارة .. كانت
تعلم انها المكلفة دائما بالرد على استجواب مفتش
الحكومة ، لأنها أوفر أترابها معرفة ، ولأنها تتقن
الروسية اتقانا تاما .

ولما سمعت النداء باسمها وقفت .. وخيل اليها انها
تحس بحرارة ، بل تحس ببرودة .. وكان حلقها قد
غص بالكراهية ، وهى تسمع صوت هورنبرج يأمرها
بتلاوة الصلاة ، تلك الصلاة التى كانت ضريبة المذلة التى
فرضها قياصرة الروس على الأطفال البولونيين ، يرددونها
كل يوم باللغة الروسية ، ليجعلوهم يوقرون معتقدات
المستعمرين ، ويفكرون بما يقدسون ..

وعاد السكون فساد .. ثم قال المفتش :
- من هم القياصرة الذين حكموا ، منذ كاترين الثانية ،
روسيا المقدسة ؟!

- كاترين الثانية ، بولس الأول ، الكسندر الأول ،
نيقولا الأول ، الكسندر الثانى ..
فأبدى المفتش ارتياحه ، فذاكرة البنت جيدة ..
ويا للهجتها من روسية عريقة ! فكأنها ولدت فى سان
بطرسبرج ! ..

- قولى لى اسماء والقباب اعضاء الاسرة الملكية
الامبراطورية ..

- جلالة الامبراطورة ، صاحب السمو الامبراطورى
لزاروفتش الكسندر ، صاحب السمو الجرانديوق ...
وبعد انتهائها من التعداد . الذى كان طويلا ، ابتسم
هورنبرج .. فقد احسنت الاحسان كله ! ولم ير الرجل ،
او لم يرد ان يرى ، اضطراب مانيا ، وملامحها التى
تجمدت من الجهد الذى تبذله لاختفاء ثائرتها ..

ومضى يسألها عن طبقات رجال القصر ، ومكانته
شخصيا من هذه الطبقات ! .. فقد كانت تلك التفاصيل
اجدى عنده من الرياضة والنحو .. ثم سأل :
- من هو حاكمنا ؟ ..

فاخفت الناظرة والمعلمة نار نظراتهما فى السجلات
التى امامهما .. ولم يجرى الرد سريعا .. فتضايق
هورنبرج ، وردد سؤاله بحدة :
- من هو حاكمنا ؟

فردت مانيا ، وقد غشى بصرها ، وتحشرج صوتها ،
وشحب محياها :

- صاحب الجلالة الكسندر الثانى ، قيصر روسيا
العظمى .

وانتهى الاستجواب ، وانفض المشهد ، وغادر المفتش
كرسيه ، وحيا تحية سريعة ، واتجه الى القاعة المجاورة ،
تتبعه الناظرة .

وعندئذ رفعت المعلمة رأسها ، وصاحت :

- تعالى ، يا روحى الصغيرة ! ..

وخرجت مانيا من صفها ، وتقدمت الى مربيتها ، التى
قبلتها فى جبينها صامتا .. وفجأة ، وقد عادت مياه
الفصل الى مجراها ، اجهشت الصبية البولونية بالبكاء ،

من فرط ما أصاب أعصابها ..

خرج البنات من المدرسة مسرعات الى أمهاتهن اللواتي ينتظرنهن على الباب ، يحملن اليهن الخبر المثير : « جاء المفتش ! .. جاء المفتش ! .. » . وقالت هिला لعمتها التي جاءت في طلب الأختين : « لقد سأل هورنبرج مانيا فردت ردا حسنا جدا .. ثم بعد ذلك انتحبت » .

اما مانيا فكانت تسير صامتة الى جانب عمتها .. فانها ، رغم مضي الساعات على سؤال المفتش لها ، ما زالت مضطربة .. فهي تمقت تلك المظاهرات المفاجئة المذلة التي لا بد فيها من الكذب ، من الكذب دائما .. وأحست اليوم خاصة بأحزان الحياة .. فقد تتابعت المصائب على أسرة سكلودوفسكى ، وبدت السنوات الأربع الأخيرة لمانيا كحلم مرعب .. فامها اضطرت الى السفر الى نيس ، في جنوب فرنسا ، مع بنتها زوسيا .. فقالوا لمانيا في تفسير ذلك الغياب : « ان أمك بعد هذا الاستشفاء ستعود في صحة جيدة » .. فلما عادت بعد عام رأت البنت أمها قد شاخت ، وطبعها داء الصدر بطابعه المخيف ..

ثم كان خريف ١٨٧٣ ، يوم عادت الأسرة الى المدرسة لتتولى مهام افتتاح الفصول ، في ذلك اليوم المفجع الذي وجد فيه المسيو سكلودوفسكى على مكتبه مطروفا رسميا بتخفيض مرتبه ، وحرمانه من مسكنه المجاني مع أسرته في مدرسة شارع نوفوليكي ، وانزال درجته .. اذ وشى به مدير المعهد ، ونال منه .

فبعدها ظلت أسرة سكلودوفسكى تنتقل من بيت الى بيت ، ألقت عصاها واستقر بها المطاف في شقة على ناصية شارع نوفوليكي وشارع الكرمليت .. وبدأ كيائها يتطور طبقا لما يفرضه البؤس من ضرائب .. فأخذ

الأستاذ بادىء ذى بدء صبيانا مختارين من بين تلاميذه
للسكنى عنده ، وتناول الطعام ، والمذاكرة والدروس
الخصومية .. فبدأ باثنين ، أو ثلاثة .. ثم خمسة ،
ثم لعانية ، ثم عشرة .. فتحول البيت الى « بنسيون »
اقرب الى ضجيج الطاحون ، واختفت منه الراحة ،
ونقص ظل الهدوء .

وإذا كان الأستاذ سكلودوفسكى قد لجأ الى جعل بيته
لرلا للطلاب ، فلم يكن ذلك راجعا الى خفض مرتبه فقط ،
أو اضطراره الى التضحيات التى تستلزمها اقامة زوجته
لـ الريفيرا للاستشفاء فحسب ، بل أيضا لأن رجلا
احمق ، هو أخو زوجه ، قد ورطه فى مغامرة تجارية لا علم
له بها ولا عهد .. فاذا به ، وهو الرجل الحصيف
الهدر ، قد أضاع الثلاثين ألف روبل (نحو الثلاثة آلاف
جنيه) ، كل ما ادخره مدى الحياة من عرق الجبين .
وظل بعد يعرض اصابع الندم ، شديد القلق والتمرمر
والتبرم بما فعل ، يتهم نفسه بلا انقطاع بأنه جلب الفقر
على اهله ، وحرّم بناته مهورهن .

وفى يناير ١٨٧٦ عرفت مانيا على حين فجأة ما هو
الشفاء .. فان أحد الطلبة النزلاء عندهم أصيب
بالتيفوس ، ولحقت العدوى ببونيا ، ثم زوسيا . فيالها
من اسابيع مروعة ! .. ففى احدى الغرف ، ترى الأم
تحاول أن تخمد نوبات السعال .. وفى غرفة أخرى ترى
الفتاتين تتأوهان ، وتنتفضان من رعشة الحمى ..

وفى ذات اربعاء ، جاء الأستاذ فاستدعى اولاده
جوزيف ، وهىلا ، ومانيا ، ليوذعوا اختهم الكبرى ،
زوسيا ، التى كانت مسجاة على فراش الموت ، فى كفنها
الأبيض الناصع ، آية فى الجمال ، رغم شعرها المحلوق ،
وقد شبكت ذراعيها على صدرها ، واضاءت وجهها

الشاحب ابتسامة أخيرة .

وكان ذلك أول لقاء بين مانيا وبين الموت .. وكانت تلك أول جنازة تشيعها في معطفها القصير الأسود .. حين كانت برونيا ، الناقهة ، تزفر على سريرها .. وكانت الأم أضعف من أن تخرج ، فظلت تتحامل من نافذة الى نافذة ، تتبع بعينها ، نعش بنتها ، وهو ينزل الهويينا في شارع الكرمليت ...

رفع خدم البنسيون المائدة ، وأضاءوا مصباح الغاز ، فقد دقت ساعة المذاكرة ، وتجمع الطلبة النزلاء في الغرف التي يسكنونها ، كل اثنين أو ثلاثة منهم معا ، وظل أولاد الأستاذ وبناته في قاعة الطعام ، التي تحول مساء الى قاعة للدرس .. وفتحوا كراساتهم وكتبهم ، وارتفع دوى الاستذكار من أنحاء البيت ، ذلك الدوى الذي سيلزمه سنين طويلة .. فهذا يستذكر اللاتينية بصوت عال ، وآخر يستذكر التاريخ والأيام ، وغيره يحار ويضج ويشكو من نظريات تسهل عليه بلفته البولونية، وتستحيل عليه بالروسية .. والأستاذ بين هؤلاء وهؤلاء يساعد ، ويشجع ويستمع ، ويعتب ..

أما مانيا الصغيرة فلم تكن تعرف هذا القلق .. كانت ذاكرتها من القوة بحيث لو قرأت أمام أترابها قصيدة مرتين لرددتها من فورها عن ظهر قلب ، ثم لاتهموها بأنها تحفظ الشعر في السر ! .. وكانت تتم واجباتها قبلهم ، ثم تساعد ، بطبيعتها الخيرة ، على انقاذ رفقاءها من ورطتهم ..

بيد أن ما كانت تؤثره هو أن تجلس ، كما كانت في ذلك المساء ، ومعها كتابها ، الى المنضدة الكبيرة ، معتمدة على مرفقيها ، ويداها على جبينها ، وقد سدت أذنيها ، لتحمي نفسها من صوت أختها هिला ، التي كانت

لا تستطيع ان تردد درسا الا بصوت يخرج من يافوخها !
ولا تلبث المطالعة ان تستغرق مانيا ، فتعزلها عن كل
ما يجرى حولها .

ولا تستطيع برونيا ، وهيلا ، متواطئتين مع جميع
التلاميذ النزلاء عندهم ، أن يخرجوا مانيا من تفكيرها ،
او يلفتوا نظرها بصياح أو ضجيج أو ضحك أو عويل ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ..

وهم اليوم .. وقد ضاقوا بهذا التفانى منها في الدرس ،
وهذا الاستغراق في التأمل ، وهذا الحصر العجيب للفكر ،
قد ابتدعوا قلعة حول مانيا من كراسي البيت ، وضعوها
واقاموها ، ورفعوها فوق رأسها .. ثم انسحبوا في
سكون ، وتظاهروا بالعمل ، وانتظروا ..

وانتظروا طويلا .. ان البنت لم تلاحظ شيئا !! ..
لا الهمس ، ولا الوسوسة ، ولا الضحكات المكتومة ، ولا
ظل الكراسي الملقى على شعرها .. وظلت هكذا نصف
ساعة ، مهددة بهذا الهرم الخشبي المززعج .. ولما انتهت
الفصل ، طوت كتابها ، ورفعت رأسها .. فانهارت تلك
القلعة ، من حولها .. فضجت هيلا ضاحكة ، وهربت
برونيا وبنت عمته هنرييتا ، التي كانت حاضرة ، خشية
ان تشور مانيا .

ولكن مانيا ظلت ثابتة ، غير مكترثة .. فهي لا تعرف
كيف تفضب ، وهي لا تعرف كذلك كيف تمزح مثل هذا
المزاح المخيف .. وعبرت عيناها ، الرماديتان ، عن
دهشة من كان مستغرقا في نومه ، فأوقف فجأة من
حلمه ، ودعكت كتفها من اثر كرسي أصابها ، وحمات
كتابها الى غرفة مجاورة .. ولما مرت أمام « الكبيرات »
لم تفه بغير كلمتين : « هذه سخافة ! .. »
وكان هذا الهدوء الحاسم الذي لا يعجب « الكبيرات »

هو الذى يحميها ، فتقرا كل ما يقع لها من كتب مدرسية ،
وأدبية ، ودواوين شعر ، ومفامرات ، وقصص ،
ومؤلفات فنية ، فى مكتبة أبيها .. وهكذا تبعد عن نفسها ،
لساعات قصيرة ، الأشباح الكئيبة .. تنسى جواسيس
الروس ، وزيارات المفتش هورنبرج ، وتنسى وجه أبيها
الذى أضنته حاجات العيش والعوز .. وتنسى الضجيج
المتوالى فى البيت ، والنهوض فى الفجر المظلم عندما تكون
نصف نائمة ، فترتب سريرها ، وتعكف على درسها ،
قبل أن ينهض النزلاء ويتناولوا فطورهم فى قاعة الطعام ،
التي هى أيضا قاعة المذاكرة ..

تنسى ضروب الارهاب ، ارهاب الذين يحتلون بلادها ،
والاضطهاد الدينى ، وارهاب المرض والموت .. كانت
مندفعة بغريزتها الى النجاة من جو مؤلم مرهق .

غير انها ، مهما هربت ، لا تلبث الحقيقة أن تعود الى
ضميرها ، فيشتد قلقها على أمها .. فهذه المريضة التي
كانت يوما جميلة جدا ، لم تعد اليوم الا ظلا .. ومع كل
ما تسمع من أقوال مطمئنة عن صحتها ، فهى تعرف
تماما ، على رغم اعجابها وانجذابها اليها ، وعلى حبها
العظيم ، وحرارة صلاتها ، أن ليس هذا كله بالذى
سيحول دون وقوع الأمر المروع الذى لابد من وقوعه ..
وكذلك كانت الأم ، من جانبها ، تفكر فى القدر المحتوم
.. وهى تريد أن يلقاها مصيرها مستعدة ، فلا يقلب
كيان البيت .

وفى ٩ مايو ١٨٧٨ ، خضع لها الطبيب ، وأفسح
للقيس مكانه .. وسيعرف القسيس وحده ما كان
يدور بنفس هذه المسيحية المتدينة من أسى ، لتركها
عبء أربعة أولاد ، الى زوج عزيز عايتها ، ومن عذاب
لتفكيرها فى مستقبل هؤلاء الأحداث الأعزة الذين تتخلى

عنهم ، وصغيرتها مانيا التى ليس لها من العمر الا عشر سنوات .

وتجلدت أمام آلهة .. وزادتها الساعات الاخيرة نورا ... وماتت كما تمنى أن تموت ، دون غيبوبة ولا عذاب احتضار .. وجاء زوجها ، وولدها ، وبناتها ، ووقفوا ساكنين حول فراشها ، فى الغرفة الناصعة .. وعيناها الرماديتان ، تتنقلان فى حنان ، وقد كادت تطفئهما المنون ، بين تلك الوجوه الخمسة الكاسفة ، كما لو كانت المحتضرة تريد أن تسألهم صفحا وغفرانا ، لأنها كانت السبب فى ذلك الحزن الشديد .

ثم وجدت من القوة ماودعت به كل واحد منهم .. ثم أخذ الضعف يفسدها شيئا فشيئا .. ولم تعد شرارة الحياة التى تتنقل فيها لتسمح لها بأكثر من كلمة أو إشارة ..

وكانت الإشارة علامة الصليب ، التى ارتعشت بها يدها وهى ترسمها لتبارك بها آلهة .. وكانت الكلمة الأخيرة ، همسة خافتة ، وهى تتأمل رجلها وأولادها ، مستأذنة فى الرحيل : « أحبكم .. »

وهاهى ذى مانيا قد عادت الى لبس السواد ، تهيم بأئسة ، فى شقة شارع الكرمليت ، لا تكاد تتعود الحرمان من الامومة ، ولا تكاد تسيغ أن يحل الرجل محل المرأة ، أو الوالد محل الوالدة ...

لقد عرفت مانيا من ساعة مبكرة أن الحياة قاسية .. قاسية على الشعوب ، وقاسية على الافراد .

لقد ماتت أختها زوسيا ، وماتت أمها .. وحرمت حنان أمها ، ورعاية أختها الكبرى ، وشبت فى نحو من الإهمال ، ولم تكن تشكو قط ..

وليست أنفتها استسلاما أو خضوعا .. فقد أحست

وهى تجثو فى الكنيسة الكاثوليكية التى كانت امهاتصحبها اليها ، أحست الان بالتمرد الاصم . . وكادت لاتدعو الله بحرارة الحب الاولى ، لان الله قد انزل عليها ضربات مهولة ، بعضها فوق بعض ، جردتها مما كان حولها من المرح واللهو والحنان .

مراجعة

في حياة كل أسرة لحظات ازدهار .. فان اسبابا خفية
تهى لذرية ما ، تفوقا وبروزا على الذريات التى سبقتها ،
والتي لحقتها ، بالمواهب والصفات .. وتفدق عليها فيضا
رائعا من الحيوية ، والجمال ، والتوفيق .

وقد جاءت لحظة من هذه اللحظات لاسرة سكلودوفسكى
على الرغم من الضريبة التى دفعتها وقتئذ للشفاء .. وكأن
الموت قد اختار زوسيا من بين الاولاد الخمسة ، الموفورى
الدكاء والفيرة ، فداء لهم .. ولكن الباقين ، الاربعة ،
المراهقين ، المولودين من امرأة مصدورة ورجل اضعف
الدرس والكد ، كانوا يحملون فى أنفسهم قوة لاتقاوم ..
وسيفوزون على الضراء ، ويذللون كل العقبات ، ويصبح
اربعتهم ، جميعا ، مخلوقات ممتازة .

لله ما أجملهم ، فى ذلك الصباح المشرق من ربيع ١٨٨٢ ،
وقد تجمعوا حول مائدة الفطور ! .. هذه هيللا فى السادسة
عشرة ، طويلة ، رشيقة ، وهى « فتاة البيت الجميلة »
غير منازعة .. وهذه برونيا نضرة المحيا ، بلون الزهر ،
وشعر من ذهب .. وهذا جوزيف أكبرهم سنا ، فى ستره
الطلبة ، كأنه من رياضى الشمال ..

واما مانيا .. ففى صحة جيدة كذلك ! .. ولنسلم بأنها
رادت وزنا ، وان ثوبها المحبوك عليها لايدل على قسوام

فحيل .. ولانها كانت الصفري « في الرابعة عشرة » كانت تبدو دون أخواتها جمالا ، ولكن كان لها مالهن من وجه يترقق حياة ولطفا ، مما خص به الله بنات بولونيا .

ولم تعد برونيا طالبة ، بل « آنسة » .. فقد تخرجت العام الماضي بعد مافازت بالمداية الذهبية ، وانقطعت لخدمة البيت ، تمسك الحجاب وتشرف على نزلاء البنسيون ، أولئك النزلاء الدائمين ، وان تغيرت وجوههم وأسمائهم .. ونال جوزيف ، مثل اخته برونيا ، المداية الذهبية ، عندما غادر المدرسة الثانوية ليلتحق بكلية الطب .. وأخواته يعجبن به ويفبطنه ، فان المطامح الذهبية تقنازع بنات سكلودوفسكى الثلاث ، وهن يلعن لائحة جامعة فارسوفيا التي لاتسمح بقبول الفتيات .

غير أن الحديث لم يكن يحول دون التهامهم الخبز والزبد والقشدة والمربى التي تختفى وكأن اختفاءها كان بسحر ساحر ! ثم يهرعون الى معاهدهم .

ولم يكن شباب مارياسكلودوفسكى مفتونا الا بثلاث كلمات : « مدارس .. معاهد .. مذاكرة » .. ولم يكن البيت نفسه عندها الا مدرسة ! .. فلعل مانيا كانت تتخيل الكون مدرسة هائلة ليس فيها الا أساتذة وطلاب ، وليس فيها الا مثل أعلى واحد : « التعليم » ! ..

وقد خفت بلوى نزلاء البنسيون منذ غادرت الاسرة مسكن شارع الكرمليت الكئيب ، وانتقلت الى شارع « لسكنو » في شقة واسعة اختصت نفسها فيها بأربع غرف .

وعطفت مانيا على « القصر الازرق » ، لتأخذ رفيقتها وصديقتها « كازيا » كريمة أمين مكتبة الكونت زاموفسكى .. والتفت ذراعاهما ، وبدأتا ترويان لبعضهما مئات الأشياء التي مرت بهما منذ قصر الامس ! .. ولم

يكن الفرق بينهما يخفى . . فما أرشق كازيا في هندامها
الانيق ، وشعرها الذى يشرح كل صباح ، ويعقد بشرائط
من حرير ، بجانب مانيا اليتيمة ، التى تشب في بيت
ليس عند أحد فيه من الوقت مايقفه على العناية بها . . .
وكان فصل مانيا يفص بالبولونيات ، واليهوديات ،
والروسيات ، والالمانيات ، لا يفرق بينهن اختلاف جدى .
فان شبابهن المشترك ، والتنافس الدراسى المثير ، كلاهما
كان كفيلا بأن يمحو مؤقتا اختلاف الاجناس والافكار . .
ومن يراهن يتعاون في العمل ، ويلعبن معا خلال الفسحة ،
يكاد يخيل اليه ان بينهن وفاقا تاما .

ولكنهن لا يكدن يخرجن من المدرسة ، حتى تسرد
كل واحدة منهن لفتها ، وقوميتها ، ودينها . . وكانت
البولونيات من بينهن ، أشدهن أنفة وترفعا ، لانهن أشدهن
تعرضا للاضطهاد ، فكن يسرن في جماعات ، متساندات ،
ليلتقين بعد ذلك على موائد الشاي ، التى لا تباح دعوة فتاة
روسية أو المانية اليها .

وحدث عن تخرج أولئك الفتيات البولونيات اللواتي
يؤاخذن أنفسهن ، اذا شعرن بالصدقة نحو أجنبية عنهن ،
أو أحسسن نشوة العلم أو الحكمة ، وهن يصفين الى
اصوات الذين يحتلون بلادهن ! .

قالت مانيا تخاطب كازيا ، وهما في طريق العودة :
- انهن سيرقصن عندنا هذا المساء ، فهل تجيئين
لتتفرجى ؟

- أجل ! . . آه . . متى يامانيا يكون لنا نحن ايضا
الحق في الرقص ؟! . . انى أموت شوقا الى الفالس ! . .
متى ؟ . عندما يتركن المدرسة ، و « يدخلن الدنيا »
. . . وليس لهن الان من حق الا ان يتمرن على الرقص
لهما بينهن ، على يد معلم المدرسة . . وان يشهدن الحفلة

الراقصة التى تقام كل اسبوع فى دار سكلودوفسكى ،
وتجمع شباب بعض العائلات الصديقة ..

ولابد من شهور اخرى قبل أن يجرى دورهما ، ويدعوهما
الفتيان .. كان ذلك فى حفلة راقصة كبرى أقامتها الكونتس
فلورى . السيدة البولونية المتزوجة بفرنسى ..

وخفت مانيا وهىلا تهيئان ثيابهما لهذه السهرة الفريدة
ما أصعب أن تكون المرأة جذابة ، عندما تكون
فقيرة ! .. وعندما تستأجر خياطة تافهة ، باليومية ،
لتفصل ثوبين فى السنة ، واحدا لسهر الليل ، وآخر لكبح
النهار .. وضربت الاختان أخماسا لاسداس وحسبنا
ثروتهما ، واتخذتا قرارا : لابد من نزع الدنتلة القديمة
عن ثوب مانيا « الستان » الأزرق ، وإبدالها بدنتلة
جديدة ، تنعشه وتحياه .. ثم يضاف شريط هنا ،
وعقدة هناك ، وتقطف من الحديقة زهور للصدر وزهور للشعر !

وجاءت الليلة الموعودة .. وعزف الموسيقيون الحانا
شجية ، ودارت هىلا ، مدهشة الحسن ، فى الجو
الراقص الحار كحلم من الاحلام .. ونظرت مانيا نظرة
أخيرة الى المرأة .. حقا ، ان كل شئ على مايرام ..
فقد زادت الزهور الناضرة ، المحيا الناضر ، ضياء وسعرا
وهذا حذاء جديد .. حذاء سترمييه مانيا عند الفجر ،
فى ركن من البيت ، لانها رقصت ، ثم رقصت ، وظلت
ترقص حتى بلى نعله ! ..

وبعد سنين عدة ، كانت امى ترضى أحيانا ان تروى لى
بصوت حنون ، حكاية تلك الايام السعيدة .. فأنظر الى
وجهها الذابل ، الذى نال منه نصف قرن من الشواغل
المرهقة والاعمال المجيدة .. ثم أشكر القدر الذى أتاح لها ،
قبل أن يملى عليها أحكامه الصارمة ويوليها مهمتها المضنية
السامية ، أن تبلى حذاءها فى ليلة ، واحدة ، راقصة ! ..

مواهب

لقد حاولت أن أصور مانيا سكلودوفسكى ، طفلة ومراهقة ، فى دراستها وفى لعبها .. فهى سليمة البنية ، مستقيمة السيرة ، حساسة ، مرحة .. وان لها لقلبا يحب .. وهى ، كما يقول أساتذتها : « موهوبة للغاية » .. وهى تلميذة نجيبة .. ولكنها مع ذلك لم تبد الاطفال الذين شبوا معها بمواهب خارقة .. لا شىء بعد يدل على هبريتها ..

وهاهى ذى صورة أخرى .. صورة الفتاة .. وهى أشد ولارا : ففى حياة مانيا وجوه محبوبة قد اختفت وامحت ، ولم يبق منها الا ذكرى حنون حتى اليوم الاخير .. وكذلك الصداقات تتحول قليلا قليلا .. فالبنسيون ، والمدرسة ، لم بعد لهما وجود ، وصلات الزمالة ، التى مهما بدت قوية فى الظاهر ، سرعان ماتنحل ، مادامت لم تدعمها الالفة الهومية » وقد تركز مصير مانيا بين مخلوقين ممثلين طيبة ، وادراكا ، وشرفا .. وكانا أقرب المقربين اليها ، وهما : أبوها واختها برونيا .

ولو أننا راجعنا آمال مانيا - مارى كورى فيما بعد - لوجدناها أبسط الآمال ، وأشد الاحلام تواضعا !

وكان أبوها لا يكاد يوازن ميزانيتها الا بالجهد الجهد .. وكان مع ذلك لا ينقطع عن القراءة والاطلاع ، الى حد انه كان يعرف اليونانية واللاتينية والبولونية والروسية ،

ويتكلم الفرنسية والانجليزية والالمانية ، ويعرف آخر مستحدثات المعرفة في الكيمياء والطبيعة .

وكان المسيو سكلودوفسكى يقضى مساء الاحد مع ولده وبناته الثلاث ، في سهرة مخصصة للادب .. فيتناقشون حول ابريق الشاي « السيمافور » الذى يتصاعد منه البخار .. ويطالع لهم الرجل الشيخ من النثر ومن الشعر ويستمتع اليه اولاده مأخوذين ..

وكان هذا الارمل المسكين يندب ، أحيانا ، ماهم فيه من ضيق ، ويندم على ماكان من أمر تلك المضاربة التى اضاع فيها ماجمع :

— كيف خسرت هذا المال !.. انا الذى كنت أمنى النفس بتعليمكم أرقى التعليم ، وارسالكم الى الخارج لاتمام دراساتكم فى الجامعات الاجنبية ؟.. فهأنذا اليوم أرانى ملوما محسورا ، مقترا على نفسى وعليكم فى الرزق ، لا أجد الى معونتكم سبيلا ، ولن البث أن أصير عائلة عليكم .. فماذا يكون حالكم ؟

ويتنهد الاستاذ قلقلًا .. ويتلقى ، شارد الذهن ، احتجاجاتهم المرححة التى يطمئنونه بها ويسرون عنه مابه ، وهم مجتمعون حول مصباح الغاز ، فى المكتب الصغير ، الذى تزينه أصص من النبات .. أربعة رؤوس عنيدة ، ذات ابتسامات تنم عن الشجاعة .. وفى كل تلك العيون اللامعة ، التى تتموج ألوانها من الزرقة الى لون الرماد ، كانت تبدو الحماسة نفسها ، والامل نفسه :

— نحن شباب ، ونحن أقوياء

ولا عجب اذا كان المسيو سكلودوفسكى يشعر بالارتباغ على مستقبل أولاده الناجحين .. فان مرتبه سيتحول هذه السنة الى معاش ضئيل ، لا يكاد يكفى أجرة البيت وتكاليف الطعام والخادم .. فلا بد أذن ، منذ الان ، من

أن يحاول جوزيف وبرونيا وهيلما ومانيا أن يكسبوا عيشهم
وان أول ماخطر لابناء هذا المربي بالطبع أن يعطوا
دروسا .. فأعلنوا فى الصحف :

« طالب طب يعطى دروسا خصوصية » . « دروس
حساب ، وجبر ، ولفة فرنسية ، تعطىها آنسة حائرة
لدبلوم ، بأسعار زهيدة » ..

صنعة جاحدة ! .. فقد عرفت مانيا فى منتصف عامها
السابع عشر معنى التعب والذل اللذين يصيبان المعلمة ..
فهناك السير الطويل فى شوارع المدينة ، تحت المطر
المنهمر ، وفى البرد القارس .. والتلاميذ المدللون الكسالى
وآباء التلاميذ الذين يتركون المعلمة تنتظر الى مالا نهاية ،
أو الذين ينسون آخر الشهر ، ويسهون عن دفع بضعة
الروبلات التى هم بها مدينون ، والتى تنتظرها المعلمة
بفارغ الصبر ، وقد حسبت لقبضها فى ذلك الصباح نفسه
ألف حساب ! ..

وتقدم الشتاء ، وجرت الايام فى شقة شارع نوفوليكى ،
بعضها فى أعقاب بعض ، تافهة ، متشابهة ...
وكتبت مانيا :

« لا شئ فى البيت جديد .. النيات مزدهر .. والكلب
« لانسيه » نائم على السجادة .. و « جوسيا » -
الخياطة العاملة باليومية - تحول ثوبى ، الذى سأصيفه
.. سيكون ولا بأس به ، بل سيكون جميلا جدا ! .. فان
ثوب برونيا الذى تم تحويله هكذا قد جاء بديعا ! .. ولم
اكتب لاحد ، فان وقتى ضيق جدا ، وتقودى أقل من
وقتى .. وقد جاءت سيدة من معارفنا تسأل عن
الدروس ، فأخبرتها برونيا أن الساعة بنصف روبل
« ربع ريال » ، فقلت الادبار ، وكأننا قد أشعلنا فيها
النار ! .. »

افليست مانيا اذن الا آنسة بلا مهر ، عاملة ، عاقلة ،
كل همها أن تزيد دروسها ؟ .. كلا ! .. فان الحاجة قد
اضطرتها الى قبول حياة الدروس الخصوصية الشاقة ،
ولكن لها حياة أخرى ، شائقة ، خفية .. وهى ككل
بولونية فى ذلك الوسط ، وفى ذلك الزمن ، تجتذبها الاحلام
ان للشبان حلما مشتركا : هو الحلم الوطنى .. فارادة
خدمة بولونيا وانقاذ بلادهم المضطهدة ، هى عندهم قبل
طموحهم الشخصى ، فوق الزواج والحب .

ومع أن مانيا كانت تعد بين صديقاتها من الوطنيات
الثوريات ، وقد تهورت باعارة جواز سفرها لاحداهن ،
فهى لم تكن تميل الى الاشتراك فى حوادث الاعتداء ، والقاء
القنابل على مركبة القيصر ، او عربة محافظ المدينة ..
كانت ترى شيئا واحدا له قدره : العمل ، ومواصلة
العمل ، لتكون لبولونيا العظيمة رأس مال ثقافى ، وتقدم
تعليم الشعب ، الذى تحاول سلطات الاحتلال قصدا
بقائه فى غياهب الظلمات ..

غير أن تيار الافكار لا يمكن أن يسرى ويقوى وينتشر الا
فى البلاد الحرة ، فى وضوح النهار .. ولم يكن لبولونيا من
ذلك شيء .. فاكتفت مانيا مع رفيقاتها بأدوار فى تلك
الجامعة المتنقلة لاتمام دروس المراهقين ، ولاعطاء دروس
لنساء الشعب من العاملات .

فلم تكن مانيا تعمل لنفسها بقدر ما كانت تعمل لوطنها،
ما اكثر ماتحملت سنوها السبع عشرة من أعباء وأرزاء ! ..
فهى تريد أن تتثقف ، وأن تهيش ، وأن تثقف ، لتجمل
حياة الجماهير ! .. نفس كريمة ، هى فى صريح الوصف ،
نفس اشتراكية .. بيد أنها على هذا لاتنسب الى حزب
الطلبة الاشتراكيين فى فارسوفيا .. فقد كانت حرة
حكمها تجعلها تخشى روح الحزبية ، وكانت محبتها

لبولونيا تجعلها في مأمن بعيد من الماركسية ، والدولية الشيوعية .. كانت تريد قبل كل شيء ، وفوق كل شيء أن تخدم بلادها .

ولم تكن تعلم بعد ، أنه ، بين هذه الاحلام ، لا مندوحة لها عن الاختيار .. كانت تخطط ، في حماسة واحدة ، شعورها القومي ، وافكارها الانسانية ، وأمانها الفكرية وما اعجب أن تظل ، بين هذه المبادئ والنزعات والاضطرابات ، فاتنة .. فالتربية الصارمة الراقية التي تلقتها ، والمثل الطيب الذي رآته في الناس الذين سهروا على صباها وشبابها ، كلاهما قد حماها من الاندفاع .. ففي طبيعتها تلك الكرامة الابية ، وتلك الدماثة التي تصحب دائما حماسها ، وعاطفتها .. فلم تمر في حياتها لحظة نراها فيها تمثل الثائرة ، أو تقوم بدور المتمردة .. ان مانيا المتحررة لن تنطق أبدا بكلمة نابية .. انها لن يخطر لها أبدا أن تشعل سيجارة .

ان الاختين المثليتين ، برونيا ومانيا ، تقضيان الساعات والساعات معا ، تحاولان رسم خطة للمستقبل ، في بلد مغلقة فيه أبواب الجامعة في وجوه النساء .. وليست الدروس الخصوصية ، وساعتها بنصف روبل ، بالتى تكون لهما ثراء عاجلا !

ومانيا الكريمة آسفة .. فهذه الصبية ، صغرى العائلة ، تحس أنها مسئولة عن مستقبل الذين يكبرونها . أما جوزيف وهىلا فلم يعودا لحسن الطالع مصدر قلق لها .. فان الشاب لا يلبث أن يتخرج طبيا ، وهىلا الجميلة الصافية التى تتردد بين حرفة التعليم وصناعة الفناء ، تغنى بملء حنجرتها وتحصل على دبلومات ، فى الوقت الذى ترفض فيه طلبات الزواج !...

أما برونيا !.. كيف يمكن أن تساعد برونيا ؟.. فهى

منذ غادرت المدرسة قد سقطت على كاهلها مشاغل البيت
تشتري المؤن ، وترتب ألوان الطعام ، وتراقب صنع
المربي .. فأصبحت ربة بيت ممتازة .. وهى حزينة من
أنها ربة بيت فحسب .. ومانيا تعرف عذاب أختها التى
تنحصر امنيتها الكبرى فى السفر الى باريس لتدرس الطب
ثم لتعود الى بولونيا لتزاول المهنة فى الريف .. وقد
ادخرت المسكينة كنزا لهذه الحرب .. ولكن المقام فى
الخارج كثير النفقة .. فكم من الشهور ، وكم من السنين
لا بد لها من الانتظار ؟! ..

ومانيا تنسى ذات مطعمها لتفكر فى شقيقتها . انها
تنسى .. وهى المفتونة أيضا بأرض الموعد ، قد طال
تحناها الى قطع الالف الكيلومترات التى تفرقها عن
« السوربون » ، لتروى من معينه غليلها .. ثم تحمل
بضاعتها الغالية من المعرفة ، لتصبح المعلمة المتواضعة
فى فارسوفيا ، بين أبناء وطنها الاعزاء .

وكان التفاهم بين الاختين الكبرى والصغرى على أتمه
.. اختارت كلتاهما الاخرى وآثرتها . فيوما ، اذ كانت
برونيا على عاداتها تسود أرقاما ، وتحسب ، للمرة الالف،
حساب مالديها من نقود ، أو بالاحرى حساب ماليس لديها
هاجمتها مانيا بقولها :

— اننى فكرت طويلا منذ حين ، وخاطبت فى الامر
أبى ، وأظن اننى وجدت وسيلة ..
— وسيلة ؟! ..

واقتربت مانيا من أختها ، اذ كان ماتعرضه ، وتريد
من أختها قبوله ، دقيقا يتطلب وزن الكلمات بفطنة :
— اليك .. كم من الأشهر يكفيك ماادخرته للعيش
فى باريس ؟! ..

— خمس سنين ..

— نعم يابرونيا .. ولكننا باعطاء دروس بخمسة قروش
لن نجد أبدا لنا مخرجا .
— وماذا اذن ؟ .

— نستطيع ان نتحالف ، فلو ظلت كل واحدة منا
تناضل لحسابها فلن نفلح ولن نوفق للرحيل .. فى حين
اننا اذا طبقنا طريقتي استطعت ان تسافرى فى الخريف ،
بعد بضعة أشهر .

— مانيا ! .. انت مجنونة !

— كلا .. فانت ستبدأين بانفاق نقودك .. ثم اتولى
انا بعد ذلك الارسال ، وكذلك أبى . وفى الوقت نفسه
اجمع مايكفى لدراستى المقبلة .. وبعد ان تصيرى طبيبة
أسافر بدورى ، وعندئذ تبدأ مساعدتك لى ..

فاغرورقت عينا برونيا بالدموع .. فقد شعرت بعظمة
ماتعرضه عليها أختها الصغرى . ولكن فى البرنامج نقطة
ظلت غامضة .. فتساءلت :

— كيف ؟ .. انك لاتطمعين فى كسب مبالغ كافية لعيشك
ولجانب من عيشى ، افعبد ذلك ايضا توفرين ؟ !

— نعم ! .. اشتغل مربية فى احدى الاسر . أعيش
عندها ، وأخذ اربعمائة روبل فى السنة ، وربما كان اكثر
من ذلك .. وهذا يكفى لتيسير امرنا .

— مانيا .. ياصغيرتى مانيا ! ..

ولم يكن ما اثر فى برونيا اختيار أختها مهنة التابعة ،
انها « مثالية » كأختها ، تحتقر الاحكام الاجتماعية المبتسرة
.. كلا ، بل ان ما اثر فيها هو الفكرة التى تمكنها من بدء
دراستها فى الحال ، فى حين تحكم مانيا على نفسها بالعمل
المضنى ، والانتظار الاليم .. فتحاول ان تعارض :

— ولماذا أسافر أنا أولا ؟ .. انك موهوبة اكثر منى ..
وسيكون نجاحك سريعا جدا .

— لا تكونى حمقاء يابرونيا ! .. لانك فى العشرين ، وانا فى السابعة عشرة ، فأمامى المجال فسيح .. وهذا أيضا راي ابينا .. ومن الطبيعى أن تتقدم الكبرى . وعندما يصبح لك أيتها الطيبة زبائن تفرقيننى بالذهب .. وهذا رجائى ! .. وبذلك نؤدى شيئا عمليا ذكيا .

وفى ذات صباح من شهر سبتمبر ١٨٨٥ ، كانت فتاة صامتة تنتظر دورها فى مدخل مكتب تخدم ، وقد لبست من الثوبين اللذين تملكهما أشدهما تقشفا ، وتحت قبعتها البالية دبابس تمسك خصل شعرها الذهبى ، فلا يجوز لمربية أن تدع شعرها يبدو ، بل ينبغى أن تكون المربية مؤدبة ، بسيطة ، شبيهة بكل الناس !

وفتح الباب ، ودعيت مانيا .. فأصابها الخجل .. ودعكت فى يدها حزمة ضئيلة من الاوراق والخطابات ، وكانت امرأة ضخمة جالسة وراء المكتب الصغير :

— ماذا تريدن أيتها الانسة ؟

— أطلب وظيفة مربية .

— وهل لديك شهادات ؟

— نعم . فقد أعطيت دروسا .. وهذه شهادات آباء

التلاميذ ، وهذه دبلومى .

فنظرت مديرة مكتب التخدم ، بعين فاحصة خيرة ، فى وثائق مانيا .. وبدأ عليها الاهتمام بها .. وسألتها :

— أتعرفين حق المعرفة الالمانية والروسية والفرنسية والبولونية والانجليزية ؟

— أجل ياسيدتى .. ومعرفتى بالانجليزية أقل .. ولكننى أستطيع تدريس مواد البرامج الرسمية .. وقد تخرجت فى المدرسة الثانوية بالمداية الذهبية ..

— آه ! .. وما طلباتك ؟

— أربعمائة روبل فى السنة ، والتكفل بى .

- ومن هم اهلك ؟
- ابي استاذ في المدارس التجهيزية .
- حسنا .. ربما وجدت لك عملا .. ولكن كم عمرك ؟
- سبع عشرة .. ثماني عشرة عما قريب ! ..
- فكتبت السيدة ، بلغة انجليزية سليمة ، بطاقة المرشحة :
« ماري سكلودوفسكى . شهادات طيبة . طلباتها :
مربية . مرتب : أربعمئة روبل في السنة »
- وردت الى مانيا أوراقها :
- شكرا أيتها الانسة .. سأكتب اليك عند اللزوم .

مربية

دخلت مانيا سجن الحياة ، وبدأت معرفتها بالناس ،
فنزلت مربية عند أسرة محام :

« اننى لا أتمنى لالد أعدائى أن يعيش فى مثل هذا
الجحيم ! انه بيت من بيوت أولئك الاغنياء حيث يتكلمون
الفرنسية الركيكة حينما يكون عندهم ضيوف ! .. وحيث
لا يدفعون المطلوب منهم مدى ستة أشهر ، وبينما هم
يلقون بالنقود من النافذة ، اذ يقتررون أشد التقير فى غاز
الاستصباح ! .. ولديهم خمسة من الخدم ! . « فخفخة »
كاذبة ، هى نتيجة غباوة كثيفة .. وحيث يدور حديثهم
على الخوض فى الاعراض بغير حساب .. لقد بدأت أعرف
الجنس البشرى أحسن من ذى قبل ، وتعلمت أن
الاشخاص الذين تصفهم القصص والروايات كائنون فعلا .
وانه يحسن البعد عن الذين أبطروهم الفنى ، وأفسدهم
الشراء ... »

ان هذه اللوحة التى لارحمة فيها ، تصورها لنا مخلوقة
رقيقة لاتعرف الشر .. ولكنها تدل على مبلغ مافى مانيا من
السذاجة ، وعلى حظها من الاوهام .. فقد توهمت ، اذ
اشتغلت عند أسرة بولونية ميسورة الحال ، أن ستجد
فيهم آباء كراما ، وابناء لطافا .. وكانت على استعداد
لان تتعلق وتحب ، فكانت الخيبة مرة .. ولم تطق صبرا

على البقاء في ذلك الوسط : الوجيه مظهره ، الدنيء
مخبره ، اذ لم يسبق لها عهد بنفوس وضيعة ، مادية ..
نفوس مجردة من معاني الشرف .

كانت تعيش من قبل في وسط تقى تقى .. كانت محوطة
بمخلوقات متحابة ، تتزاحم على العلم ، وتتنافس في
الفضيلة .. كانت تعيش في جو متحمس للعمل والدرس
والطموح ، فلذلك لم تبد فيه مواهب مانيا ، « ماري كوري »
فيما بعد ، كما بدا قدرها ، وقدر اخوتها ، رائعا بعد
ان تحولت الى جو موبوء لم تكن تتخيل له وجودا . قارنت
اهلا بأهل ، واخوة باخوة ، وأبناء بأبناء .. وهاهي الفتاة
التي لم يحبها الزمان بأرومة عالية الحسب والنسب ، أو
ثروة طائلة ، قد صارت أشد ما تكون زهوا وكبرياء
بمولدها المتواضع ، وبالتربية التي لقيتها .

ولم تخرج مانيا من تجربتها الاولى ، وهي « مربية » ،
بهذه الاحكام القاسية على « الناس الذين افسدهم المال »
وحسب .. بل ادركت أيضا أن الخطة التي سبق لها
أن بسطتها لاختها برونيا ، تتطلب تعديلات جوهرية .

فقد قبلت العمل في فارسوفيا على أمل أن تربح مبالغ
كافية ، دون أن تحكم على نفسها بالنفي الاليم .. فكان
بقاء المربية المبتدئة في المدينة مخففا لهاديها ، اذ ستظل على
مقربة من بيت أهلها ، فتستطيع أن تتحدث كل يوم الى
أبيها لحظات .. فضلا عن متابعة الثقف والدرس لبلا .
ولكن التضحية تجر التضحية .. فهي لا تكسب القدر
الكافي من النقود .. وهي ، خاصة ، تنفق الكثير .
فمشترياتها اليومية الصغيرة لا تترك لها آخر الشهر الا
فضلات لا تذكر ، في حين ينبغي عليها أن تستعد لمعونة
برونيا التي سافرت مع صديقتها ماريا راكوفسكا الى
باريس ، وتعيش الان في الحى اللاتيني عيشة املاق ..

وكذلك ان يلبث الوالد سكلودوفسكى ان يحال الى المعاش
ويسبح في حاجة ايضا الى العون .. فما العمل ؟ ..
انها لا تفكر طويلا ، بل تقبل ماسبق ان عرض عليها من
مركز مربية في اقليم بعيد .. تثب الى جوف المجهول ..
ستكون سنوات فراق لأعزائها ، ووحدة مطلقة .. ليكن
مايكون ! .. فالمرتب حسن ، والنفقة معدومة .

وفي اول يناير ١٨٨٦ استقلت القاطرة في يوم بارد قارس
.. وهو يوم من أشد ايام مانيا ايلاما .. لقد اقدمت
وودعت والدها بابتسامة .. وحملها القطار سريعا ...
فأحست فجأة بوطأة الوحشة . وحدها ! .. انها وحدها
لاول مرة في حياتها .. جزعت تلك الصبية التي كانت في
الثامنة عشرة ، وراحت ترتعش من الخجل ، ومن التهيب ،
وهي في طريقها الى بيت اجنبي بعيد .. ترى ماذا يكون
حالتها اذا كان أصحاب البيت اللاحق كأصحاب البيت
السابق ؟! ثم اذا ما أصيب أبوها بمرض في غيابها ؟ ..
أتعود فتراه ؟! .. أو لم ترتكب حماقة ؟ .. ان عشرة ،
بل عشرين سؤالا ، تراحت وعذبت الفتاة الملتصقة بنافذة
القطار تنظر ، في المغيب ، الى مر السهول الشاسعة التي
غطتها الثلوج من خلال دموعها المنهمرة ، وهي تكفكفها
بيدها ، فتعود الدموع تنهمر .

ثلاث ساعات في سكة الحديد .. ثم أربع ساعات في
العربة الزاحفة على الجليد ، في جلال الصمت ، في ذات
مساء ، في قلب الشتاء ...

كان السيد « ز » وزوجته وأسرته قوما كراما ، يديرون
عزبة على نحو مائة كيلو متر من شمال فارسوفيا .. فلما
وصلت مانيا ، قدموا اليها شايا ساخنا ، وأنسوا وحشتها
بكلمات عذبة ، ودلتها سيدة البيت على غرفتها .. وام
تلبث ان تركتها وحدها مع حقائبها البائسة .

ومضى شهر وهى طيبة النفس بالمقام .. توثقت علاقة
الود والتفاهم بينها وبين بنت البيت « برونكا » ...
واخذت بالرفق أختها « أندسيا » وكانت فى العاشرة ،
وكانت مطيعة ، وان كانت مدللة لا تعرف النظام ، ولا تخرج
من فراشها الا بالقوة ، فتضنى مربيتها الرقيقة .
وكانت العزبة مائتى فدان تزرع « بنجرا » ، والى جانبها
مصنع السكر .. فالاسرة غنية ، ولكنها ليست طائلة
الفنى ، فان مائتى فدان ليست ضيعة تذكر بين هذه
الاقطاعات الكبيرة . وليس بيتهم قصرا ، وان كان اجمل
مما حوله ، تزينه حديقة تتحول فى الصيف جنة فيحاء .
ومرت الاسابيع ، ومرت الشهور .. وليست تربية
الاطفال مهنة هينة ، ان لها ثمنها الفادح ، تنال من فؤادها
وهى فى هذا كله لا تنسى أبناء وطنها الذين من حولها ،
تعرف لهم حقهم عليها فى التعليم . تريد ان تجدد جهاد
فارسوفيا ، تحيط تلميذتها برونكا برغبتها ، فتوافقها
من فورها .. ولكن مانيا تنذرها وتحذرهما : « فكرى
جيذا فى انه اذا كشف امرنا كان مصيرنا النفى الى سيبيريا »
تحرم نفسها من الانتقال فى اجازة الصيف لتوفر بعض
المال لنفسها ولاختها ، وتزيد فى جهدها لتعليم أبناء عمال
مصنع السكر . لا يكفيها ماتجد من متاعب تربية ثلاثة
اولاد ، فتتخذ عشرين ولدا فقيرا آخر تلاميذ لها .. وهم
من حولها ، بنين وبنات ، لا يطيب لهم منظر ولا رائحة .
ومع ذلك ، فحين يبدأون فى فك الخط ، ويعرفون الالف
من الياء ، يبهز آباءهم فوز ابنائهم المبين ، وكأن مانيا قد
اكتشفت قارة جديدة من الخير والسعادة . فهاهى تفكر
فى كل تلك القوى المهملة والمواهب الضائعة .. وتحس انها
ازاء هذا الاوقيانوس الهائل من الجهل ، اشد ما تكون
ضعفا ، واشد ماتكون عجزا ! ..

صبر جميل ..

هيهات ان يخطر ببال أولئك الفلاحين الصغار أن « مدموازيل ماريا » تفكر بأسى فى جهلها .. وما كانوا ليتوهموا أن معلمتهم تحلم بأن تعود تلميذة ، وأنها تريد بدلا من أن تعلم ، أن تتعلم ! ..

هذا ، وفى اللحظة التى كانت فيها مانيا تتأمل من نافذتها العربات المحملة بالبنجر فى طريقها الى مصنع السكر ، كان هناك فى برلين ، وفيينا ، وبطرسبورج ، ولندن ، الوف والوف من الشبان يستمعون الى الدروس والمحاضرات ، ويشغلون فى المعامل والمتاحف والمستشفيات ! وأذكر خاصة ، ان فى داخل « السوربون » الشهير يعلمون علم الحياة ، والرياضيات ، وعلم الاجتماع ، والكيمياء ، والطبيعة ! .

ان مانيا سكلودوفسكى تتمنى الذهاب للدرس فى فرنسا اكثر من أى بلد آخر ، فنفوذ فرنسا يبهز عقلها .. أما فى برلين وفى بطرسبورج فيسيطر الذين يضطهدون بولونيا ويحكمونها على رغمها .. وأما فى فرنسا فيعززون الحرية، ويحترمون كل الشاعر وكل المعتقدات ، ويرحبون بالتعساء والمضطهدين ، من أى مكان جاءوا .. أحقا ، أو فى الامكان، أن تأخذ مانيا القطار يوما ما الى باريس ؟ .. وهل يتاح لها أو يباح كل هذا الهناء العظيم ؟

لقد اضاعت كل أمل في ذلك . والاثنا عشر شهرا .
الاولى ، التى قضتها في حياة ريفية خاملة خائفة ، قد
امتدت خيالات فتاة : مهما تكن أهواؤها الفكرية وأحلامها ،
فهي ليست فريسة للشباح والاهام .

ومندما تحاول مانيا وضع الامور في نصابها ، ترى امامها
ماريا جليا ، ليس له في الظاهر مخرج . . ففي
مارسوفيا . ابوها الذى لن يلبث أن يحتاج اليها . . وفي
باريس ، برونيا التى لا بد من معاونتها خلال سنوات
وسنوات قبل أن تستطيع كسب مليم . . وهنا ، في هذه
العزبة النائية ، ماريا سكلودوفسكى ، مربية . . ومشروع
جمعها رأس مال ، وهو الذى بدا لها من قبل ممكنا ، هو
الآن يحملها على الابتسام . . فقد كانت خطة رسمتها طفلة
وها هي في صميم الريف البولونى ، ولا سبيل الى الفرار
من مثل هذه الديار !

وجميل أن نرى أن هذه المخلوقة النابغة ليست في
عداد المعصومين ، فهي ، عوضا عن أن تحتفظ بثقة
فوق الطاقة البشرية ، تتألم وتقنط كأي فتاة مثلها في
التاسعة عشرة . وجميل أيضا أن نراها تناقض نفسها .
ففي اللحظة التى تدعى فيها نبذ كل شيء ، تناضل
ببطولة ضارية ضد دفنها . انها يقينا الفطرة القوية التى
تحملها على السهر كل مساء امام مكتبها ، تقرأ مجلدات
في الاجتماع والطبيعة استعارتها من مكتبة مصنع
السكر ، وتزيد في محصولها الرياضى بمكاتبات نشيطة
مع أبيها .

انه لجهد جاهد ، وعبء باعظ لاندري كيف لم ينقض
ظهرها . فهي مبعدة في هذا المنفى الريفى ، محرومة من
التوجيه والنصح . . وهى تلمس طريقها ، خبط
عشواء ، في تيه المعرفة ، تشد التحصيل من كتب

مدرسية عتيقة . وفي ساعات اللوعة ، كانت تشبه
فلاحها الصفار الذين يلقون بعيدا كتب الهجاء في حال
يأسهم من معرفة القراءة . ومع ذلك كله ظلت تتابع
مجهودها كفلاحة عنيدة .

وكتبت بعد ذلك بأربعين عاما تقول :

« ان الأدب كان يشوقنى بقدر ما يشوقنى الاجتماع
والعلوم البحتة . بيد انى عندما حاولت شيئا فشيئا ان
اكتشف ميولى الحقيقية ، خلال تلك السنين العاملة ،
وجدتني آخر الامر اتجه نحو الرياضيات والطبيعة ..

وكانت دراساتي المنفردة متشعبة العقبات . وكانت
تربيتي العلمية التي تلقيتها في المدرسة أبعد ما تكون عن
التمام ، وأقل بكثير من برنامج البكالوريا في فرنسا .
فحاولت ان اكملها على طريقتي ، بمساعدة الكتب المختلفة
التي جمعتها يد الصدف . ولم تكن تلك الوسيلة
بالناجعة ، غير انها عودتني العمل المستقل .. وتعلمت
بها اشياء نفعتني فيما بعد ... »

وهي تعمل من الصباح الى المساء . فاذا خلت من
العمل .. وجب ان تتعلم على شيخ من أقارب اهل
البيت لعبة الشطرنج! لتلاعبه وتسليه! .. وهو ما ينزعها
عن كتبها ، ويدعوها الى الشكوى الى بنت عمتها
« هنرييتا » :

(...) وكتبت الى برونيا العزيزة من باريس ، تشكو
صعوبات الامتحان ، وانها تعمل كثيرا ، وأن صحتها
تدعو الى القلق .

تسأليني عن خطط المستقبل ؟ .. ليس لدى منها
شيء ، أو هي من البساطة بحيث لا أجد حاجة الى
الكلام عنها . سأجاهد ما استطعت ، ويوم لا أستطيع ،

سأقول : وداعا لهذا العالم السفلى ! ، وتكون الخسارة طفيفة ، ويكون الاسف هينا ...

وبعض الناس يزعمون أنه لا بد لى من تذوق تلك الحمى التى يسمونها الحب . وهو لا يدخل فى برنامجى على الإطلاق . وإذا كانت لى قبل الآن هواجس فقد تبخرت ، وقد دفنتها وختمت عليها ، ونسيتها ..)

ان هذه اللهجة اليائسة ، والاشارة الى الانتحار ، والتشكك فى الحب ، تتطلب تفسيراً .

والتفسير بسيط تافه .. يمكن أن يسمى « قصة فتاة فقيرة » .. كالذى نراه فى قصص العواطف التى لا حصر لها .

وقصة مانيا سكلودوفسكى تبدأ بأنها كانت قد أصبحت جميلة ، تتلأأ بشرتها نضرة ، وينشر شعرها تبراً .. كان محياها يلفت النظر بما فيه من فم يدل على العزم ، وعينين رماديتين ، عميقتين تحت أهدابهما ، كبيرتين من اتساع نظرتهما ..

فلما عاد ابن الاسرة البكر « كازيمير » من جامعة فارسوفيا ليقضى فى العزبة أيام العيد ، ثم عطلة الصيف الطويلة .. وجد فى البيت مربية ترقص رقصاً مدهشاً ، وتجذف ، وتزحف على الثلج .. وهى روحية مهذبة تحفظ الشعر ، كما انها تركب الخيل ، وتقود المركبة .. فتاة تختلف كل الاختلاف عن كل من عرفهن من الفتيات ! .. فوق فى حبها . ومانيا ، مانيا التى تخفى تحت مبادئها الثورية قلباً جريحاً ، قد فتنت بهذا الطالب الموفور الجمال ، الدمث الاخلاق ! .. ولم تكن قد بلغت التاسعة عشرة ، ولم يكن يكبرها الا بقليل . فتعاهدا على الزواج .

وكأن ليس شئ يعترض هذا الزواج .. حقاً ، ان

مانيا ليست فى العزبة الا « مدموازيل ماريا » المربية ..
ولكن الجميع يحبونها . فوالده يتنزه معها فى الحقول
نزهات خلوية طويلة ، والوالدة تحميها وترعاها ، وأخته
برونكا تعبدها .. وقد قدروا فضائلها .. فدعوا غير
مرة أباهما وأخاها وأختها للنزول عندهم .. وفى عيد
ميلاد مانيا يقدمون اليها الهدايا والزهور .

لذلك تقدم « كازيمير ز . . . » الى والديه تحدوه
الثقة ، بطلب الموافقة على الخطبة .. فجاء الجواب
خاطفا . غضب أبوه وثار تائثرته ، وكادت امه يغمى
عليها .. أيمن ، وهو كازيمير ، ولدهما الاثير ، ان
يختار مخلوقة لاتملك دانقا ، وهى مضطرة الى « الخدمة
عند الناس » ؟! هو ، الذى يستطيع غدا ان يتزوج من
هذا الاقليم أعز الفتيات جاها ، وأوفرهن مالا ؟! هل
أصابه مس ، فجن جنونه ؟!

وفى لحظة واحدة ، قامت الحواجز الاجتماعية
وارتفعت ، ولا سبيل الى اجتيازها ، فى بيت كانت
مانيا تعامل فيه معاملة الند ، كأنها صديقة . اما ان
الفتاة من أسرة طيبة ، وأنها مثقفة ، وأنها مستقيمة
ولا غبار على سمعتها .. أما أن أباهما رجل شريف
معروف فى فارسوفيا ، فليس شئ منه له وزن أمام
هذه الكلمات الخمس الصغيرة : « المرء لا يقترن بمربية
أولاد » .

وكان الطالب ضعيف الخلق ، وخشى غضب أهله ،
فانهار عزمه . وحبت مانيا نفسها فى جو من الصمت
المطبق المثلج ، استصغارا لشأن أولئك الذين هم دونها
.. وقد اعتزمت أمرا : الا تفكر بعد فى هذا الخيال .

ولكن الحب ، كالطموح ، لا يكفى مجرد الحكم بالموت ،
للقضاء عليه .

لم يكن في وسعها الا البقاء .. فالى اين تذهب ؟ ومن اين لها مثل هذا : مكان طيب ومرتب حسن ؟ .. وكيف تلجج اباهها برحيل مفاجيء ؟ ولم يعد ما ادخرته برونيا الا اثرا بعد عين .. فهي وابوها اللذان يدفعان لها تكاليف الدراسة بكلية الطب في باريس . فترسل كل شهر الى اختها خمسة عشر روبلا ، واحيانا عشرين روبلا ، اى نحو نصف مرتبها . فخير لها ان تتجرع كأس المهانة وتبقى ، وكأن شيئا لم يحدث البته ! ..

شقية في الحب ، يائسة من تحقيق احلام عقلها ، هسر مادي شديد ، لا يبقى لها من اجرها شيء بعد الذى تساعد به هؤلاء وهؤلاء من اهلها ... وهى تتجه الى اسرتها ، لا لتشكو او تطلب العون ، ولا لتبدي مرارتها بل لتمحض النصيح ، وتقدم يد المساعدة ، كيما تكون لهم حياة موفورة .

تشير على اخيها جوزيف ان يبقى في فارسوفيا ليزاول الطب ، ولو استدان بضع مئات من الروبلات ، ثلثا يقبر نفسه في الريف ، ويحرم من جو البحث العلمى ، بلا صيدلية ، ولا مستشفى ، ولا كتب ولا مجلات .. وبذلك تؤثر استمرار تضحيتها بدلا من ان يحمل عنها اخوها بعض اثقالها . وتهاجمه من ناحية العاطفة : برونيا في باريس ، وهىلا قد تتزوج المسيو «ب» وهو سيبعد عن فارسوفيا ، فماذا يصيب اباهم المسكين وحده ؟

لم تسمع ان اختها هىلا لم توفق الى الزواج :
(انى لاتصور الجرح الذى اصاب هىلا في كرامتها ..
لماذا كان هؤلاء الناس لا يريدون الزواج بالفتيات
الفقرات ، فليذهبوا الى الشيطان ! .. فليس احد

يسألهم زواجا .. فلماذا يزيدون الطين بلة ، ويعكرون
صفو مخلوق برىء ؟ ..)

واقرا خطابها الى جوزيف في ١٨ مارس ١٨٨٨ :

(ياعزيزى جوزيو الصغير ! سألصق على هذا الخطاب
آخر طابع أملكه ، وليس لدى مليم واحد فعلا ، فلن
اكتب اليك قبل العيد ... فتقبل اذن من الآن تهانى ،
واعلم ، اذا قصرت فى الكتابة ، أن الذنب ذنب نقود
وطوابع لا أثر لها عندي ، وهو ما يحز فى صدرى . أما
الطلب فشئ لم أعوده بعد ...

لشد ما أتمنى أن لو اقضى بضعة أيام فى فارسوفيا ! .
ولست أذكر ثيابى التى لم تعد تحتمل ، ولكننى أذكر
أيضا روحى التى لم تعد تستطيع صبرا ... ليت لى
الخلاص أياما من هذا الجو البارد ، المبرد ، الناقد ،
الذى فيه رقابة مستمرة على أقوالى ، وتعبير نظراتى ،
ومعنى حركاتى ! ..

لقد مضى وقت طويل لم تكتب الى فيه مانيا . فهى
بلا شك مثلى ، ليس لديها طابع بريد ! .. فاذا استطعت
أن تضحى طابعا ، فرجائى أن تكتب الى ! .. فانى فى
قلق على هिला بعد خيبة أملها فى الزواج ، وعلى أبى ..
ولست أسعد حظا ، فلولا تفكيرى فى برونيا لاستقلت
من هذا البيت ، ورحلت .. ولكن مبدئى الاول : ألا
اقع صريعة الحوادث ، ولا فريسة الناس ... »

الفرار

مرت ثلاث سنوات منذ أصبحت « مدموازيل ماريا » مربية . . ثلاث سنوات متشابهة مملة: كثير من الاعمال ، ولا مال . . وبعض المسرات ، ثم حزن شديد . . والآن ، ستجىء حركات عرضية فتحول كيان الفتاة الجامد الكتيب . ان بعض الحوادث فى باريس ، وفى فارسوفيا ، ول هذه الضيعة البولونية السحيقة ، ستقع . . ومهما

لكن ضئيلة فى ظاهرها ، فهى ستغير اللعبة الخفية التى يلعبها قدر مانيا ، فيتقرر المصير .

فالمسيو سكلودوفسكى بعد ما أحيل الى المعاش ، طلق يبحث عن عمل يدر عليه رزقا ليعين بناته . ففى ابريل ١٨٨٨ قبل وظيفة من شر الوظائف ارهاقا وازعاجا ، لانها ادارة مدرسة للأحداث غير بعيدة عن فارسوفيا . . وكان جوها ووسطها وكل مافيها لايطاق ، ماخلا مرتبتها الكبير نسبيا . . فأرصد منه الرجل الكريم من فوره مبلغا شهريا لدراسات برونيا .

وكان أول مافعلته برونيا : أن طلبت الى مانيا ان تكف عن ارسال نقود لها ، وأن طلبت من أبيها أن يحجز من الاربعين روبلا التى يعطيها اياها شهريا ثمانية روبلات لدفع لأختها الصغرى مانيا ، لتعوضها شيئا فشيئا عما تلقت منها . ومنذ تلك اللحظة ورأس مال مانيا ، الذى بدأ يصفر ، قد أخذ يزيد . . .

وحملت رسائل طالبة الطب في باريس انباء طريفة
اخرى .. فهي تعمل ، وهي تجتاز امتحاناتها بنجاح ..
وهي تحب ! تحب بولونيا مثلها ، يدعى « كازيمير
دلوسكى » رفيقها في الدرس ، وهو ممتاز بجاذبيته
وصفاته ، ولا غبار عليه الا انه ممنوع من الاقامة في
بولونيا الروسية ، ومهدد بالابعاد الى سيبيريا اذا وطئتها
قدمه !

وكنا في الضيعة سنة ١٨٨٩ . لقد أنهت مانيا مهمتها ،
وآن لها الرحيل .. وقد وجدت المربية الشابة مكانا عند
أسرة « ف » من كبار رجال الصناعة .. فهو تغير
ماكان أشد حاجة مانيا اليه ، وتلفها عليه !

وداعا اذن يا حقول البنجر ويا مصنع السكر ! ..
ابتسامات لطيفة متبادلة من الجانبين .. ثم استئذان
.. لقد اعتقت ! . واستقلت القاطرة .. وأخذت تأكل

في الطريق خبزا وحلوى .. ثم وجدت السيد « ف »
وزوجته في انتظارها في المحطة .. وهما في غاية اللطف ..
ولم تلبث أن تعلقت بالاطفال ...

وستكون السنة القادمة للفتاة سنة دعة وراحة
نسبيا .. فالسيدة « ف .. » جميلة جدا ، وأنيفة
جدا ، وغنية جدا .. ولديها فراء وجواهر .. وأثوابها
من عند « ورث » الشهير في باريس .. وستعرف مانيا
وتشهد الاشياء الشائقة الطائشة التي يمكن للمال أن
يفدقها على المرأة المدللة - وهي الاشياء التي لن تحظى
بها أبدا - فكان هذا أول لقاء وآخر لقاء بينها وبين
الترف ! .. وكانت ربة البيت تفيض لطفًا وعطفا على
« مدموازيل سكلودوفسكى الفاتنة » .. تسرف في
مدحها ، وتصر على حضورها جميع حفلات الشاي
والسهرات الراقصة التي تقيمها ! ..

وفجأة ، رعد الرعد ، وبرق البرق ! .. فقد حمل
ساعى البريد ، ذات صباح ، رسالة من باريس : رسالة
رخيصة على ورق بالمرعبات ، سودتها برونيا بين
محاضرتين في مدرج الجامعة ، تعرض فيها الفتاة النبيلة
على مانيا ضيافتها ، في العام القادم ، في بيتها الجديد !
من برونيا الى مانيا - باريس ، مارس ١٨٩٠ :

(اذا سار كل شيء على مايرجو ، فاني سأستطيع
الزواج حتما عند بدء العطلة . وسيكون خطيبي قد صار
طبيبا ، ولا يبقى أمامي الا اجتياز آخر امتحاناتي .
وسنبقى سنة أخرى في باريس أنال فيها أجازتي ، ثم نعود
الى بولونيا . ولست أرى شيئا غير معقول في هذا
البرنامج . ألست على حق ؟ .. تذكرى أنى في سن
الرابعة والعشرين ، وهو ما لا يستحق الذكر ، أما هو
ففى الرابعة والثلاثين ، ولهذا خطره . ومن العبث
الانتظار أطول من ذلك !

... والآن ، أنت ، يا صغيرتى مانيا ، لابد لك من
أن تعملى يوما ما في حياتك عملا . فاذا جمعت بضع
مئات من الروبلات هذه السنة ، استطعت في العام
القادم ، الحضور الى باريس والسكنى عندنا ، حيث
تجدين الغذاء والمأوى . ولا مندوحة لك مطلقا عن أن
يكون معك بضع مئات من الروبلات للالتحاق بالسوربون .
وستعيشين السنة الأولى معنا . أما السنة الثانية
والثالثة ، اذ نكون قد رحلنا ، فأنا أقسم لك اننا ، أبى
وأنا ، سنهب جميعا لمعاونتك . فاحزمى أمرك واتخذى
قرارك ، فقد طال بك الانتظار ! وانى الكفيلة لك بفوزك
بالليسانس في سنتين . فكرى اذن ، واجمعى المال ،
وضعيه في مكان أمين ، ولا تسلفيه ! وربما كانت الخيرة
في تحويله من فورك الى فرنكات ، فان سعر القطع حسن

في هذه الايام ، وربما هبط بعد ذلك ...)
فهل تظن مانيا ستتحمس وتتهافت على هذا الهناء
معلنة وصولها ؟ كلا ، اطلاقا ! .. فان سنى النفى
والوحدة ، بدل ان تحد من طبع هذه الفتاة العجيبة ،
قد جعلتها تتردد وتتخرج .. وجعلها شيطان التضحية
قديرة على ان تضيق حظها ، وتفلت ، عن قصد ،
نصيبتها .. ذلك لانها قد وعدت اباه العيش معه ،
ولانها تريد مساعدة اختها هيللا ، ومعاونة اخيها
جوزيف .. لم تعد مانيا راغبة في السفر ! ..

وعادت برونيا فألحت .. ولكنها كانت ، مع الاسف ،
تنقصها الحجة القاطعة ، التى بها تستطيع ان تضعها في
القطار على رغبتها ، اذ كانت افقر من ان تستطيع دفع
نفقات رحيل اختها الصغرى .

وكان الأب لا يمتنى فراق صغيرته مانيا ، الاثيرة عنده
المفضلة ، فيدعها تسافر مغامرة في الدنيا الواسعة ..
كان يرجو لو ان شيئا حدث فاستبقاها في بولونيا ، مثل
زواجها بالشباب « كازيمير ز .. » مثلا ، فيكون له
صهران باسم كازيمير ! ..

ولكن مانيا كانت قد قطعت آخر اوصال تلك العاطفة ،
عندما تقابلت والفتى صيفا في الجبل ، ورات ترده
وجزعه على اهله .. فثارت وقالت :

— اذا كنت لاتعرف كيف تفسر الموقف ، فليس لى
انا ان اعلمك ذلك ؟ ..

وانتهى كل ما بينهما . وحسبت السنوات القاسية
التى قضتها تربي اولادا وتعانى ذلا وتشقى فقرا وحرمانا
من باريس وعلوم باريس .. فاذا هى قد تخرجت من
المدرسة منذ ثمانى سنوات ، وعملت مربية ست
سنوات .. ولم تعد الصبية المراهقة التى ترى امامها

كل حياتها . ففي بضعة أسابيع ستبلغ الرابعة والعشرين ! ..

وفجأة ، تصرخ ، وتطلب من برونيا الفوث :
من مانيا الى برونيا - فارسوفيا في ٢٣ سبتمبر
١٨٩١ :

(... والآن يابرونيا ، أسألك ردا نهائيا . فقررى ان كنت تستطيعين حقا أن تأخذينى عندك ، لأننى ، من جانبى ، قد قررت الحضور ، ولدى نفقاتى . فاذا كنت اذا ، بغير ضيق كثير ، تستطيعين اعطائى لقمة العيش ، فاكتبى الى ، فذلك هو الهناء العظيم ، لانه ينقذنى روحيا بعد المحن القاسية التى مررت بها هذا الصيف ، والتى ستؤثر على طول حياتى .. ولكننى من جانب آخر لا أريد ان أفرض نفسى عليك .

» ومادمت تنتظرين ولدا ، فانى قد أكون نافعة عندك . فاذا كان حضورى أمرا ممكنا ، فاكتبى الى ، واى امتحانات للدخول على اجتيازها ؟ وما آخر موعد للالتحاق بالجامعة ؟

ان فكرة السفر تشغلنى الى حد لا أستطيع معه ان احدثك عن شىء آخر قبل وصول رددك . فأتوسل اليك ان تكتبى الى حالا ، وانى أرسل اليكما أرق عواطفى .

تستطيعين ان تضعينى حيث شئت ، فلن ازحمك ، واعدك ألا أضايقك فى شىء ، أو اخل بنظام ... أضرع اليك ان تردى على ، ولكن بصراحة تامة ! ..)

واذا كانت برونيا لم ترد بالتلفراف ، فلأن التلفرافات ترف متلف لا قبل لها به . واذا كانت مانيا لم تلق بنفسها فى أول قطار ، فلأنها كان ينبغى لها أولا ، بدقة وتقدير ، أن تنظم الرحيل العتيد . فصفت على منضدة كل مالديها من الروبلات التى أضاف اليها أبوها فى آخر

لحظة مبلغا زهيدا ، وهو بالنسبة له شيء كبير ..
وبدأت احصائياتها :

كذا لجواز السفر . وكذا لتذكرة سكة الحديد ..
ويكون من نزوة الطيش ركوب القطار رأسا من فارسوفيا
الى باريس في الدرجة الثالثة ، وهو أرخص ما في روسيا
وفرنسا .. اذ توجد في المانيا ولله الحمد ، درجة رابعة
في عربات بغير دواوين ، مكشوفة ، أشبه بعربات
البضائع ، وفي كل جانب من جوانبها الاربعة دكة
خشبية ، وفي الوسط فراغ اذا جلس فيه المرء علي
كرسي يطوى يحمله معه ، فلن يسوء مقاما ! ..

ولم تنس نصائح برونيا العملية : أن تأخذ معها كل
مايلزمها لحياتها ، بحيث لاتفاجأ في باريس بنفقات ..
وسيرسل سرير مانيا والمراتب والبياضات والفوط قبل
سفرها بزمان طويل ، بقطار البضاعة غير المستعجل ..
أما ثيابها ، المصنوعة من صوف متين ، وأحذيتها ،
وقبعاتها ، فقد جمعتها حولها الى جانب حقيبة خشبية
كبيرة بنية اللون ، خشنة جدا ، ومتينة جدا ، رسمت
عليها الفتاة بشفف الحرفين الاولين الكبيرين الاسودين
من اسمها ! ..

وسافرت المراتب ، وسجل الصندوق الخشبي ،
وبقى للمسافرة أنواع من اللفائف والصرر التي لا يروق
العين منظرها ، والتي ستكون رفيقتها في رحلتها ..
وأعدت زادها من الطعام والشراب لأيام السفر الثلاثة
في القطار ، وكتبا ، وكيسا من « الكراملة » ، وبطانية ..
وفي الليل ، الذي تمزقه صفارات القاطرة ودوى
العجلات ، اجتازت عربة الدرجة الرابعة المانيا ..
وانطوت مانيا فوق كرسيها وقد غطت ساقها ، وهى تضم
اليها صررها ، وتعنى الفينة بعد الفينة بتعدادها ! ..

وهى فى هذا كله تتذوق فرحها الالهى .. تفكر فى الماضى ،
وفى هذا السفر الخيالى الذى طال انتظاره .. وتحاول
أن تتصور المستقبل .. وتزعم أنها لن تلبث أن تعود
الى مسقط رأسها ، معلمة متواضعة .

فما كان أبعداها ، وما كان أقصاها ، اذ صعدت هذا
القطار ، عن التفكير فى أنها قد اختارت حدا يفصل بين
الظلمة والشعلة : بين حقارة الايام المتشابهة ، وبين
حياة حافلة لا حد لها ...

باريس

لم يكن فى باريس يومئذ اوتوبيس ، بل امنيبوس ، بثلاثة خيول ودورين ! . ولم يكن الطريق من حى لافيليت - السلخانة ! - الى السوربون ، بالطريق المريح او السريع .. ولم يكن يمر بأجمل احياء باريس ... فمن شارع المانيا (شارع جان جوريس الآن) حيث كانت تقطن برونيا وزوجها ، اومنيبوس الى محطة الشرق (جاردى لست) ومن محطة الشرق الى شارع المدارس (رو ديزيكول) اومنيبوس آخر .

وكان الدور الثانى من الامنيبوس - ويدعى « الامبريال ! » - وهو المعرض لكل الادواء ، والذي يسبب الدوار ، هو الذى تسرع اليه مانيا لانه كان ايضا الارخص والاظرف ! .. وتحت ابطها حقيبة قديمة من الجلد كانت تصاحبها فى فارسوفيا . ومن قمة هذا المرصد المتحرك تمد عنقها ، وتلتهم ماحولها .. ماذا عليها ان كان شارع لافايت لاينتهى ؟ او كانت حوانيت بولفار سيباستبول متزاحمة ، متراسة ، متشابهة ؟ .. فهذه الحوانيت الصغيرة ، وهذه الاشجار المتجردة من اوراقها ، وهذا الزحام ، وهذه الرائحة : رائحة ادب الارض ، كل هذا كان باريس .. فها انت يا باريس .. بعد ان طال السفر ! ..

ما أشد شعور الانسان بالشباب في باريس ، ما أشد
احساسه بأنه فتى ، قوى ، يتحفر حيوية ، ويتوثب
املا ! .. وياله من شعور مدهش ، في فتاة بولونية ،
شعور بالخلاص والتحرر ! ..

وعندما نزلت الى رصيف محطة الشمال « جاردى
نور » .. وقد اضنتها رحلة القطار الطويلة ،
انقصمت عنها فجأة قيود العبودية ، واعتدلت قامتها ،
وتنهدت مرتاحة القلب والرئتين . لقد كانت هذه اول
مرة تستنشق فيها مانيا هواء بلد حر . وبدا لها ، في
تحمسها ، كل شيء معجزا : من أولئك المارة يتزهون
فى الطرقات ، يتخاطبون باللسان الذى يفهمونه ، الى باعة
الكتب الذين يبيعون دون حرج مؤلفات العالم أجمع ..
حتى بدت لها المعجزات فى تلك الشوارع الفسيحة
الرأسية التى تتجه فى انحناء لطيف نحو قلب المدينة ،
وتقودها هى - مانيا سكلودوفسكى - الى أبواب الجامعة
المفتوحة على مصراعيها ! .. واية جامعة ! أشهر
الجامعات .. تلك التى وصفت منذ أجيال بأنها :
« مختصر الكون » .. تلك التى قال فيها لوثر : « فى
باريس نجد أشهر المدارس طرا وأفضلها : وتسمى
السوربون » ! ..

ان المفامرة جديرة بقصة من ألف ليلة وليلة ! ..
فهذا الامنيبوس البطيء ، المختل ، الثلج ، هو عربة
سحرية تقود الاميرة الفقيرة الشقراء من مسكنها المتواضع
الى قصر أحلامها ! ..

وعبرت المركبة نهر السين ، فبدا كل ماحول مانيا
يفتن اللب : الذراعان اللتان يمدهما النهر ذو الضباب ،
والجزر الرائعة بجلالها وجمالها ، والتمائيل ، والميادين
.. وهناك ، الى اليسار ، أبراج « نوتردام » .. ولما

بدأت الخيول تصعد بولفارسان ميشل ، خفت الوطء
وسارت خطوة خطوة .. انه هناك ! .. هناك ! ..
انها وصلت اذا ! .. فأمسكت الطالبة حقيبتها ، ولت
طيات ثوبها الصوفي الثقيل . وفي تسرعها دفعت ، غير
منتبهة ، احدى جاراتها ، فاعتذرت في خجل بلسان
فرنسي متردد .. ولم تلبث ان نزلت درجات الطبقة
العليا « الامبريال ! » من الاومنيبوس ، وصارت في
الطريق ، فهرعت بوجه مشرق نحو « عصر المعرفة »
.. فقرات اعلانا ابيض ملصقا على الحائط بجانب
مسكن البواب :

الجمهورية الفرنسية

كلية العلوم - الثلاثة أشهر الاولى

تفتح فصول السوربون يوم ٣ نوفمبر ١٨٩١

كلمات ساحرة ! بهرت عيني الفتاة التي جمعت قليل
مال : قرشا قرشا ، فصار لها حق الاستماع الى ماتحب
وتختار من الدروس المعلن عنها ، والتي لا عد لها . مانيا
الآن - وافرحته - طالبة في كلية العلوم !

وهي لم تعد تدعى « مانيا » ولا « ماري » .. فقد
سجلت اسمها في طلب الالتحاق ، بالفرنسية هكذا :
« ماري سكلودوفسكى » . وهو اسم لم يستطع رفاقها
ان ينطقوا مقاطعه البربرية « سكلو - دوفس..سكى »
ولم تسمح البولونية لأحد منهم برفع الكلفة فيناديها :
« ماري » ، فظلت مجهولة محوطة بالخفاء . وكثرا
ماكانت تمر تلك الفتاة ذات الثوب المحتشم البائس ،
ذات المحيا النافر ، والشعر الناعم الصافي ، في أبهاء
السوربون الرنانة ، فيدهش الشبان ويتلفتون متسائلين :
« من تكون ؟ .. » . ويجيء الجواب غامضا غالبا ان
هو جاء : « انها اجنبية .. اسمها لاينطق ! .. وهي

دائما فى الصنف الاول من دروس علم الطبيعيات ..
ليست ثرثرة ! .. » . ويتبع الشبان بعيونهم القوام
العادل حتى يختفى ثم يقولون : « شعر جميل ! .. »
وظل الشعر الذهبى والرأس السلافى زمنا ، عند
طلبة السوربون ، هما كل ما يحقق شخصية زميلتهم
المتوحشة !

ولكن هؤلاء الشبان كانوا ، يومئذ ، آخر ما يهتم تلك
الفتاة . كانت مفتونة ببعض السادة الوقورين الذين
تريد أن تنتزع سرهم من صدورهم ، والذين يسمون :
« أساتذة التعليم العالى .. » . وكانوا طبقا لتقاليد
المعهد المحترمة - يضعون عند القاء محاضراتهم ربطة
عنق بيضاء ، ويرتدون الثوب الجامعى الاسود اللطخ
دائما بالطباشير . فعاشت ماري منجذبة الى هذه
المسوح المهيبة ، وهذه اللحى الرمادية .

اول أمس كان فصل البروفسور ليتمان المنطقى
وامس استمعت الى البروفسور بوتى الذى يطبق رأسه
على كنوز من العلم . وودت ماري أن لو سمعت كل
الدروس ، وعرفت الثلاثة والعشرين أستاذ المسجلة
أسمائهم على اعلان الحائط . وعرضت لها صعوبات
جمة خلال الاسابيع الاولى ، اذ زعمت معرفتها التامة
باللغة الفرنسية ، فوجدت أنها يفوتها منها الكثير .
وزعمت أنها على ثقافة علمية كافية لتتبع دروس الجامعة ،
فوجدت أن كل ما تعلمته لا يمكن أن يحل محل البكالوريا
فى مدارس باريس . فوجدت أمامها عملا متواصلا
للبل أن تحصيل على ليسانس العلوم .. وكان
اليوم درس « بول آبل .. » : صفاء فى العرض ، وتنوع
فى الاسلوب . فما كان أهدأ صوته ، وأرق اشاراته ،
وانقضى عبارته ، حتى ليخيل لسامعيه أن الدنيا فى يده !

.. وهو يفامر في اقاليم المعرفة النائية فاذا بها دانية ،
ويلعب ما طاب له بالارقام ، بالنجوم .. ولما كان لا يتهيب
صورة من الصور ، فهو يقول بلهجة طبيعية للغاية ،
وهو يقرن الكلمات باشارة السيد المالك :

— انى آخذ الشمس ، والقى بها ..

والبولونية ، على المقعد الاول امامه ، تسمع ، وتبتسم
في نشوة وانجذاب .. وتحت جبينها الواسع المستدير ،
تلمع عيناها الرماديتان بالهناء .. كيف يكون العلم
جافا ؟! هل هناك شيء الذ وامتع من القواعد الثابتة
التي تحكم الكون ؟ او اروع وابدع من الذكاء الانسانى
القدير على اكتشافها ؟! لشد ما تبدو الروايات فارغة ،
والقصص الخيالية ينقصها الخيال ، اذا هي قورنت
بالظواهر الخارقة للعادة ، المرتبطة فيما بينها بقواعد
منسجمة ! هذا النظام الذى يبدو فى اللانظام ! .. ان
اندفاعا ، لا يمكن تشبيهه الا بالحب ، قد تولد فى نفس
الفتاة للانهاية المعرفة ، للاشياء وقوانين الاشياء ..

— انى آخذ الشمس ، والقى بها ..

حقا ، ان سماع هذه العبارة وحدها من فم عالم
مطمئن جليل ليجزى الجزاء الاوفى عن النضال والالم
بعيدا كل تلك السنين ! .. هنيئا لك يامارى !

من كازيمير دلوسكى (زوج برونيا) الى حميه المسيو
سكلودوفسكى

٩٢ شارع المانيا

الاستشارة من ١ — ٣

العيادة المجانية يومى الاثنين والخميس من ٧ — ٨

سيدى المحترم العزيز

(كل شيء عندنا على مايرام . الانسة مارى تداب فى
عملها ، وتكاد تقضى كل اوقاتها فى السوربون ، فلا نلتقى

الا عند طعام العشاء . انها فتاة مستقلة جدا ، وبرغم السلطات الرسمية التى خولتنى اياها بوضعها تحت رعايتى ، فهى لاتكتفى بعدم اظهار أى احترام لى أو أية طاعة فحسب ، بل تسخر منى ومن سلطتى ونفوذى ، حتى كأنهما فردتا حذاء مثقوب ...
وانى لأرجو ان أردھا الى جادة الصواب وان كانت مواهبي فى التربية لم تؤثر فيها حتى اليوم . ونحن مع ذلك على تفاهم تام ، ونعيش فى غاية الوئام .
انتظر بفارغ الصبر وصول برونيا ، فالظاهر ان الشابة زوجتى لاتتعجل العودة الى البيت ، فى حين ان وجودها فيه نافع جدا ، ونحن نتمناها كل التمنى .
واضيف الى هذا ان الانسة مارى تتلأأ صحة ونضارة وتقبلوا عظيم احترامى)

تلك كانت الانباء الاولى التى أرسلها الدكتور دلوسكى عن أخت زوجه التى كلف بانزالها عنده .. فى غياب برونيا ، وكانت تقضى فى بولونيا بضعة اسابيع .. وقد لقيت مارى من هذا الشاب ترحيبا عظيما ، رأت لأول وهلة ان أختها العزيزة برونيا قد أخذت لنفسها ، من بين جميع شباب بولونيا فى باريس ، أجملهم صورة ، واذكاهم عقلا ، وأخفهم روحا ، ثم أى نشاط وأية همة ! .. لقد كان كازيمير دلوسكى طالبا فى بطرسبورج ، ثم فى أودسا ، ثم فى فارسوفيا .. واضطر الى الهرب من روسيا لشبهة حامت حوله فى محاولة الاعتداء على القيصر أسكندر الثانى ، فأصبح صحفيا ثوريا فى جنيف ، ثم جاء الى باريس فالتحق بمدرسة العلوم السياسية ، وبكلية الطب ، ثم صار طبيبا .. وله فى مكان ما من بولونيا أسرة غنية ، وله فى ملفات وزارة الخارجية بفرنسا ، دوسيه أشد سوادا من تقارير

بوليس القيصر : وهو ما يحول دائما دون تمتعه بالجنسية الفرنسية ، والاستقرار في باريس .

وعادت برونيا الى بيتها فاستقبلت بالهتاف من زوجها واختها ، فهي ربة البيت التي تعرف كيف تدير دفتها .. ولم يلبث ان دبت فيه بدخولها الحياة ، ففاحت رائحة المطبخ الشهية ، ونظفت الشرفة المظلة على أشجار شارع المانيا ، وملأت الزهور البيت ..

وكانا في المساء يسيان متاعبهما في وسط حي القصابين هذا ، وهم زبائنهما من الرجال والنساء .. وبعد تنقل الطبيب - الشاب وزوجته - من بيت الى بيت ، يأويان مساء الى جانب مصابيح البترول ، ويلقيان عن كاهليهما اعباء كسب العيش .. وتعود ماري من الحي اللاتيني لتسمع زوج اختها يعزف البيانو عزفا بديعا ! .. ويقبل من أبناء بلدهم من تحلو له زيارتهم .. فالكل يعرفون ان الزيارة دائما مباحة .. فيجتمعون حول ابريق الشاي الذي لا يرتفع عن النار ، وشراب الفاكهة ، والفطائر التي تصنعها الدكتورة برونيا عادة بعد الظهر ، بين استشارتين ! ..

وفي ذات مساء ، وبينما كانت ماري منحنية على كتابها في غرفتها الصغيرة في آخر الشقة ، اذ دخل زوج اختها وصاح :

- اسرعى ، والبسي معطفك وقبعتك ! .. عندي تذاكر مخفضة في حفلة موسيقية .

فلما حاولت الاعتراض بما وراءها من مذاكرة ، ابي .. وقال :

- ان بولونيا عازفا على البيانو هو الذي يقيم الحفلة ، ولم يبع من التذاكر الا دون القليل ، والصدقة تقضى « بتعمير » الصالة ! .. وقد اختار بعض المتطوعين

الذين سيذهبون معهم للتصفيق حتى تتقطع أيديهم ،
ليخلقوا جوا للنجاح .

وكان ذلك العازف « الخامل » يومئذ تجرى تحت
أصابعه نغمات ليست وشومان وشوبان فترتد إليها
الحياة ، وكان يجيء عندهم في شقة شارع ألمانيا ..
وسيصر هذا الموسيقار العبقري ، يوما ما ، رئيس
وزارة بولونيا الحرة !.

وكان يدعى اينياس بادرفسكى ...
وراحت ماري تعمل بحرارة وهمة .. واكتشفت مسرات
الزمالة والتعاون التي يخلقها الجو الجامعي .. ولكنها
كانت ماتزال من حيائها الشديد بحيث لم توثق صلتها
بالفرنسيين ، فلجأت الى مواطنيها .. الذين لن يلبث
أحدهم أن يدخل أسرة سكلودوفسكى بزواجه من هيللا !.
وكان بينهم دكاترة وأساتذة ورئيس ، فيما بعد ، لجمهورية
بولونيا ! .. فكونوا لأنفسهم جزيرة لبولونيا الحرة في قلب
الحى اللاتيني .. وكان هؤلاء الطلاب الفقراء يعقدون
الاجتماعات ، وينظمون حفلات عشاء عيد الميلاد : يتطوع
الطهاة فيها بطهى الوانهم الوطنية ، وتقام حفلات تمثيلية
من الهواة بينهم .. وفي احدى الحفلات التي اقامها المثال
البولونى المشهور « وزانكوفسكى » وقع الاختيار على
ماري لتمثل فى اللوحات الحية دور « بولونيا تحطم
أغللها » ..

وبالطبع روت ماري لابيها قصة هذه السهرة وفوزها
فيها ، لكن الاستاذ كان دونها تحمسا :

« من مسيو سكلودوفسكى الى ماري . ٣١ يناير ١٨٩٢
ان رسالتك الاخيرة يا عزيزتى مانيا قد أحزنتنى .
لانى انكر اشتراكك فى دور عملى مسرحى .. فمهما يكن
بريئا ، فهو يعد كفيلا بأن يلفت الانظار اليك ، وفى باريس

قوم يحصون كل صغيرة وكبيرة من سيرك وسلوكك ،
ويدونون اسماء الذين يبرزون في أمثال هذه المظاهرات
للوقت المناسب ...

وهذا ماقد ينشأ عنه متاعب جمّة ، ويحول دون
العمل في مهن معينة . وعلى ذلك ، فان الذين يريدون
كسب عيشهم فيما بعد في فارسوفيا في ستر وسلام ،
ومأمن من الخطر والاضطهاد ، لايسعهم الا ملازمة
الهدوء ، والاحتجاب في ركن خفى أمين .. أما الحفلات
والمراقص وما اليها فتنشر الصحف اخبارها واسماء اهلها
وسيكون من اشد أسباب حزني ذكر اسمك يوما ما ..
لذلك قلت ، وأعيد عليك القول ، ناصحا لك بالبقاء في
معزل ما استطعت .. »

فهل هي سلطة الاب أو هي فطنة البنت التي حالت
دونها ودون الاندفاع في طريق لايجدى ؟ .. لذلك لم تلبث
مارى أن تبينت أن ماحولها من الاسباب يلهيها ويحول دون
عملها في سلام ، فابتعدت . انها لم تجيء الى فرنسا
لتكون صورة ماثلة في لوحة حية .. وكل دقيقة لا تقفها
على الدرس هي دقيقة ضائعة لاتعوض .

زد على هذا أن التركيز الفكرى كان ينقص مارى ، على
رغم الراحة التي كانت تجدها في بيت أختها . انه لايمكنها
أن تحول بين كازيمير وبين العزف على البيانو ، أو استقبال
الأصدقاء ، أو دخول غرفتها ، حين تكون هي تعاني حل
مسألة عويصة . ولا يمكنها أيضا أن تمنع المرضى من عملاء
الطبيين الشابين من دخول المسكن . وفي الليل ، تهب
من رقادها على صوت دقات الجرس ، ثم خطوات المبعوثين
الى برونيا لان امرأة جزار تكاد تلد ..

وفوق هذا كله ، فان سكنى حى المذبح « لافليت »

لا تطاق : ساعة الى السوربون ، ثم اجر مركبتى الامنيبوس
الفادح ..

فعقد مجلس حربى عائلى قرر أن تسكن مارى الحى
اللاتينى ، بالقرب من الجامعة والمعامل والمكتبات . وأصر
الزوجان الشابان على اقراض الفتاة بضعة الفرنكات التى
يتكلفها النقل . وجردت مارى فى الغد حملتها ، لزيارة
غرف الاسطح الخالية !..

ولم تترك ، الا على أسف ، شقة حى المذبح ، التى
يسكنها الحنان والشجاعة والدمائة واللفظ . فقدارتبطت
مارى بزواج اختها برباط من المحبة الاخوية سيبقى مدى
حياتها . اما بين مارى وبرونيا فانه تجرى منذ سنوات
قصة رائعة : قصة التضحية والتعاون والتفانى .

وكانت برونيا حاملا ، فوقفت تشرف على عفش اختها
الصفيرة الرث وهو يربط ويحزم ، ويوضع لقرب المسافة
على عربة يد ... ثم أخذوا ثلاثهم الامنيبوس « الامبريال »
الشهير ، وانتقلوا من « امبريال » الى « امبريال » ،
وصحب كازيمير وزوجته الطالبة حتى مسكنها ..
واستودعاها الله ...

أربعون روبلا في الشهر...

اجل ، ان عيش ماري سيظل ايضا ملبدا بالكفهرار ،
وسيبقى الخبز القفار نصيبها أمدا طويلا !.. فكانت
الاشهر القلائل التي قضتها عند اختها ، بشارع ألمانيا ،
مرحلة تأقلمت فيها . وهاهي الفتاة تفرق ببطء في أمواج
الوحدة . فأمخلوقات التي تحتك بها كتفاها لم يعد لها
عندها وجود أكثر من الجدران التي تلمسها في مرورها .
وقلما يجيء حديث يقطع عليها الصمت الذي غلفت فيه
أيامها ولياليها ، وستخصص منذ الان من حياتها أكثر من
ثلاث سنوات للدرس ، وللدرس وحده حياة تتفق وحلمها ،
حياة « كاملة » بالمعنى الذي يكون عليه كمال حياة الرهبان
والمرسلين ..

ولابد اذن من أن تكون لهذه الحياة بساطة حياة
النسك . فمنذ ما حرمت ماري نفسها ، اختيارا ، من
مسكن اختها ومطعمها ، تحملت وحدها كافة نفقاتها .
وكان دخلها - المكون من ادخارها على اجزاء ومن مبالغ
صغيرة مما قد يرسله اليها والدها - لا يزيد عن أربعين
روبلا في الشهر .

كيف يمكن ان تعيش امرأة ، اجنبية ، عيشة مناسبة في
باريس ، في ١٨٩٢ ، بأربعين روبلا في الشهر ، بثلاثة
فرنكات (اثني عشر قرشا) في اليوم ؟! عليها أن تدفع منها

(*) الاربعون روبلا يومئذ تساوي نحو ٢٠ ريالا مصرية

أجر غرفتها ، ووجبات طعامها ، وثمان ملابسها ، وكراريسها ، وكتبها ، ومصاريف الجامعة ؟.. هذه هي المشكلة التي لا بد لها من حل سريع . ولكن لم يحدث قط أن ماري لم تجد لاي مشكلة حلا !..

من ماري الى أخيها جوزيف ، في ١٧ مارس سنة ١٨٩٣
انك بلا شك قد علمت من أبى أننى قررت السكن في
حي المدارس . وأنه ، لأسباب شتى ، كان ذلك أمرا لازما
ولاسيما في هذه المرحلة . وقد تحقق الان هذا المشروع .
وانى اكتب اليك من مسكنى الجديد في شارع فلاترس رقم
٣ . وهو غرفة صغيرة ، مناسبة جدا ، ومع ذلك رخيصة
جدا . ففي ربع ساعة أستطيع أن أكون في معمل الكيمياء ،
وفي عشرين دقيقة في السوربون . وبالطبع ، لولا معونة
أختى وزوجها لما استطعت الى هذا الترتيب قط سبيلا .
وانى أشتغل خيرا ألف مرة من بدء مقامى بشارع ألمانيا
فقد كان من عادة زوج أختى الا يتركنى أبدا منفردة ،
ولا يتصور اشتغالى بشيء غير الثرثرة الظريفة معه ! وقد
أعلنت عليه حربا من أجل ذلك . ولم تمض أيام حتى
أسف هو وبرونيا على فراقى ، وجاءا لزيارتى . فشربنا
الشاي ، ثم نزلنا لزيارة أصدقائنا « س » الذين
يسكنون الحى . هل تعنى زوجتك بأبينا كما وعدتنى ؟! لا ،
فلتلق الله زوجتك من ابعادى عن البيت اطلاقا !.. فان
أبى قد بدأ يحدثنى عنها بحنان قوى بحيث أخشى أن
لا يلبث حتى ينسانى ...

ولم تكن ماري الطالبة الوحيدة التي تعيش في الحى
اللاتينى بمائة فرنك في الشهر . فان أكثر أترابها البولونيات
فقيرات جهد فقرها . وبعضهن يشغل ، كل ثلاث منهن أو
أربع ، مسكنا واحدا ، ويأكلن من طعام واحد . والبعض
الآخر ، ممن يسكن وحدهن ، يخصصن مدة ساعات في

اليوم لتنظيف المسكن ، وطبخ المأكّل ، وخياطة الثياب ورفوها ، ويتفنن في سد رمقهن ، وستر أجسامهن ، بأناقة تزيد أو تقل ... وهى الطريقة التى كانت تتبعها برونيا ، وتجاوبت آفاق الحى اللاتينى بشهرتها فى طهى الطعام ..

وقد أنفت ماري من اتباع هذه المثل الحكيمة . فهى احرص على راحتها من أن تشارك صاحباتها مسكنا . وهى مأخوذة بالعمل بحيث لا يمكن أن تلقى الى الراحة بالا ولو أنها مع ذلك أرادت ، لما استطاعت .. فقد كانت فى سن السابعة عشرة تعمل مربية فى أسر اجنبية ، وتعطى من الدروس الخصوصية سبع ساعات أو ثمانيا كل يوم فلم تجد فرصة تتعلم فيها كيف تدير بيتا . وكل ماتعلمته برونيا عندما كانت ربة بيت أبيها ، كانت ماري تجهله . وذاع فى الجالية البولونية : « أن المدموازيل سكلودوفسكى لا تعرف كيف يصنع المرق » ! ..

انها لا تعرف ، ولا تريد أن تعرف . لماذا تقضى صباحها فى دراسة خفايا اللحم المسلوق ، فى حين تستطيع أن تحفظ بضع صفحات من علم الطبيعيات ، أو تقوم فى المعمل ببعض التحليلات ؟

وكذلك مجت من برنامجها الملاهى ، والمجتمعات ، والمقابلات ، والاتصال بالمخلوقات البشرية . وكذلك قررت أن الحياة المادية ليست لها أدنى أهمية ، ولا وجود لها . وتسلمت بهذا المبدأ ، فكونت لنفسها وجودا معتزلا ، متقشفا ، غريبا ، متوحشا .

شارع فلانرس ، بولفار بور رويال ، شارع دى فيانتين ... حيث سكنت على التوالى فى غرف تتشابه فى ضالة الايجار ، والحرمان من أسباب الراحة . وكانت الاولى فى بيت فقير مفروش يقطنه الطلاب والاطباء

وضباط الثكنة المجاورة . ثم بحث الفتاة بعد ذلك عن الهدوء المطلق ، فاستأجرت غرفة سطح «Mansarde» كغرف الخدم في عمارة متوسطة . ففي مقابل خمسة عشر أو عشرين فرنكا في الشهر وجدت عشا صغيرا يأتيه النور من كوة مفتوحة في سقف البيت المنحدر . . فكانت ترى السماء من ذلك المربع الضيق المحدود . فلا دفء ، ولا نور ، ولا ماء . . .

وزودت ماري هذا المسكن بكل ماتملك : من سرير حديدي يطوى ، والمرتبة التي حملتها من بولونيا . . . وموقد ، ومنضدة من خشب أبيض ، وكرسی مطبخ ، وطشت غسيل ، ومصباح غاز ، عليه أبا جور من الورق ثمينة قرش . وسطل كان عليها ان تملأه من الحنفية التي على السلم . ووابور سبرتو بحجم طبق الفنجان ظل ثلاث سنوات متوالية يكفيها لطهى الطعام ! . . وصحنين ، ومديّة ، وشوكة ، وملعقة ، وفنجان ، وحلة ! . . ثم أبريق وثلاث كؤوس تصب فيها الطالبة الشاي ، كعادة البولونيين ، عندما تجيء أختها وزوجها لزيارتها . . . وتستخدم ماري حقيبتها الخشبية الكبيرة دولابا ومنضدة ومقعدا ! . .

ولا خدم ولا حشم ! . . فان تكليف خادم بترتيب البيت ولو ساعة واحدة يخل بميزانية البيت ! . . وكذلك الفيت مصاريف الانتقال ، فهي تقصد السوربون على القدمين ، وأقل ما يمكن من الفحم : كيس أو كيسان للشتاء كله ، لشترية الفتاة من تاجر الركن وتحمله بنفسها ، دلوا دلوا ، الى الدور السادس ، على سلم صعب المرتقى وتقف عند كل دور تلهث ، وتسترد أنفاسها . وأقل ما يمكن من الاضاءة : فلا يكاد يرى الليل سدوله حتى تقصد الطالبة ذلك الملجأ السعيد الذي يدعى « مكتبة

سانت جنفياف « ، بجوار البانتيون ، حيث النور والدفء . فتجلس ، وقد اعتمدت براسها على يديها ، الى احدى تلك المناضد الطويلة ، بولونية فقيرة تستطيع ان تعمل في النور والدفء الى ان يفلقوا الابواب في العاشرة مساء . ثم تضيء مصباحها الزيتي حتى الثانية صباحا وعندئذ تحمر عيناها من التعب ، فتترك كتبها ، وتلقى بنفسها على فراشها .

وكل ماكانت تعرفه من شغل البيت هو الخياطة . فهي تعالج الثياب التي حملتها معها من فارسوفيا بالرفو والتنظيف وتغسلها في الطست عندما تكون متعبة جدا من المذاكرة ، وحين تجد نفسها في حاجة الى التسلية والترفيه ! .

ولم تكن ماري ترى مسوغا لاصابتها بالبرد او الجوع فلكي لا تعود فتشترى فحما - وسهوا منها ايضا - تففل وضع الفحم في المصطلى ، وتمضي في كتابة الارقام ، والمعادلات ، دون ان تنتبه الى ان اصابعها قد صارت عديمة الحس ، وان كتفيها ترتعشان . ولو انها تناولت حساء ساخنا او قطعة من اللحم لاستردت قواها . ولكن ماري لا تعرف صنع الشوربة ! وماري لا تستطيع ان تنفق فرنكا وتضيع نصف ساعة في تحضير الكستليتة ! وقلما دخلت دكان جزار ، ويندر ان تدخل مطعما فهو كبير النفقة . فظلت عدة اسابيع لا تأكل غير الخبز المدهون بالزبد وتشرب الشاي . فاذا ارادت ان تقيم لنفسها وليمة دخلت حانوت ليسان في الحي اللاتيني وتناولت بيضتين ، او اشترت قطعة من الشوكولاتة او شيئا من الفاكهة .

وسرعان ما تحولت الفتاة التي غادرت فارسوفيا منذ بضعة اشهر قوية ناضرة الى فتاة هزيلة سقيمة بسبب

هذه الحمية . وكانت غالبا كلما نهضت عن منضدتها
اعتراها الدوار . فلا تكاد تصل الى سريرها حتى تفقد
الرشد . فاذا ماتنبهت تساءلت : لماذا اغمى عليها لا فتظن
نفسها مريضة ، وتستخف بمرضها كما تستخف بالقوت
ولا يخطر لها انها انما سقطت اعياء ، وان داءها هو
الجوع وحده .

وبالطبع لم تكن تباهى في بيت أختها بذلك النظام
المدهش لحياتها . ففي كل مرة تزورها ترد بعبارات
قصيرة مبهمة عن أسئلتها الخاصة بتقدمها في فن الطهى ،
وما تتناوله كل يوم من ألوان الطعام ! . فاذا قال زوج
أختها ان صورتها لاتدل على صحتها ، أكدت انها مرهقة
بالعمل ، فىرى ان ذلك فعلا هو السبب الوحيد لسقامها
ثم تبتعد بهما عن الاشتغال بأمرها ، بإشارة تدل على
عدم الاكتراث ، وتبدأ تلعب مع بنت أختها الطفلة التى
كانت نجبها حبا جما .

ولكن حدث يوما ان اغمى على ماري في حضرة احدى
رفيقاتها ، فهرعت هذه الى شارع ألمانيا . فجاء
كازيمير دلووسكى بعد ساعة يقفز درجات الادوار الستة
حتى غرفة السطح ، فرأى الفتاة شاحبة شيئا ما ، وهى
هاكفة على درس ألفد ! . ففحص أخت زوجها ، وفحص
الصحن النظيفة والحلة الفارغة ، والغرفة التى لم يكتشف
فيها من المؤونة الا ربطة شاي صغيرة . ففهم من فوره
وبدا الاستجواب :

— ماذا أكلت اليوم ؟

! — اليوم ! . . لا أدري . . فقد نفذت الساعة . .

فعاد صوت كازيمير الذى لا يرحم :

— ماذا أكلت ؟

— بعض الكرز . . ثم . . أشياء كثيرة . .

وأخيرا ، لم يكن لها بد من الاعتراف ، فهي منذ مساء أمس تعيش على حزمة من الفجل ونصف رطل من الكرز وقد اشتغلت حتى الساعة الثالثة صباحا ، ونامت أربع ساعات . ثم غابت عن الصواب .

فلم يلق الطبيب خطبا . بل كان ثائرا ساخطا : ثائرا على ماري ، التي كانت عينها الرماديتان تنظران اليه بتعب عميق وفرح برىء . . ساخطا على نفسه ، يتهم نفسه بأنه لم يسهر كما ينبغي على « الصغيرة » التي عهد بها اليه المسيو سكلودوفسكى . فلم يستمع الى احتجاجات أخت وزوجه ، بل ناولها معطفها وقبعتها ، وأمرها أن تجمع كتبها وكراريسها التي قد تحتاج اليها خلال الاسبوع القادم . ثم أخذها ، وهو صامت ، ساخط ، آسف ، الى حى المذبح ، ومن عتبة الشقة ، نادى برونيا التي هرولت الى المطبخ .

وبعد عشرين دقيقة . . كانت ماري تزرد الدواء الذي وصفه لها كازيمير : قطعة هائلة من البفتيك نصف مشوى وصحنا من البطاطس المحمر . . فاستردت وجنتاهما لونهما كأن ذلك كان بمعجزة ! . وفي الساعة الحادية عشرة مساء دخلت برونيا نفسها الغرفة التي وضعت فيها سريرا لاختها ، واطفأت المصباح . وهكذا ظلت ماري خلال بضعة أيام تأكل جيدا وتنام جيدا ، فتم لها « الاستشفاء » واستردت قواها . ثم عادت الى غرفة السطح ، نظرا لاشتغالها بدنو الامتحانات ، واعدة بأن تكون عاقلة في المستقبل . .

ومن اليوم التالى ، عادت ثانية للعيش على الهواء ! . . تعمل ! . . تعمل ! . . مندفعة بكليتها في دراستها ، منتشية بخمر نجاحها . . تحس أنها قديرة على أن تحفظ كل ما اكتشفه البشر . . فهي تتابع دروس الرياضيات ،

والفيزيقا ، والكيمياء . وهى تحب جو التجارب العلمية ،
وتسعد اذ يعهد اليها البروفسور ليبمان ببعض البحوث
التي تظهر فيها فطنتها وبراعتها . انها تحب معمّل
فيزيولوجيا السوربون هذا ، الذى يتطلب جوه الالتفات
والصمت ، وستظل متعلقة به الى يومها الاخير . . . فهى
واقفة ، واقفة على قدميها دائما ، امام منضدة البلوط ،
التي تحمل ميزانا دقيقا ، وقناني واباريق من البلور ،
يشتعل تحتها لهب الغاز ، وتتصاعد منها ابخرة ملونة ،
وتغلى في جوفها التراكيب ! . . فلا تكاد تفرق بين ماري
في معطفها الكتانى المجعد ، وبين اولئك الشبان الذين
ينحنون الى جانبها فوق الانابيب والبواتق . . . فهى مثلهم ،
تقدر صفاء الذهن وتركيز الفكر في ذلك المكان . . . وهى
لا تحدث ضجيجا ، ولا تنطق بكلمة لا نفع منها .

شهادة ليسانس . . . ليست تكفى ! . . ان ماري تقرر
الحصول على شهادتي ليسانس : واحدة في الفيزيقا
(علم الطبيعة) والثانية في الرياضيات . وقد تضخمت
مشروعاتها ، التي كانت بالامس متواضعة ، بسرعة ،
حتى لم تجد وقتا ، ولم تجد جراحة على ان تسربها
الى ابيها المسيو سكلودوفسكى ، الذى كان ينتظر بفارغ
الصبر عودتها الى بولونيا . وتراه في قلق خفى على تلك
التي انجبها مستقلة ، وقد طفقت تحلق بأجنحتها ، بعد
طول سنين من الخضوع والتضحية .

من مسيو سكلودوفسكى الى برونيا - ٥ مارس ١٨٩٣ :

« . . . ان خطابك الاخير يشير ، لأول مرة ، الى عزم
مانيا على تأدية امتحان الليسانس . وهى لم تذكر لى
قط ذلك في رسائلها مع سؤالي آياها عن هذا الامر .
فاكتبى الى على وجه الدقة متى يكون ذلك الامتحان ، وفي
اى تاريخ ترجو مانيا اجتيازه ، وماهى تكاليفه للحصول

على الدبلوم ؟ فلا بد لى من أن أفكر فى الامر مقدما حتى أستطيع ارسال النقود الى مانيا ، وعلى ذلك تتوقف مشروعاتى الشخصية .. فاذا ماعدت مانيا شاركتنى مكنى الحالى وهو مناسب جدا ، وكونت لنفسها تلاميذ شيئا فشيئا ، وقاسمتها ما لدى ، فتغلب على العقبات « ومهما تكن مارى نفورا ، فهى لا يمكن أن تتجنب كل يوم لقاء مخلوقات بشرية . وبعض الطلاب كانوا يبدون نحوها اللطف والود . فالاجنبات فى السوربون ينظر اليهن باعتبار . فهؤلاء الفتيات الفقيرات ، الموهوبات عادة ، قد جئن من أماكن سحيقة نائية الى الجامعة التى اسمها الشقيقان جنكور : « الام مرضع الدرس » ، فيثرن ميل الشبان الفرنسيين وعطفهم . فصارت الفتاة البولونية أليفة ، اذ رأت أن زملاءها يريدون أن يعبروا لها عن التقدير والعطف ، وعما هو أكثر من العطف أحيانا .. ولا بد أن مارى كانت جميلة جدا ، بدليل أن صديقتها الأنسة ديدينسكا Dydynska - الشابة الفاتنة التى جعلت من نفسها على صاحبها حارسة - قد هددت يوما بضربات مظلتها المعجبين المحتشدين حول الطالبة ! ..

وقد تركت الفتاة لصاحبها ديدينسكا مهمة دفع هذه الألوان من التقرب اليها ، فلم تكن تهماها ، وتقربت هى من الرجال الذين لا يتملقونها ، والذين كانت تستطيع أن تتحدث معهم عن عملها . فبين درس فى الفيزيكا وحصّة فى العمل ، تحدث بول بانلفيه ، وجان باران ، وشارل موران ، الذين سيصبحون أساطين العلم الفرنسى الحديث ... ذلك أن مارى لم يكن لديها وقت تمنحه للصدّاقة أو للحب . فهى تحب الرياضيات والفيزيكا ! ..

وكان ذهنها من الدقة ، وكان ذكاؤها من الصفاء العجيب ، بحيث لم يكن الهوس « السلافى » ليجيء فيعطل

مجهودها . وهى تستند الى ارادة حديدية ، والى ذوق مهووس بالكمال ، والى عناد لا يمكن تصوره . وقد وصلت الى كل اهدافها بنظام ، وصبر : فكانت الاولى فى « ليسانس الطبيعة » فى ١٨٩٣ ، وكانت الثانية فى « ليسانس الرياضيات » فى ١٨٩٤ .

وقضت بأن التعمق فى معرفة اللغة الفرنسية لابد منه . فبدلاً من أن تظل تهدر أو تقرر كالحمام ، عبارات وجمل رنانة فاسدة ، مدى شهور ، كما يفعل كثير من الاجانب ، حفظت قواعد اللغة والاملاء ، واضطهدت كل ما فى لهجتها من عجمة ..

وتمكننت بروبلاتها الاربعين من العيش . وبحرمان نفسها مما ليست فى غنى عنه ، استطاعت احياناً ان تمنح نفسها بعض الترف : مثل سهرة فى المسرح ، او نزهة فى الخلاء ، حيث تقطف من الفاب زهراً .. فالفلاحة القديمة التى فيها لم تمت . لقد تاهت فى المدينة الكبرى ، ولكنها تترقب منبت ورق الشجر ، ولا تكاد تجد فى يدها قليل وقت وقليل مال حتى تخف الى الفابات والاحراج ..

وجاء شهر يولييه : الحمى ، السرعة ، الامتحانات المروعة كالمحاكمات الجنائية .. الصباحيات الساحقة .. حيث تحبس مع ثلاثين طالبا فى قاعة الامتحان ، فاذا بها ، ترى الاحرف ، من تهيج أعصابها ، ترقص امام عينيها ، فتحدق دقائق عديدة ، وهى لاتستطيع أن تقرأ الورقة المنذرة ..

ثم تجيء الساعة المشهودة التى يحتشد فيها الطلاب واهلهم فى المدرج لسماع أسماء الناجحين حسب ترتيبهم فى الفوز .. واذا بها تسمع صوت המתحن يقطع السكون باسم هو فى رأس جميع الاسماء ، اسمها : « مارى سكلودوفسكى » ! ..

ليس من الناس من يحزر تأثرها . فتنتزع نفسها من

تهانىء رفاقها ، وتتملص من الزحام ، وتبتعد ... فقد دقت ساعة الاجازة ، والسفر الى بولونيا ، والعودة الى البيت ! ..

هنالك يتناوب دعوتها جميع آل سكلودوفسكى مستنكرين ما اصابها من هزال . فتأكل وتشرب وتسمن . فستكون امامها سنة مدرسية اخرى تستطيع فيها أن تعمل ، وأن تتعلم ، وأن تجوز امتحانا جديدا ، وأن تضعف وتنحف ! ..

وفى كل مرة يعود فيها الخريف يبدأ القلق يلح على مارى . فمن أين لها بالنقود ؟ .. وكيف تعود الى باريس ؟ ان كل ما ادخرته قد ذهب اربعين روبلا ، فأربعين روبلا ! . وتذكر خجلة ما يضربه أبوها على نفسه من الحرمان ليعينها ... وفى ١٨٩٣ بدا الموقف مؤثسا ، فكادت تعدل عن رحيلها ، لولا وقوع معجزة . . فتلك المدموازيل ديدينسكا التى كانت فى العام الماضى تدفع عنها ، بضربات شمسيتها ، المعجبين المتهافتين عليها ، قد بسطت عليها حمايتها بأفضل من ذلك . فقد كانت واثقة من أن مارى موعودة بمستقبل عظيم ، فهزت أرض فارسوفيا وسماءها لتحصل لها على « بعثة الكسندروفيتش » : وهى جائزة مخصصة للطلاب المتفوقين الذين يريدون متابعة دراستهم فى الخارج .

ستمائة روبل ! .. ما يكفيها للعيش خمسة عشر شهرا ! ومارى ، التى تعرف كيف تطلب أشياء كثيرة لسواها ، ما كانت أبدا ليخطر لها سؤال هذا العون ، ولا ما يتطلبه من مساع شاقة .. فبهرت ، وسخرت ، وطارأت الى فرنسا من مارى الى أخيها جوزيف ، فى ١٥ سبتمبر ١٨٩٣

(من باريس) :

لقد استأجرت غرفتى بالدور السادس ، فى شارع

نظيف لطيف يناسبني تماما . ونافذته تفلق جيدا، وارضها
خشب لا بلاط .. وهى اذا قورنت بغرفة العام الماضى
تعد قصرا منيفا !.. وهى تكلف ١٨٠ فرنكا فى السنة
(٦٠ قرشا شهريا !) فهى اقل ستين فرنكا من الغرفة
التى حدثنى عنها ابنى ، والتي لم أجدها مع ذلك خالية .
افى حاجة انا الى ان اعبر لك عن فرحى الجنونى بعودتى
الى باريس ؟ لقد كان يشق على كثيرا ان افترق من جديد
عن ابنى ، ولكننى اطمأنت على صحته وراحته ، وادركت
غناه بك عنى مادمت تسكن فارسوفيا . وانا ، ان حياتى
كلها على كف القدر .. فأستطيع اذن أن ابقى هنا دون
تأنيب ضمير .

من مارى الى جوزيف - ١٨ مارس ١٨٩٤

ان حياتى متشابهة ليس فيها مايستحق الذكر والرواية
بيد انى أشكو من ان الايام قصيرة جدا ، وأنها تمر سريعة
جدا . ولولا ان المرء يحب عمله لضاق ذرعا ، فان ماتم منه
لا يكاد يبدو ، ومابقى منه لا يكاد ينتهى ...
أريدك على ان تفوز بتقديم رسالة الدكتوراه .. فالحياة
فيما يلوح ليست سهلة ميسرة على أحد منا .. ولكن
لابد من المثابرة ، ومن الثقة بالنفس !.. ولابد من الاعتقاد
بأن المرء موهوب فى شيء ، وهذا الشيء ، لابد من بلوغه مهما
يكن الثمن .. فلعل الرياح تواتينا بما نشتهى فى اللحظة
التى يعصف فيها اليأس بسفينتنا ..

يا لنعمة هذه البعثة : بعثة الكسندروفتش ! .. ان
مارى ، فى تقدير جارج ، تحاول ان تمتد فى عمر الستمائة
روبل لتبقى اطول مدة فى جنات المدارج والمعامل !.. وبعد
ذلك ببضع سنوات ، سوف نراها بهذا التقدير الجارج
ايضا تدخر ستمائة روبل من اول ماتربحه - من بحث فنى
كلفتها به جمعية تشجيع الصناعة الوطنية - وتذهب

فتحمل المال الى سكرتير المؤسسة الكسندروفتش ، الذى
ذهل من رد المنحة ، وهو عمل لانظير له فى تاريخ المؤسسة !
وكانت مارى قد تقبلت هذه المنحة على أنها رمز ثقة ،
ودين شرف . فرأت بخلقها القوى القويم أن من الاخلال
بالامانة أن تحتفظ لحظة واحدة اكثر مما يجب بهذا المال ،
الذى يمكن الآن أن تعان به فتاة فقيرة أخرى .

ربما لم تفضل « التلميذة الخالدة » فى بقية حياتها اياما ،
مهما كانت مجيدة أو سعيدة ، على أيام البؤس والعناء فى
الحى اللاتينى . وهى لاشك قد مرت بها حالات هناء وظفر
بعد ذلك ، غير انها لم تكن قط فرحة بنفسها ، أو فخورا
بها ، كما كانت فى خلال جهادها فى وسط الحرمان والنيران
... أجل ، هى فخور بفقرها ، فخور بعيشها وحدها ،
مستقلة ، فى بلد أجنبى ، تعمل تحت المصباح ، فى مسكنها
البئيس مساء ، فيبدو لها أن قدرها ، الذى مازال ضئيلا ،
يلقى لقاء خفيا تلك الشخصيات العظيمة التى تعجب بها ،
وأنها تصير الرفيق المتواضع المجهول لكبار العلماء فى
الماضى ، العاكفين مثلها فى صوامعهم الضئيلة النور ، وقد
انتزعوا انفسهم مثلها من الزمان ، غيورين مثلها على عقولهم
يحملونها الى ماوراء علوم البشر المعروفة ...

أجل ، ان هذه السنين الاربع المجاهدة ليست فقط
أسعد سننى مارى كورى فحسب ، بل هى كذلك أكملها
فى عينيها ، وأقربها الى قمة الرسالة الانسانية التى يتجه
اليها قلبها ، ويرنفع اليها بصرها .. قد يكون المرء فتيا ،
وحيدا ، يفنى فى الدرس ، ولعله لا يكون لديه « ما يقيم
أوده » ، وهو مع ذلك يعيش ملء الحياة .. ان حماسة
لاحد لها قد منحت البولونية التى فى السادسة والعشرين
قوة تجاهل ضروب الحرمان التى تصيبها ، وتمجد وجودها
المعدم .. وسيجىء ، فيما بعد : الحب ، والامومة ،

ومشاغل الزوجة والام . ومشاكل الداب الساحق ، تجيء
لتحل في الحياة الحقيقية محل هذه الرؤيا . . . أما الآن ،
في هذه اللحظة السحرية التي هي فيها اشد فقرا واملاقا
مما سوف تكون أبدا ، فهي لا تكاد تحس ذلك ، كأنما هي
طفلة . . . فهي تحلق بخفة في عالم آخر ، لا يرى فكرها
دائما إلا انه العالم الوحيد النقي ، والعالم الوحيد الحقيقي

ولا يمكن أن يكون كل يوم سعيدا في مفامرة كهذه . فهناك
الحوادث غير المنتظرة التي تقع فجأة وتقلب كل شيء ،
وتبدو أن لا علاج لها : مثل تعب يستحيل التغلب عليه ،
ومرض قصير يتطلب العناية . وكذلك مصائب أخرى
مروعة : ان حذاءها الوحيد ، الذي خرقت نعله ، يتفتت
قطعا ، ولا بد من شراء حذاء سواه ! . فهي اذن الميزانية
تنقلب رأسا على عقب لعدة أسابيع ، ولا بد من تحصيل
هذا المبلغ الكبير وتعويضه من الطعام ، وغاز الاستصباح

ان الشتاء هذه السنة يشتد ويمتد ، ويثلج غرفة
السطح . . . البرد شديد جدا بحيث لا تأخذ ماري سنة
من النوم ، انها ترتجف من القر ، وقد انتهى خزينها من
الفحم . ولكن ماذا ؟ . . أترك فتاة فارسوفيا الشتاء
الباريسي يتغلب عليها ؟ . . فهي تضيء المصباح مرة أخرى ،
وتنظر حولها ، وتفتح حقيبتها الخشبية ، وتجمع ما عندها
من ثياب ، وتضع أكثر ما يمكن وضعه منها على جسدها ،
ثم تندس في فراشها ، وتجمع الباقي من ملابسها فوق
الغطاء ! . . لا يزال البرد شديدا جدا . تمد ماري ذراعها
وتشد الكرسي الوحيد عندها ، وترفعه ، وتضعه فوق
ملابسها المقدسة عليها ، لتوهم النفس بأن في الثقل حرارة !
ولم يعد أمامها الا انتظار النوم ، هكذا ، بلا حراك ،
حتى تظل تلك «السقالة» قائمة وهي تحتها قاعدتها الحية ! .

بیر کوری

محت ماری من برنامج حياتها الحب والزواج .

ليس هذا غريبا جدا . هذه هي . . فتاة فقيرة خاب
املها وذلت كبرياؤها في حلمها الاول الجميل ، فتقسم
لنفسها الا تحب بعد ذلك ابدا . زد على هذا أنها طالبة
سلافية ، تدفعها مطامح فكرية ، فتقرر بسهولة أن تطلع
عما يفرض العبودية ، ويكون هناء أترابها وشقاءهن ، حتى
تتمكن من أن تتبع استعدادها وتلبى نداء مواهبها ، وفي
كل العصور نرى النساء اللواتي يتلهفن على أن يصرن
فنانات عظيمات او موسيقيات شهيرات ينبذن قاعدة :
الحب والامومة .

وقد كونت ماري لنفسها عالما خفيا شديد القوى ،
لا رحمة فيه ولا تسامح ، يسيطر عليه اشتهاؤ العلم ويتحكم
فيه . ولحبة الاسرة ، وللتعلق بوطن مغلوب على أمره ،
مكانهما أيضا فيه . وكفى ! فلا شيء بعد له حساب ، ولا
شيء غير هذا له وجود . هكذا قررت ، تلك المخلوقة
الجميلة ، التي كانت في السادسة والعشرين ، والتي تعيش
وحدها في باريس ، والتي تلقى كل يوم شبابا في مدارج
السوربون ومعامله .

فهي مأخوذة بأحلامها ، مطاردة بالبأساء ، مضناة بعمل
هائل ، لا تعرف ما الفراغ وما اخطاره ومفاسده . وانفتها

وحياؤها يحميائها ، وكذلك حذرها : فمنذ ما أبى السادة « ز . . . » فى تلك العزبة البولونية النائبة ، أن يتخذوها كنة ، وهى مقتنعة بأن الفتيات اللواتى لا مهن لهن لا يجدن عند الرجال حبا ولا حنانا . فجعلتها النظريات الجميلة والتأملات المريرة تتصلب وتتشبث باستقلالها .

لا . لم يكن غريبا ولا مدهشا أن بولونية نابغة ، قد عزلها وجود ماحل ، قد حفظت نفسها لعملها . ولكن من المدهش الرائع حقا أن عالما نابغا ، فرنسيا ، قد حفظ نفسه لهذه البولونية ، وانتظرها دون وعى منه . . ومن عجب أنه ، فى الوقت الذى كانت فيه مارى بشقة شارع نوفولبيكى ، وهى تكاد تكون صبية صغيرة ، تحلم بالحضور يوما للدرس فى السوربون ، كان بير كورى يحلم - وهو عائد الى بيته من هذا السوربون نفسه ، بعد أن قام فيه باكتشافات فيزيقية هامة - بما سجله فى يومياته ، فى هذه السطور الحزينة :

« . . . ان المرأة ، أكثر منا بكثير فى حبها وتعلقها بالحياة لتحيا . والنساء النابغات نادرات . وعلى ذلك ، فعلينا ، عندما يدفعنا حب خفى ، نريد به أن نعطي كل أفكارنا لعمل يبعدنا عن الانسانية التى هى أقرب إلينا ، علينا أن نكافح النساء . . . فالام تريد قبل كل شئ أن تحب ولدها ، ولو جعل منه الحب ولدا أحرق . والخليلة تريد أيضا امتلاك عشيقها حتى نتجد أنه من الطبيعى جدا تضحية أجمل عبقریات الدنيا من أجل ساعة غرام . والكفاح يكاد يكون دائما غير متكافئ ، لان للنساء منه الجانب الاقوى فهن باسم الحياة والطبيعة يحاولن ردنا اليهن »

ومرت السنون ، ووقف بير كورى نفسه جسما وروحا على البحث العلمى ، فلم يتزوج واحدة من الفتيات التافهات اللطيفات اللواتى عرضن له فى طريقه . وهو الآن فى

الخامسة والثلاثين . وهو لا يحب أحدا .
وعندما كان يقلب مذكراته عفوًا ، وقد أهملها من زمن
طويل ، يعيد قراءة تلك التعليقات التي كتبت يوما بالحبر ،
فشحب الحبر على مر الزمان ، استرعت بصره ثلاث كلمات
ملؤها الأسف والحزن الى المجهول :
« ... النساء النابغات نادرات . . »

« حين دخلت ، كان بير كورى واقفا بباب الشرفة .
بدا لى فتيا جدا برغم بلوغه الخامسة والثلاثين . راعنى
تعبير نظراته الصافية ، ومظهر خفيف لعدم الاهتمام أو
للاستسلام ، فى قامته العالية . كان كلامه البطيء قليلا ،
فى اتزان ، وكانت بساطته ، وابتسامته التى فيها من
الشباب والوقار معا ، مما يوحى بالثقة . وبدأ بيننا حديث
لم يلبث أن صار وديا : وكان الغرض منه مسائل علمية ،
كنت سعيدة بأخذ رايه فيها »

بهذه العبارات البسيطة الخفيرة ، وصفت مارى أول لقاء
بينهما فى أوائل عام ١٨٩٤

فقد حدث أن بولونيا يدعى المسيو كوفالسكى Kouvalsky
وهو أستاذ الفيزيقا فى جامعة فريبورج ، جاء الى
فرنسا لقضاء شهر العسل مع عروسه ، التى سبق أن
تعرفت بها مارى . وكان القصد من رحلته علميا أيضا ،
لأن المسيو كوفالسكى كان سيلقى محاضرات فى باريس ،
ويحضر جلسات جمعية العلوم الفيزيقية . فلم يكد يصل
حتى سأل عن مارى ليطمئن على حالها . أخبرته الطالبة
بما كان يشغلها فى ذلك الوقت : فان جمعية تشجيع
الصناعة الوطنية قد كلفتها ببحث فى الخواص المغنطيسية
لأنواع صلب مختلفة ، فبدأت بحثها فى معمل البروفسور
ليلمان ، ولكن كان عليها أن تحلل معادن ، وأن تجمع
عينات منها ، وذلك يتطلب استعدادا ، ومكانا لا يتسع له

معمل مزدحم بما فيه . فهي لا تدرى ماذا تصنع وأين تقوم بتجاربها .

فقال البروفسور كوفالسكى بعد ما فكر لحظات :
« عندى فكرة . فأنا أعرف عالما عظيم القدر يعمل فى مدرسة الطبيعة والكيمياء بشارع لومون Lomond ،
فلعل لديه مكانا خاليا . وهو على أى حال قد يشير عليك برأى . فتعالى عندنا غدا لنشرب الشاي بعد العشاء ،
وسأرجو من الشاب الحضور . ولعلك تعرفين اسمه ،
فهو بير كورى » .

وفى خلال تلك السهرة الهادئة ، فى احدى غرف « البنسيون » العائلى الذى نزله الزوجان الشابان ، نشأ للحال استلطاف قرب بين العالم الفرنسى والطالبة البولونية .

وكانت لبير كورى جاذبيته الخاصة ، مزيج من الوقار والدمائة . كان طويل القامة . ثيابه الفضفاضة ، وليست من آخر زى ، يعوم فيها جسمه شيئا ما ، ومع ذلك كانت منسجمة عليه . وهو ، من حيث لا يدرى ذو أناقة طبيعية . وكانت يدها طويلتين ، وأصابعه حساسة ، وكان وجهه متناسب التقاطيع ، وكانت عيناه مطمئنتين لا مثيل لنظراتهما العميقة الصافية المترفعة ..

ومع أن هذا الرجل كان شديد التحفظ لا يرفع صوته البتة ، فقد كان من المستحيل ألا يلحظ المرء آية ذكائه النادر ووجاهته . وفى حضارة كحضارتنا ، التى قل أن يكون التفوق الذهنى فيها حليفا للسمو الروحى ، يكاد يعد بير كورى نوعا انسانيا فذا . فهو عقل عظيم وهو خلق نبيل .

والاهتمام الذى شعر به أول وهلة نحو الطالبة الأجنبية القليلة الكلام ، لم يلبث أن تضاعف بتطلع لا حد له . فهذه

الآنسة سكلودوفسكى حقا شخصية مذهشة ... هى اذن بولونية ، وقد جاءت من فارسوفيا لتحضر دروس السوربون ! وكانت فى العام الماضى الأولى فى ليسانس الطبيعة ! وهى بعد بضعة أشهر ستمتحن فى ليسانس الرياضيات !! واذا كان ، بين عينيها الرماديتين ، تلك التجميعية الصغيرة ، فذلك لأنها لا تدرى أين تضع أجهزتها لدراسة مغناطيسية المعادن الصلبة !!

فالحديث الذى بدأ أولا عاما ، لم يلبث ان تحول الى حوار علمى بين بير كورى ومارى سكلودوفسكى .. بدأت مارى بشيء من العناية ، توجهه أسئلة ، وتصفى الى مقترحات بير .. وهو أيضا قد بدأ يروى لها مشروعاته ، ويحدثها عن ظواهر مبحث التيلور الذى يفريه ، فهو يحقق خواصه . وفكر العالم الشاب فى أنه : ما أعجب ان يتحدث الى امرأة فى الأعمال التى يحبها ، مع استخدام الاصطلاحات الفنية ، والعبارات المعقدة ، وأن يرى تلك الفتاة : جميلة وشابة ! تتأثر ، وتدرك ، وتناقش أيضا بعض التفاصيل بعد نظر لا يخيب ! .. ما الذى هذا ، وما أمتعته ! ..

نظر الى شعر مارى ، وإلى جبينها المقوس العالى . وإلى يديها اللتين وشمتهما ، أو وصمتهما ، أحماض المعمل ، وخشنتهما أشغال البيت .

بلبله ما رآه من رشاقتها التى زاد فى تأثيرها خلوها من كل دلال .. واستعادت ذاكرته ما قاله له مضيفه عن الفتاة حين دعاه وإياها : انها اشتغلت مدى سنين قبل أن تتمكن من ركوب القطار الى باريس ، ليس عندها مال ، هى تعيش وحدها ، فى غرفة سطح ...

فسألها ، دون أن يعرف السبب :

— هل ستبقين فى فرنسا دوما ؟

فمرت سحابة على محيا ماريّا ، واجابت بنغمتها الشجية :
- يقينا لا . فاذا وفقت في امتحان الليسانس هذا
الصيف ، عدت الى فارسوفيا . وانى لأحب العودة الى
هنا فى الخريف ، ولكن لا أدرى ، فاذا ما تهيأت الى
الأسباب ، فسأكون فيما بعد ، معلمة فى بولونيا ، وأحاول
أن اكون نافعة . وليس للبولونيين أن يتخلوا عن بلادهم .
وتحول الحديث الذى اشترك فيه المسيو كوفالسكى
وزوجته ، الى الحديث عن الضغط الروسى المؤلم . وذكر
المعدون الثلاثة ذكريات وطنهم ، وتبادلوا انباء اهلهم
وأصدقائهم .. وراح بير كورى يسمع ماريّا تتحدث عن
واجباتها الوطنية ، مدهوشا ، مستاء استياء غامضا
لا يعلم له باعثا ...

فهو عالم طبيعى متشبع بعلمه ، لا يستطيع أن يتصور
كيف يمكن أن تشغل هذه الفتاة الموهوبة هبات خارقة
للعادة ، فكرة واحدة تخرج عن محيط العلم !! وكيف
يمكن أن تكون كل مشروعاتها للمستقبل هى : توجيه
قواها للنضال ضد القيصرية !!
ود لو عاد فرآها ..

من هو بير كورى ؟
هو عالم فرنسى عبقرى ، يكاد يكون مجهولا فى بلاده ،
ولكنه يقدر تقديرا عظيما من زملائه الأجانب .
ولد فى باريس ، بشارع كوفيه Cuvier ، فى ١٥
مايو ١٨٥٩ ، وهو ابن طبيب يدعى الدكتور أوجين كورى ،
وهو نفسه ابن طبيب أيضا . والأسرة من أصل الزاسى ،
بروتستانتية المذهب ، « برجوازية » متوسطة ، تخرج
جيلا بعد جيل من العلماء والمفكرين . ووالد بير ، الذى
اضطر الى مزاوله الطب لكسب عيشه ، هو من انصار

البحث العلمى . وكان محضرا فى معمل متحف التاريخ الطبيعى فى باريس ، ومؤلف بحوث فى عدوى السل . وقد اتجه ولداه جاك وبير منذ نعومة اظفارهما الى العلوم . اما بير فقد كان مستقل الراى خيالى الذهن ، فلم يخضع للعمل الدراسى المنظم ، ولم يذهب الى مدرسة قط . فأدرك الدكتور كورى أن ولده الغريب الطباع هذا لن يكون تلميذا نجيبا ، فبدأ هو نفسه بتعليمه ، ثم عهد به الى الأستاذ القدير « بازيل » Basille ، فأتت التربية الحرة ثمارها . ونال بير كورى بكالوريا العلوم فى السادسة عشرة ، والليسانس فى الثامنة عشرة ، وعين فى التاسعة عشرة محضرا للبروفسور « ديزان » Desains بكلية العلوم ، وظل خمس سنوات . وقام ببحوث مع أخيه جاك الذى كان أيضا ليسانسيه ومحضرا بالسوربون . ولم يلبث الشقيقان ان أعلنوا توفيقهما الى اكتشاف ظاهرة هامة أدت الى اختراع جهاز جديد يقيس بالدقة الكميات الضعيفة من الكهرباء .

وافترق الأخوان فى ١٨٨٣ على أسف ، لأن جاك عين أستاذا فى جامعة مونبلييه ، وأصبح بير رئيسا للبحوث فى مدرسة الطبيعة والكيمياء بمدينة باريس . وعلى الرغم مما كانت تستفرقه العناية بطلاب المدرسية من وقت كثير ، فقد تابع أعماله النظرية فى مبحث التبلور الفيزيقي . هذه الأعمال التى أدت الى اعلان « مبدأ التناسق » الذى أصبح من قواعد العلم الحديث . ثم استأنف أبحاثه فى المغنطيسية ، وحصل على نتيجة جوهريه باكتشاف قانون أساسى أطلق عليه « قانون كورى » . ولهذه الجهود التى توجت بنجاح باهر ، ولاهتمامه الشديد بتلاميذه الثلاثين ، تلقى بير كورى من الحكومة الفرنسية ، فى ١٨٩٤ ، بعد خمسة عشر عاما فى عمل متواصل ،

مرتبا شهريا قدره ثلاثمائة فرنك فى الشهر (تسعة جنيهات مصرية !!) أى نحو ما يكسبه عامل فى مصنع! .. ولكن عندما جاء أشهر علماء الانجليز الى باريس ، وهو اللورد كلفن Lord Kelvin ، لم يكتف بالذهاب الى جمعية علوم الطبيعيات لسماع بحوث بير كورى ، بل كتب هذا الشيخ الجليل الى العالم الشاب ، وعبر له عن اعجابه بأعماله ، وسأله موعدا . وفى ٣ اكتوبر ١٨٩٣ رغب اليه أن يسمح له بزيارته فى معمله . . . وتحدث الرجلان فى هذه الزيارات مدى ساعات فى الشئون العلمية ، وما كان أشد دهشة العالم الانجليزى عندما رأى بير كورى يعمل بلا مساعدين ، فى مكان يرثى له ، وينفق جل وقته بلا مقابل تقريبا ، وأن احدا فى باريس لا يعرف اسمه ، فى حين يعده اللورد كلفن استاذا ! .. وكان بير كورى رجل اباء وترفع ، لا برضى أن يرشح نفسه لوظيفة تحسن مركزه المادى ، عند استعفاء احد الأساتذة أو موته . . . فهو يرض بعقله أن يشغل بسفاسف الترصد للوظائف والدرجات . وهو كذلك يرفض وسام « سعف الأكاديمى » الذى اقترحه له مدير المدرسة . وكان يمكن بير كورى أن يكون كاتباً ، فان له من تفكيره وأسلوبه مزايا الكاتب . وكان يمكن أن يكون شاعرا ، وفنانا ، لأنه أوتى الحساسية والمخيلة وأسباب التثبيط والقلق التى لهم ، كما تدل على ذلك يومياته خلال ١٨٨١ التى يتساءل فيها عما سيصيب من دهره ، وينادى الكبرياء والطموح ليدفعاه الى الأمام ، وينقلاه من عيشه الخامل . . .

وظل الشاعر ، والعالم ، فى شخص بير كورى ، كلاهما يحرص على التقرب من الفتاة البولونية . فرآها مرتين أو ثلاثا فى اجتماعات جمعية علوم الطبيعيات ،

حيث كانت تستمع الى العلماء يسطون بحوثهم الجديدة .
وأهداها بعض بحوثه . ولمحها في معمل ليتمان ، في
معطفها التيلى ، منحنية فى صمت على أجهزتها . .
ثم سألتها أن يزورها . فأعطته ماري عنوانها : « شارع
الفيانتين rue des Feuillantines » . واستقبلته
بمودة ، وتحفظ ، فى غرفتها الصغيرة ، فانقبض قلب
بيير من كل هذا البؤس . ومع ذلك لم تبد له قط ماري
أجمل منها فى غرفة السطح هذه ، التى تكاد تكون خالية ،
بثوبها البالى ، وتقاطيعها المتحمسة العنيدة . وكان
محياتها الفتى النحيل الذى نال منه جهاد حياة نسك
وتقشف ، لا يمكن أن يجد اطارا أكمل روعة من هذه
الصومعة العليا الخاوية .

ومرت بضعة أشهر . وتوثقت عرى الصداقة ، وزادت
المودة بقدر ما كان يزيد التقدير والاعجاب المتبادلان ،
وكانت تزداد الثقة . وسرعان ما صار بيير كورى أسير
البولونية المشرقة ذكاء وصفاء . وكان يطيعها ويسمع
آراءها . فدفعته ، وهزته ، ومدته بروح منها ، فخرج
عن تراخيه ، وحرر تجاربه فى المغنطيسية ، وقدم فيها
رسالة رنانة نالت الدكتوراه .

وكان ماري كانت تزعم أنها ما زالت حرة . ولاح لها
كانها غير مستعدة لسماع الكلمات النهائية التى لا يجرؤ
العالم على النطق بها .

وهما ، هذا المساء ، ولعله للمرة العاشرة ، قد اجتمعا
فى غرفة شارع الفيانتين . الجو جميل ، فنحن فى أصيل
يوم من ايام يونيه . وعلى المنضدة ، الى جنب كتب
الرياضيات التى تستعين بها ماري فى اعداد امتحانها
القريب جدا ، كأس فيها بعض زهور المرجريت البيضاء ،
جاءا بها من نزهة خلوية ، وصبت الفتاة الشاي ، المغلى

على « وابور السبرتو » المخلص ! ...
وبعد ما تحدث طويلا فى عمل كان يشغله ، قال لها انه
يريد أن تعرف والديه . فهو يعيش معهما فى فيلا صغيرة
بناحية « صو » من ضواحي باريس . والأب شيخ كبير
أزرق العينين ، حادهما ، متوقد الذكاء طيب القلب ،
والام امرأة اثقلتها الامراض ، وأن كانت قد ظلت ربة بيت
بارعة ، باسلة ، باسمه .

فاستمعت اليه مارى مدهوشة من شدة الشبه بين
أسرتها وأسرته . فكلا البيتين ، على بعد المزار ، قد قام
على السيرة القويمة ، واحترام الفكر والثقافة ، والشفغ
بالعلم ، والحنان بين الآباء والابناء ، والميل الى الطبيعة
... فابتسمت ، وروت له ما سوف تلقاه فى ربوع
الريف البولونى بعد بضعة أسابيع ، فقال :

— ولكنك سوف تعودين فى أكتوبر . عدينى بأنك عائدة
لا محالة ! .. فانك اذا بقيت فى بولونيا تعذر عليك اتمام
دراستك .. ولم يعد من حقه الآن أن تهجرى العلوم !
وكانت هذه الكلمات تكاد تكشف عما فى نفس بيير
كورى من القلق والاشفاق . وكانت مارى تعلم أنه عندما
يقول : « وليس من حقه أن تهجرى العلوم » يريد أن
يقول : « ليس من حقه أن تهجرينى » ..

ثم ظلا فترة طويلة صامتين . وبعدها رفعت مارى
عينيهما الرماديتين نحو بيير، وأجابت بصوت ما زال متردداً:
— أعتقد أنك على حق . ولشد ما أريد أن أعود !
وتكلم بيير بعد ذلك عن المستقبل مرات عديدة . وسأل
مارى أن تكون له زوجا . ولكن الرد لم يكن مسعدا ...
أن تتزوج فرنسيا ، وأن تفادر أهلها الى الأبد ، وأن تعدل
عن نشاطها الوطنى ، وأن تتخلى عن بولونيا ، كل هذا
بدا للانسنة سكلودوفسكى من ضروب الخيانة الشنيعة .

فهي لا تستطيع ! وما ينبغي لها ! .. وقد اجتازت
امتحاناتها بتفوق ، والآن عليها أن تعود الى فارسوفيا ،
لقضاء الصيف على كل حال ، بل ربما للبقاء فيها دائما .
وتركت الشاب العالم مثبط العزم ، واعدة اياه بصداقة
لم تعد تكفيه ، وأخذت القطار دون أن تعد بشيء .
وهو يتبعها بالفكر . يريد أن يجتمع بها في سويسرا
حيث تقضى بضعة أسابيع مع أبيها ، الذي جاء للقائها .
أو حتى في بولونيا ، بولونيا التي هو غيور منها . . . !
اذن فقد مضى ، من بعيد ، يدافع عن قضيته .
وحيثما ذهبت ماري ، تقضى شهور الصيف ، في جرتياز ،
أولبرج ، أو كراكوفيا ، أو فارسوفيا ، تتبعها تلك
الخطابات المكتوبة بخط كخط الأطفال ، على ورق رخيص ،
في رأسه اسم مدرسة الطبيعة والكيمياء ، تحاول أن
تقنعها ، وتعيدها ، وتذكرها بأن بير كورى ينتظرها .
انها لرسائل جميلة مذهشة . . .

من بير كورى الى ماري سكلودوفسكى - ١٠ أغسطس ١٨٩٤

لا شيء يمكن أن يبهجنى أكثر من الحصول على
أخبارك . فان فكرة البقاء شهرين دون السماع عنك ،
لا يمكننى أن أطيقها . . وهذا ما يدلك على مدى ترحيبى
بكلمتك الصغيرة . لعلك تخترنين كمية وافرة من الهواء
النقى ، وتعودين إلينا في شهر أكتوبر . أما أنا فلا أظننى
سأسافر . سأبقى في الريف ، وانى طول النهار لعلى
نافذتى المفتوحة ، أو في الحديقة .

وقد تواءمنا ، أليس كذلك ؟ على أن يحمل كل واحد
منا للآخر على الاقل صداقة عظيمة . فليتك لا تغيرين
رايك ! .. لأنه ما من وعد يربط أحدا في مثل هذه
الشئون التى لا يوحى بها الإنسان . ومع ذلك فما أجمل
أن نقضى الحياة جنبا الى جنب ، مأخوذين بأحلامنا :

حلمك القومي ، وحلمنا الانساني ، وحلمنا العلمى .
ومن هذه الأحلام كلها أعد الأخير هو الحلم الوحيد
المشروع . أريد بذلك أننا عاجزون عن تغيير النظام
الاجتماعى ، وعلى ذلك فلسنا ندرى ما نفعل ، وإذا
اتجهنا وجهة ما ، لا نعرف : هل نحسن بذلك الاتجاه
أم نسيء ، بتأخيرنا تطورا محتوما . . . أما من وجهة النظر
العلمية ، فعلى الضد من ذلك ، نستطيع أن نطمح فى عمل
شئ . فالأرض هنا أشد صلابة ، وكل اكتشاف ، مهما
كان صغيرا ، مكسب للمعرفة .

اليس الأولى أن تبقى معى فى فرنسا ؟ . . انى أعلم أن
هذا السؤال يفضبك ، ولست أريد أن أكرره عليك ، فضلا
عن شعورى بأننى من كل وجهة لست جديرا بك . .
سأسعد كل السعادة إذا كتبت الى مؤكدة عودتك فى
أكتوبر ، على عنوانى ، ١٣ شارع سايلون ، صو السين
بيير كورى

من بيير كورى الى مارى سكلودوفسكى-١٤ أغسطس

١٨٩٤ . .

لم يستقر عزمى على اللحاق بك . وظللت يوما كاملا
مترددا حتى وصلت الى هذه النتيجة السلبية . فأول
ما خطر لى ، عند مطالعة كتابك ، أنك تفضلين عدم
حضورى . والثانى أنك كنت مع ذلك من العطف بحيث
سمحت لى بقضاء ثلاثة أيام معك ، فكدت أسافر ! ثم
شعرت بنوع من الاستنكاف ، أن الاحقك هكذا على
رغمك ، ثم كان مما حملنى نهائيا على البقاء ، ثقتى المطلقة
من أن حضورى سيضايق والدك ، وينقص عليه مسرة
صحبتك والتمتع بك .

والآن ، وقد فات الأوان ، أجدنى آسفا لأننى لم

اسافر ! فمن يدري لا لعل سفرى كان يضاعف صداقتنا
خلال تلك الأيام الثلاثة ، ويحملنا على ألا يتناسى أحدا
الآخر فى الشهرين ونصف الشهر التى تفرقنا !

هل أنت قدرية : تؤمنين بالقضاء والقدر ؟ أتذكرن
يوم كرنفال الصيام ؟ La Mi-Carême . فقد أضعنا
فجأة فى الزحام . ويخيل الى أن علاقاتنا الودية ستنتقطع
هكذا فجأة ، بغير رغبة أحد منا فى ذلك . لست قدريا .
ولكن قد يكون هذا نتيجة طباعنا . فلن أعرف كيف
أتصرف فى الوقت المناسب !

وربما كانت الخيرة فى ذلك لك ، لأننى لا أدري لماذا
وضعت نصب عيني أن أستبقيك فى فرنسا ، وأن أبعدك
عن بلادك وعن أهلِكَ دون أن يكون لدى من الطيبات
ما أقدمه لك جزاء هذه التضحية !

ألست مزهوة بنفسك شيئا ما عندما تقولين انك مطلقة
الحرية ؟ .. انا ، ان كثيرا وان قليلا ، عبيد عواطفنا ،
عبيد أحكام أولئك الذين نجبهم ، ثم اننا لا بد أن نكسب
عيشنا ، وبذلك نصبح عجلات ميكانيكية ..

وأشد ما يؤلم ، هو الامتيازات التى لا بد من تقديمها
للمجتمع الذى حولنا ، بأحكامه المبتسرة القاسية ..
ونحن نقدم منها الأقل أو الأكثر تبعا لقوتنا أو ضعفنا .
واذا لم نقدم منها الكفاية ، سحقنا سحقا . واذا قدمنا
أكثر مما ينبغى كنا حقيرين تتقزز أنفسنا من أنفسنا .
وها انذا بعيد عن المبادئ التى كنت اعتنقها منذ عشر
سنين .. فقد كنت فى ذلك العهد أعتقد بضرورة التطرف
فى كل شيء ، وعدم التنازل عن شيء للوسط المحيط بنا .
وكنت أقول بضرورة المفالاة فى العيوب ، كضرورتها فى
الصفات .. وكنت ألبس قمصانا زرقاء كالعمال .. وما
الى ذلك ..

« فها أنت ترين أننى قد أصبحت شيخا كبيرا جدا .
وأحس بضعف شديد . . أتمنى لك المسرة ، وأحييك . .
صديقك المخلص : « ب كورى »

من بيير كورى الى مارى سكلودوفسكى ٧ سبتمبر ١٨٩٤

ان خطابك قد سبب لى القلق كما تقدرين . وانى
أشير عليك بالعودة الى باريس فى شهر أكتوبر ، والا
تألمت أشد الألم . وليس هذا مجرد أنانية صديق ، بل
ثقة منى بانك ستؤدين عملا متينا نافعا .

ان لك طريقة عجيبة فى فهم الأنانية ! . . عندما كنت
فى سن العشرين ، أصابتنى نكبة ، اذ فقدت رفيقة
صباى التى كنت احبها كثيرا ، وفقدتها فى ظروف مروعة ،
ولا أجد من نفسى شجاعة على قص ذلك عليك . . فأمضيت
بعد ذلك الأيام والليالى بفكرة ثابتة ، ووجدت لذة فى
تعذيب نفسى هكذا بنفسى . ثم نذرت نفسى عن طيبة
خاطر لعيشة الرهينة ، وواعدت نفسى على ألا أهتم بعد
ذلك الا بالأشياء ، فلا افكر بعد فى ذاتى ولا فى الناس .
وطالما سألت نفسى منذ ذلك الحين : ألم يكن هذا الزهد
فى الوجود مجرد تبرير أمام نفسى لاحتلالها على حق النسيان؟
هل المراسلات حرة فى بلادكم ؟ . . أشك فى ذلك كثيرا ،
وأرى أن الأفضل عدم الاغراق فى التأملات ، فمع أنها
فلسفية بحتة ، قد يساء تفسيرها وتسبب لك ازعاجا . .
صديقك المخلص : بيير كورى

من بيير الى مارى سكلودوفسكى فى ١٧ سبتمبر ١٨٩٤

أثارنى خطابك ، اذ أحسست بك فيه قلقه غير
مستقرة . ثم طمأنتنى رسالتك من فارسوفيا ، اذ
شعرت بعودة الهدوء اليك . لقد أعجبتنى صورتك كثيرا .

ما اجمل هذا الفكر منك فى ارسالها الى . فشكرا لك من
مجامع قلبى .

اذن ، ستعودين الى باريس ، وانت تعلمين مدى
سرورى بذلك . فانى أريد حقا أن نكون ، على الأقل ،
صديقين لا تفرق بينهما الأيام . ألسنت من رأى ؟
لو أنك كنت فرنسية لتوصلت بسهولة الى التدريس
فى احدى مدارس المعلمات . فهل تروىك هذه المهنة ؟
أظهرت أخى على صورتك . . اترانى أخطأت ؟ وقد
اعجب بك كثيرا وأضاف : « انها تبدو ذات عزم شديد
.. بل ذات عناد » ! ..

صديقك المخلص : « ب كورى »

وجاء اكتوبر . بير كورى لا تسعه الدنيا من الهناءة .
ان مارى قد عادت الى باريس طبقا لوعدها ، وصارت
تشاهد مرة ثانية فى محاضرات السوربون وفى معمل
ليبمان . ولكنها فى هذه السنة - سنتها الأخيرة فى فرنسا
كما كانت تزعم - لم تعد تسكن الحى اللاتينى ، بل نزلت
لها برونيا عن غرفة متصلة بالعيادة التى فتحتها فى ٢٩
شارع شاتودان . وكانت برونيا ما تزال تقطن حى المذبح ،
ولا تجيء عيادتها الا نهارا ، فتستطيع مارى أن تعمل فى سلام
وفى هذا المسكن المظلم ، الكئيب نوعا ما ، استأنف
بير مرافقته العاطفية الحنون . . وهو على طريقته هذه
عنيد مثلها . يحمل فى ذاته نفس الايمان الذى تحمله
زوجته المستقبلية : ايمان كامل ، تقى ، خالص من كل
شائبة . وكان العلم عنده هو الهدف الوحيد . لذلك
كانت مفامرته شيئا غريبا ، لا يكاد يصدق ، لأن فيها
مشاعر تمس شفاف قلبه ، مع التنفس والطموح
اللازمين لعقله . فهذا العالم كان مندفعاً نحو مارى بقوة
العاطفة ، وفى الوقت نفسه بأشد الحاجة الذهنية .
بل انه سيكون مستعداً لتضحية ما يسميه الناس

الهناء ، في سبيل هناء يعرفه هو وحدد . فعرض على ماري اقتراحا يبدو اول وهلة غريبا ، ويمكن أن يعلل بأنه خدعة أو زلفى ، غير أنه يتفق تماما مع طبيعته . فإذا كانت ماري لا تشعر نحوه بحب ، فهل ترضى بترتيب من وحي الصداقة الخالصة ، وهو أن تعمل معه في شقة بشارع موفتار Mouffetard لها نوافذ مطلة على حدائق ، وهي شقة يمكن أن تقسم الى قسمين مستقلين ؟!

أو - ولا بد مما ليس منه بد - اذا ذهب بيير كوزي للعيش في بولونيا ، أفلا تتزوجه عندئذ ؟ . . وسيبدأ باعطاء دروس فرنسية ، ثم يعكف معها قدر الطاقة على البحث العلمى . . .

ان هذا الرجل الفذ ، «أمام » مربية الاولاد « السابقة ، تلك التى احتقرتها عائلة قروية بولونية ، يتوسل ويتذلل . . .

فأسرت ماري لأختها برونيا بترددتها ، وحدثتها عما عرضه بيير من التفرب عن بلاده . . . وهى تحس أن ليس من حقها قبول مثل هذه التضحية ، بيد أنها اضطربت تأثرا من مرور هذا الخاطر على باله .

ولما عرف أن الفتاة حدثت أختها وزوجها عنه ، حاول هجوما جديدا من هذه الناحية ، فذهب للقاء برونيا التى سبق له أن رآها مرارا ، وكسبها بكليتها لصفه ، ودعاها مع ماري عند أهله فى « صو » . وأخذت أمه برونيا ، وانتحت بها جانبا ، وسألتها بصوت رقيق مؤثر أن تتدخل لدى أختها الصفرى ، وأكدت لها :

- ليس فى الدنيا مخلوق يساوى ولدى بيير . . فلا تدعى أختك تتردد . . انها ستكون معه أسعد منها مع أى انسان آخر !

ولابد من مرور عشرة أشهر أخرى قبل أن تقبل البولونية العنيدة فكرة الزواج .. فطاب نفسا وقر عينا .. فان ما كان يربطه بها ، ويبهره فيها ، هو تفانيها المطلق في العمل ، وما يتوسمه فيها من عبثية ، وكذلك شجاعتها ونبالتها . فان لهذه الفتاة الرشيقة اخلاق الرجل العظيم ومواهبه ..

أما المبادئ ، فهو أيضا قد عاش بها دهرًا ، ثم دلتها الحياة على سخافتها .. أو لم يكن من مبدئه ألا يتزوج ؟ وقد عاهد النفس على ذلك ؟ لم يكن وراءه بولونيا المضطهدة يدافع عنها ، ولكنه كان يزعم دائما أن الزواج يتعارض مع وقف النفس على العلم .. والخاتمة الفاجعة لغرام شقى فى شبابه ، قد جعلته ينطوى على ذات نفسه ، وحولته عن النساء .. فلم يعد يريد حبا ، وهو مبدأ خير حفظه من زواج تافه ، وجعله ينتظر لقاء المرأة الموعودة ، ذات الصفات النادرة ، « المرأة التى خلقت له » .. وكانت تدعى : مارى ! .. فلن يكون الآن من الفباء بحيث يترك ، باسم المبدأ ، فرصة هذا الهناء العظيم تفوته ، وفرصة هذا التعاون الرائع تفلت منه .. انه أراد أن يتخذ من الفتاة ، ومن البولونية ، ومن العاملة بالطبيعيات : زوجا له . هؤلاء الأشخاص الثلاثة ، شخص واحد ، صاروا الزم ما يكون له .

وهذا ما أظهر عليه ، فى لطف ورقة ، الأنسة سكلودوفسكى ، بالأقوال ، وبما هو أحن وأحلى : بما بسطه عليها من رعاية ، وبالظرف الاصيل الذى لا يقاوم ، وبوجوده كل يوم الى جانبها .. استطاع بير كورى ان يجعل ، شيئا فشيئا ، انسانية ، من تلك الشابة المستوحشة الناسكة ، المتبتلة ! ..

وفى ١٤ يولية ١٨٩٥ ، أرسل جوزيف ، اخو ماريا ،

رسالة اليهـا من فارسوفيا تحمل تحليل أسرة
سكلودوفسكى لزواجها ، وتسوع تصرفها وتباركها :
أما وأنت الآن خطيبة المسيو كورى ، فانى أبدأ فواجه
اليك أصدق تمنياتى بأن تجدى الى جانبه من السعادة
والفرح ما تستحقين فى عينى ، وفى عيون كل الذين
عرفوا قلبك الكريم وخلقك ..

... وأعتقد أنك على حق فى اتباع قلبك . وما من
شخص عادل يستطيع أن يلومك فى هذا . أما وأنا أعرفك
فانى مقتنع بأنك ستظلين دائما بولونية بكل روحك ،
وأنك لن تكفى أبدا فى قلبك عن أن تكونى عضوا فى أسرتنا .
وكذلك نحن لن نكف عن حبك ..

وانى لأوثر مائة مرة أن أراك فى باريس سعيدة هائلة
على أن أراك تعودين الى بلادك محطمة بتضحية حياة
كاملة ، وشهيدة المبالغة فى واجبك .
وعلىنا الآن ألا نحرم من رؤية بعضنا ، مهما كانت
الظروف ..

أقبلك مائة قبلة ياعزيزتى مانيا ، وأكرر لك تمنياتى
بالسعادة والفرح والفلاح . وبلغى خطيبك أرق تهانى .
وقولى له : انى أرحب به عضوا جديدا فى أسرتنا ، وانى
أقدم اليه صداقتى ومحبتى المطلقة . ولعله يمنحنى
كذلك صداقته ..

أخوك الذى يحبك : « جوزيف »

وبعد أيام ، كتبت مارى الى صديقتها كازيا ، رفيقة
المدرسة ، تعلن اليها قرارها الحاسم :
عندما تصلك هذه الرسالة ، تكون صديقتك مانيا قد
غيرت اسمها . فسأقترن بالرجل الذى حدثتك عنه العام
الماضى فى فارسوفيا . وانى ليحزننى أن أبقى دائما فى
باريس .. ولكن ما العمل ؟ ان القدر جعل كلا منا يتعلق

بالآخر أشد التعلق ، فلا نحتمل فكرة الفراق .
ولم اكتب اليك عن هذا كله ، لأن هذا كله قد تقرر
من وقت قريب ، وتقرر بفتة ، ولقد ظللت عاما كاملا
مترددة لا يقر لي قرار . وأخيرا تغلبت فكرة البقاء هنا .
فعندما تتسلمين هذه الرسالة ، اكتبى الى : « مدام
كورى ، مدرسة الطبيعة والكيمياء ، ٤٢ شارع لومون » .
فهكذا سأدعى من الآن فصاعداً . وزوجى استاذ فى هذه
المدرسة . وفى السنة القادمة سأجىء به الى بولونيا حتى
يعرف بلادى ، ولن أغفل عندئذ عن أن أقدمه الى الأخت
الحبيبة الصغيرة كازيا ، وأن أسألها أن تحبه ...
وأخيرا ، فى ٢٦ يولييه ، استيقظت ماريا ، لآخر مرة
فى مسكن شارع شاتودان . وكان يوما صحوا جميلا .
وكان وجه الفتاة رائع الحسن . وقد توضع فيه وازدهر
شئ لا عهد به لدى رفيقاتها فى الدرس . اليوم تصبح
مدموازيل سكلودوفسكى : مدام بير كورى .

زينت شعرها البديع ، ووضعت ثوب العرس ، وكان
هدية من والدته كازيميردلووسكى ، التى تسكن الآن شارع
المانيا بحى المذبح ! . . وكانت مارى قد قالت لها : « اننى
لا أملك ثوبا آخر غير الذى ألبسه كل يوم . . فاذا
تعطفت باعطائى ثوبا ، فانى أريده قائم اللون ، نافعا ،
بحيث أستطيع بعد ذلك أن ارتديه وأذهب به الى
المعمل » !!! ففصلت لها خياطة فقيرة ثوبا من الصوف
الأزرق القاتم ، مع بلوز أزرق فاتح ، بدت فيه مارى
فتاة ناضرة فتية ..

وكانت مارى راضية عن فكرة هذا الزواج الذى
يختلف فى تفاصيله عن كل زواج . فلا ثوب أبيض ، ولا
خاتم من ذهب ، ولا مأدبة عرس ، ولا حفلة كنيسة . .
لا شئ الا التسجيل المدنى ، ثم ركوب دراجتين لامعتين ،

اشترياهما بالأمس من هدية نقدية أرسلها أحد أبناء العم ،
وستكون مطيتهما خلال الصيف في الريف ..
أجل . سيكون زواجا جميلا ذاك الذي لا يحضره عدم
الاكتراث ، ولا التطفل ، ولا الحسد .. ففي دار عمدية
« صو » ، وفي حديقته شارع سابلون ، عند والدي بير ،
ستجتمع برونيا وكازيمير ، وبعض الأصدقاء المقربين جدا
من الجامعيين . ثم من فارسوفيا قد جاءت هيللا ،
والبروفسور سكلودوفسكى الذى ادهش الدكتور كورى
العزیز والد بير بلسانه الفرنسى السليم العريق ..
ولكنه قال له أولا ، بصوت منخفض ، متهدج ، شديد
التأثر ، هذه الكلمات النابعة من قلبه الكريم :
- سيكون لك فى مارى بنت جديرة بالمحبة . فهى منذ
مولدها ، لم تسبب لى قط ألما .
وجاء بير فأخذ مارى الى القطار الذى يقوم من محطة
لكسمبرج ، فى صميم الحى اللاتينى ، الى ضاحية
« صو » حيث كانت الأسرتان فى انتظارهما ..
وفى عربة الأمنيبوس ، فى الدور الأعلى المكشوف
« الأمبريال » .. فى الشمس الضاحية البهيجة ، صعدا
بولفار سان ميشل ، ومن قمة عربتهما الظافرة ، نظرا
الى المشاهد المألوفة عندهما ..
ولما مرا أمام السوربون ، عند مدخل كلية العلوم ،
ضفطت مارى على ذراع رفيقها ، وتلمست نظرتة المشرقة
المطمئنة ...

زوجهان سابات

أمضيا شهر العسل ، فى الريف ، بين الحقول
والغابات ، على الدراجتين المشهورتين ! .. يتفديان على
العشب ، بقليل من الخبز والجبن والخوج والكرز . وفى
كل ليلة ، يقفان كيفما اتفق ، عند خان Auberge
صغير مجهول .. حيث يجدان حساء غليظا ساخنا ،
وغرفة ذات جدران بالية الورق الملون .. ترقص الظلال
على ضوء شمعها .. فيقضيان الليل فى سكون الحقول
الذى لا يقطعه الا نباح بعيد ، والا هدير العصافير ،
ومواء القطط الشاكية ، وقرقعة خشب الأرضية
المروع ! ..

وكان بير يحب الريف بقوة . ولعل المثنى الطويل
الصامت كان لازما لعبقريته ، فيساعد بوقع خطاه المنتظم
المنسجم تأملاته فى العالم . وكان لا يستطيع البقاء ، فى
حديقة بغير حركة . كان لا يعرف كيف يرتاح . وكذلك
كان لا يحب الزهات الخلوية المرسومة مقدما .. فلماذا
يسير نهارا بدلا من أن يسرى ليلا ؟ .. ولماذا تحدد
ساعات الفداء ؟ .. انه منذ مولده قد تعود الرحيل
فجأة : تارة فى الفجر ، وتارة فى الشفق ، دون أن يعرف ،
أيعود بعد ثلاثة أيام ، أو بعد ساعة واحدة ! .. وكان
يهجر باريس فى صباه ، وينطلق الى واد ذى زرع ، فى

المساء ، يتنزه ما طاب له ، ويعود وفي رأسه عشرون فكرة ! .

وهذا التشرّد في صيف ١٨٩٥ : « تشرّد العرس » ، كان ألد وأحلى .. فالحب يجمّله ويشّره . فبضعة فرنكات أجر الغرفة الريفية ، وضربات على « بدال » الدراجتين .. وإذا بالزوجين الشابين يستمتعان خلال الليل والنهار السحريين ، بترف عيشهما معا ، جنباً الى جنب ، وحيدين .. وكانا اذا سارا بين الحقول ، يتبع ببير بصوت مرتفع تأملاته الداخلية ، ويتحدث في بحث من بحوثه العلمية ، وهو واثق ، دون أن يلتفت الى ماري ، أنها تسمعه ، وأنها سوف ترد عليه رداً ذكياً ، نافعا ، أصيلاً مطبوعاً بطابعها . وهى أيضاً لها مشروعاتها : تريد أن تحضر لمسابقة « الاجريجاسيون » ، وهو لا يشك في أن مدير مدرسة الطبيعة والكيمياء سيسمح لها بعمل تجاربها في المعمل مع ببير .. فيعيشان معا عيشاً متصلاً لا يترك أحدهما فيه الآخر اطلاقاً ! .. ووقفت ماري ، تكاد لا تتحرك ، كأنها ناعسة ، تنظر الى السماء تمر فيها سحب ضعيفة ، ثم لم تلبث أن صرخت ، اذ أحست على راحتها شيئاً بارداً رطباً : ضفدعة خضراء تنتفض ، وضعها ببير بلطف في يدها .. ولم يكن ذلك منه دعاية ، فان صداقة الضفادع عنده شيء طبيعي للغاية ! .. فاحتجت ، مذعورة :

— ببير .. سبحان الله في طبعك ! ..

فتضايق العالم ، وسألها :

— أفلا تحبين الضفادع ؟

— بلى ، ولكن لا أحبها في يدي !

— أنت مخطئة .. ان ملاحظة الضفدع من اعظم

المسليات . افتحى يدك بلطف .. وانظري ، كم هي
ظريفة ! ..

ثم استرد ضفدعته ، فتبسّمت ماري وتنفست
الصعداء . فوضع الضفدعة على حافة البركة ، وأطلق
لها حريتها ، وسار تتبعه زوجته ، مزدانة بحليها
الساذجة من زهر السوسن والنيلوفر .

في أيام السعادة هذه ، توثقت أجمل الروابط التي
يمكن أن تربط دائما رجلا بامرأة . قلبان يخفقان معا ،
جسمان متحدان ، عقلان عبقريان تعودا التفكير معا ..
وما كانت ماري لتستطيع الزواج من رجل آخر غير هذا
العالم الكبير ، هذا الرجل الحكيم النبيل . وما كان
بيير ليستطيع الزواج من امرأة أخرى غير هذه البولونية
الشقراء الحنون الفياضة بالحياة ، التي في وسعها أن
تكون في لحظات معدودة ، صبية بسيطة ، أو سيدة
سامية ، لأنها كانت صديقة وكانت خلية .. كانت عاشقة
وكانت عالمة ! ..

وتآلفت الاسرتان الفرنسية والبولونية ، تآلفا
مشهودا ، يرجع الى اتحاد الثقافة ، ولون التفكير ،
وعطف القلوب .. وليس في بيير غريزة الحذر من
الاجانب ، الغالبة على مواطنيه ، فهو يحب أهلها كأهله
.. ولكي يقدم الى زوجه برهانا جديدا على الحب ،
أرغم نفسه ، مع احتجاجها الرقيق ، على مجهود مؤثر :
هو تعلم اللغة البولونية أصعب لغات أوروبا ، لغة أمة
مضطهدة لا كيان لها ، فهي اذن عديمة الجدوى .

وكذلك اتخذت ماري بدورها القباء الفرنسي .. فقد
أحبت أهل زوجها ، وبادلتهم حبا بحب خفف عنها
منفاها ، عندما رحل عنها أبوها واختها هिला عائدين الى
فارسوفيا ..

ولم يحدث زواج بير بفتاة أجنبية فقيرة ، وجدها في غرفة سطح بالحي اللاتيني ، أى صدمة أو دهشة لهذين الشيخين الممتازين ، فقد أعجبا بمارى من أول وهلة .. وليس ذلك أثر السحر السلافى وحده ، بل فتنا أيضا بذكائها الرجالى ، وبخلقها وشخصيتها .

وكان من الأشياء القليلة التى أدهشت مارى فى وسط « صو » أن تكتشف شقف حميها وأصحابه بالسياسة . فالدكتور كورى (الاب) كان من أنصار افكار ١٨٤٨ ، وعلى عهد الود الوثيق مع الراديكالى هنرى بريسون . وكان رجل كفاح . فنرى مارى التى نشأت فى جو نضال ضد المفتصبين الاجانب ، والتفانى السلمى فى مثل اجتماعى أعلى ، تبدأ تعرف المنازعات الحزبية ، العزيزة على قلوب الفرنسيين . فتصفى الى النقاش الطويل ، والى تفسير النظريات الحامية ، والى عرض الآراء العنيفة الكريمة فى وقت معا ، فى حين يظل زوجها صامتا ، حالما . واذا حاول ضيوف يوم الاحد ، فى حديقة منزل « صو » الصغيرة ، أن يحملوا بير على التدخل فى المجادلات الخاصة بالحوادث الجارية ، يجيب العالم الطبيعى بلطف ، كأنه يعتذر .. انه ليس من القوة بحيث يستفزه الغضب ! ..

وكتبت مارى :

« كان بير كورى قليل الميل الى القيام بدور مهم فى السياسة . وكان بتربيته وعاطفته متعلقا بالافكار الديمقراطية والاشتراكية ، ولكنه لم يكن خاضعا لآى نزعة حزبية . وكان فى الحياة العامة ، مثله فى الحياة الخاصة ، لا يؤمن باستخدام العنف »

وكانت قضية دريفوس من الظروف النادرة التى خرج فيها بير كورى عن تحفظه ، واندفع فى النضال السياسى .

ولكنه كان فى ذلك أيضا مسيرا باتخاذها جانب رجل برىء مضطهد ، وكان ينافح ضد الظلم الذى يربعه ، لانه كان رجلا عدلا .

استقر الزوجان الشابان فى شقة صغيرة ، بالمنزل رقم ٢٤ بشارع لاجلاسير La Glacière ، تطل نوافذها على حديقة كبيرة . وكان هذا كل جمان ذلك المسكن المجرد من كل أسباب الراحة .

ولم تعمل مارى وبير شيئا لزخرفة هذه الفرف الثلاث الضيقة . بل انهما رفضا الاثاث الذى قدمه الدكتور كورى الوالد . فكل كنبه ، أو كل مقعد ، يكون متاعا لابد من تنفيذه فى الصباح ، ثم تلميعه فى يوم التنظيف العام . ومارى لاتقدر : ليس لديها وقت ! ثم مانفع كنبه أو مقعد مادام الزوجان الشابان قد اتفقا على الغاء كل الاجتماعات ، وكل الزيارات ؟! فالطفلى الذى يتسلى اربعة ادوار ، ويجىء ليزعج الزوجين فى وكرهما ، لايحل أهلا ولا سهلا ، بل يصطدم ، بمجرد دخول مكتب الزوجين ، بجدرانها العارية ، وكل اثاثه مكتبة ومنضدة من خشب أبيض . وفى طرف المنضدة كرسى مارى ، وفى الطرف الآخر كرسى بير . وعلى المنضدة كتب الطبيعة ومصباح غاز ، وطاقة زهر ، لا اكثر . وأمام هذين الكرسيين ، وليس بينهما كرسى للزائر ، وازاء نظرات بير ومارى المهذبة المدهشة ، لا يسع اجرا الزوار الا أن يولى الادبار ! ..

وكان هدف بير من الحياة يرمى الى مثل واحد أعلى : هو القيام بالبحث العلمى الى جانب زوجة حبيبة تعيش مثله لأجل البحث العلمى . وكان نصيب مارى أشد مشقة وعناء ، لانه ، الى جانب كدحها ذهنى ، قد أضيفت عليها متاعب الواجبات الزوجية المرهقة .

فليست تستطيع بعد أن تهمل الحياة المادية . كما كانت تهملها ، وهى طالبة بالنوربون . وكان أول ما اشترته عند عودتها من الاجازة كراسة تسجل فيها حساباتها ، وعلى غلافها الاسود بحروف ذهبية ، كلمة كبيرة : نفقات ..

وبير كورى يكسب الآن خمسمائة فرنك فى الشهر من مدرسة الطبيعة والكيمياء . وفى انتظار حصول ماري على دبلوم الاجريجاسيون التى تمكنها من التدريس فى فرنسا ، كانت الخمسمائة فرنك هى مورد رزقهما الوحيد . وكان يمكن لبيت متواضع أن يعيش بهذا المبلغ عيشا طيبا . فتعلمت ماري الاقتصاد . وكان أصعب ما فى الامر أن تحشد اعباء يومها المنهكة فى الساعات الاربع والعشرين . وكانت تقضى أكثر وقتها فى معمل المدرسة ، والمعمل هو السعادة ! غير أن هناك أيضا فى شارع لاجلاسير سريرا يجب أن يرتب ، وأرضا يجب أن تكنس ، وملابس زوج يجب أن تنظف ، ووجبات طعام يجب أن تجهز .. كل ذلك بغير خادم ! ..

وعلى ذلك تنهض ماري مبكرة جدا فتذهب الى السوق . وفى آخر النهار ، تعود من المدرسة فى ذراع بير فتدخل معه عند البقال ، وعند اللبان . أين الزمان الذى كانت فيه مدموازيل سكلودوفسكى اللاهية تجهل العناصر اللازمة لصنع المرق ؟! أن مدام بير كورى قد رهنّت كرامتها على معرفة ذلك ! .. فما كاد يتقرر زواجها حتى ذهبت الطالبة ، فى السر ، تسأل أختها برونيا وحماة برونيا (والدة الدكتور دلوسكى) دروسا فى الطهى .. فتمرنت على تحمير الدجاجة ، وقلّى البطاطس .. وراحت تعد طعاما طيبا لزوجها الذى كان التسامح ماثلا فى رجل ، وكان من اشتغاله بعلومه بحيث لم يلحظ هذا الجهد الكبير .

ان كرامة ماري لتحفظها على اتقان الطعام .. ماذا كانت تقول حمايتها الفرنسية لو رأت عجز كنتها عن صنع العجة ؟ وما يكون حكمها على مايتعلمه بنات فارسوفيا ؟ فعكفت على درس وصفات الطبخ : تسجل وتعيد ، وتحفظ وتجرب ، وتسجل الفشل أو النجاح . وابتكرت ألوانا لاتتطلب عناية كبيرة بل تطبخ « نفسها بنفسها » حين تكون هي في المدرسة ! .. ولكن الطهى علم صعب كالكيمياء ، محوط بالاسرار مثله ! .. كيف تفعل حتى لاتلتصق المكرونة ببعضها ، وحتى لاتلتصق بالحلة ؟! ماهى المدة التى يستغرقها نضج لحم الفخذ بالفاصوليا الخضراء ؟ ووقفت ماري امام فرنها ، وقد اشتعلت وجنتاها كالنار ، وهى تتنهد من كبد حرى ! .. لقد كان الاسهل عليها يوما ما أن تتفذى بالخبز المدهون بالزبد والشاى والكرز والفجل ! ..

وظلت شيئا فشيئا تفزو مناطق الفذاء . وأصبح الفرن ، الذى كثيرا ما أحرق اللحم ، يخضع لها ويطيع عارفا بالواجب ! .. فقبلما تخرج ، تنظم العالة بالطبيعة مشعلا بدقة ، ثم تلقى نظرة قلق أخيرة على الحلل التى عهدت بها الى النار ، ثم تقفل باب السلم ، وتسرع لتدرك زوجها فتقطع معه الطريق الى المدرسة .

وبعد ربع ساعة ، تكون قد انحنت على أفران أخرى ، وبنفس العناية والدقة ، تنظم مشعل النار فى معمل الكيمياء لتحليل المعادن واستخراج الاسرار ! ..

من ماري الى جوزيف وزوجته فى ١٧ يولية ١٨٩٦

(يا اعزائى ! لشد ماكنت أريد السفر الى البلاد هذه السنة ، لأخذكم بين ذراعى ! .. ولكنى لا أستطيع ، وا أسفاه ، لضيق ذات اليد ، وضيق الوقت ..

وامتحانات الاجريجاسيون ، التى اجتازها فى هذه الآونة ، قد تمتد الى منتصف أغسطس ..)

ثمانى ساعات دراسة علمية ، وساعتان او ثلاث ساعات تدبير منزل ! .. وهاهى ذى مارى كورى فى مسابقة الاجريجاسيون للتعليم الثانوى ، تنجح وتكون الاولى .. فيلقى بير ذراعه حول عنق البولونية فخورا بها ، ويخفان مسرعين الى شارع لاجلاسير .. فينفخان من فورهما عجل الدراجتين ، ويملآن جعبتهما طعاما ، ويسيران فى طريق الاوفرن L'auvergne فى سياحة استكشافية ! .. فما أشد اعتداد هذين الزوجين بقواهما الذهنية والبدنية ! .. حتى اجازتهما مرح ولهو ... وتدريب للارادة والعزم ! ..

ونحن فى سنة الزواج الثانية . لانجدها تختلف عن الاولى الا فى حالة مارى الصحية ، التى يزعرعها الحمل ، وهى قد أرادت هذا الولد ، ولكنها مفيضة من شعورها بالآلم الشديد ، محنقة من عجزها فى تعبها عن دراسة مفنطة الصلب .. وهى تشكو :

من مارى الى كازيا ، فى ٢ مارس ١٨٩٧

(ياعزيزتى كازيا ! عفوا لتأخرى فى تهنئتك بعيد ميلادك ، فقد كنت فى هذه الاوقات الاخيرة مريضة جدا ، وحرمنى مرضى من الارادة والصفاء اللازمين للكتابة . وانى لا البث أن اضع ولدا ، وهذا الرجاء يسبب لى أشد العناء . فمنذ أكثر من شهرين وأنا أصاب بدوار مستمر ، من الصبح حتى المساء . فتعبت وضعفت ، وعجزت عن العمل ، وساءت حالتى المعنوية .. وبقدر ماتضايقنى حالتى ، تسوءنى حالة حماتى الصحية التى هى فى أشد الخطر ...)

من ماري الى جوزيف سكلودوفسكى، ٣١ مارس ١٨٩٧

(لا شيء جديد ... فمازلت طوال الوقت مريضة ،
وان كنت مع ذلك لم أذبل ، بل راق محياى ! .. ان
حالة حماتى على ماهى عليه ، ولانها مريضة بداء لا دواء
له (سرطان فى الثدي) (١) تجدنا فى شدة الهم . وان
اقسى ما اخافه ان يبلغ الداء الويل درجته القصوى فى
الوقت الذى اضع فيه .. فتصورى اذن ما يصيب
زوجى المسكين عندئذ فى تلك الاسابيع المروعة ! ..)
وعادت ماري من اجازتها الى باريس ، حيث وضعت

فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٧ طفلة جميلة ، « ايرين » Irene
.. ستنال مثل ابويها ، ومثل امها يوما ما ، جائزة
نوبل ! .. وكان الدكتور كورى الوالد مشرفا على
الوضع ، الذى تحملته مدام كورى وهى تعض على
اسنانها دون أن تصرخ صرخة واحدة ! ..
من ماري الى أبيها فى ١٠ نوفمبر ١٨٩٧ :

(انى مازلت ارضع ملكتى الصغيرة .. ولكنى أخشى
أن أعجز عن ذلك مستقبلا . فقد نقص وزن الطفلة كثيرا
خلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة . ولكنها احسن منذ
ايام ، فاذا استمر التحسن مضيت فى ارضاعها ، والا
اضطرت الى مرضع رغم الحزن الذى يسببه لى ذلك ،
ورغم النفقات .. الجو صحو جميل ، والشمس ساطعة

(١) هو الداء الذى توفيت به والدة ناقل هذا الكتاب ، وقد
نفعت فيه العملية الجراحية ، التى أجراها الاستاذ الدكتور
عبد الوهاب مورو . وأفاد استخدام « انرايوم » الذى اكتشفته
« التلميذة الخالدة » فائدة كبرى ، على يد الاستاذين الفاضلين
الدكتور عبد الله على والدكتور الصدر ، وهو العلاج الذى يرجو
فطاحل العلماء أن يتمموا به الانتصار على هذا الداء العمياء ، كفى
الله احبابنا واعدائنا والناس جميعا شره .. فهو اشد مابلية به
الانسانية .

٠٠ وايرين تذهب كل يوم للتنزه معى أو مع الخادمة فى حديقة مونسورى ٠ وانى أحميها فى طست الغسيل الصغير

ولم تلبث مارى أن اضطرت الى التخلي عن ارضاع طفلتها ، بناء على أمر الطبيب الذى خشى على مارى أن يصابها ما أصاب أمها من دار الصدر .. وان ظلت ساهرة على العناية بملبسها ونزهتها .. ووجدت فى حميها عونا ثمينا .. فان الدكتور كورى الوالد ، الذى ماتت زوجته بعد أيام من مولد ايرين ، قد تعلق بالطفلة ، وسهر على خطواتها الاولى فى حديقة بيته بضاحية « صو » ٠ ثم لما انتقل بيير ومارى الى فيلا متواضعة ببولفار كلرمان جاء الشيخ فسكن معهما ، وصار لايرين خير مرب ، وأعز صديق ..

يا للطريق الطويل الذى قطعه تلك الفتاة البولونية ، منذ وصولها صباح يوم من أيام نوفمبر ١٨٩١ ، الى محطة الشمال ، محملة بالصرر والطرود ، فى عربة الدرجة الثالثة ! .. ان مانيا سكلودوفسكى قد اكتشفت الطبيعيات ، والكيمياء ، واكتشفت كل حياة المرأة ! .. وقد ذلت عقبات بسيطة وعقبات هائلة ، دون أن تتبين لحظة من زمنها أن ما فعلته انما فعلته لما أوتيت من عناد لا نظير له ، ومن شجاعة خارقة للعادة .

هذا الكفاح والنضال ، وهذه الانتصارات ، قد غيرتها جثمانيا ، وكونت لها وجها جديدا . ويستحيل على المرء أن ينظر ، بلا تأثر ، الى صورة فوتوغرافية لمارى كورى بعد سن الثلاثين بقليل .. فان الفتاة القوية العيلة قد تحولت الى خيال مخلوقة روحية ، فيكاد يهيم بأن يقول : يالها من امرأة جذابة ، ولكن لايجرؤ على هذا القول نظرا لجبينها السامى العريض، ونظرتها السارحة فى عالم آخر ان مدام كورى قد ضربت للمجد موعدا فتجملت له

اكتشاف الراديوم

زوجة شابة تدبر بيتها ، وتحمل بنتها ، وتضع على النار حللها ... وامرأة عالة ، في ذلك المعمل المتواضع بمدرسة الطبيعة والكيمياء ، تقوم بأعظم اكتشاف في العلم الحديث .

اجازتا ليسانس ، ومسابقة الاجريجاسيون ، ومبحث في مغنطة الفولاذ المسقى : تلك هي ، في آخر ١٨٩٧ ، ميزانية نشاط ماري ودأبها ، ماري التي ماكادت تنهض من نفاسها حتى عادت الى عملها !

والمرحلة التالية التي تتمشى مع التطور المنطقي لمهنتها ، هي الحصول على الدكتوراه . فمرت أسابيع لا يستقر لها فيها رأى ، اذ لابد من اختيار موضوع بحث طريف خصب يضاف الى تراث المعرفة . وكان رأى بير في هذا يعتد به ، فهو : رئيس معمل ماري ، وهو « مديرها » ، وهو اكبر منها سنا وأوفر تجربة ، وهي الى جنب زوجها ترى نفسها شبه مبتدئة .

بيد أن خلق البولونية وطبيعتها ، لهما اثرهما البعيد في تحديد اختيار الموضوع ، فهي تحمل في ذاتها ، منذ صباها ، تطلع المستكشفين وجراتهم . وهذه هي الفريزة التي دفعتها من قبل الى مغادرة فارسوفيا لاستكشاف باريس والسوربون ، وهي التي جعلتها تؤثر غرفة منفردة

فى الحى اللاتينى على شقة اختها الطيبة المقام . بل كانت ، فى أشواطها خلال القاب ، تختار دائما الطريق غير المهد فى الارض البكر التى لم تطأها الاقدام .

فبعد اكتشاف رونتجن Rontgen أشعة x ، خطر لهنرى بوانكاريه ان يعود فيبحث فى ضروب الاشعة المشابهة لاشعة x ، وهل هى مرسله من اجسام ذوات خواص تحول الضوء الذى تتلقاه الى اشعاعات مضيئة ذوات موجات اطول ؟ . وهى نظرية لفتت هنرى بكرل Becquerel ، فبحث فى املاح « معدن نادر » هو « الاورانيوم » .. ولكنه ، بدلا من أن يجد الظاهرة المتوقعة ، لاحظ ظاهرة أخرى مختلفة تماما ، وغير مفهومة : فان املاح الاورانيوم ترسل (من تلقاء نفسها) - دون عمل سابق للضوء - اشعاعات ذوات طبيعة مجهولة . فاذا وضع مزيج من الاورانيوم على لوح زجاج فوتوغرافى ، محوط بالورق الاسود ، فانه يؤثر فيه من خلال الورق ، ويحدث تفاعلات . وهذه الاشعاعات والتفاعلات « الاورانيومية » المدهشة ، تكهرب مايحيط بها من الهواء بحيث يصبح موصلا جيدا للكهربائية ! ..

فهنرى بكرل قد اكتشف الظاهرة التى ستطلق عليها مارى كورى فيما بعد اسم : « النشاط الاشعاعى Radioactivité » ، ولكن أصل هذا الاشعاع وطبيعته قد ظلا لغزا من الالغاز .

وقد جذب اكتشاف « بكرل » كورى وزوجته الى اقصى حد . فمن أين تصدر تلك القوة ، كائنا ما كان ضعفها ، التى تنفصل عنها باستمرار تفاعلات الاورانيوم فى شكل اشعاعات ؟ وهذه الاشعاعات ، ماهى اذن طبيعتها ؟ .. هذا هو البحث العظيم الذى يصلح موضوع رسالة للدكتوراه ! .. وقد شاق الموضوع مارى ، لانه

كان ساحة للاستكشاف مازالت بكرا . فان تجاربه
بكرل حديثة ، وفي معامل أوربا ، لم يحاول أحد بعد
- فيما تعرف - التعمق في دراسة الاشعاعات
الاورانيومية . فهاهى ستبدا بحثها ، وليس تحت يدها
من المواد اللازمة له الا الموضوعات التى قدمها هنرى
بكرل الى أكاديمية العلوم خلال عام ١٨٩٦ .
ما ألد هذه المغامرة ! وما ألد الاندفاع فى ساحة المجهول

لم يبق الا أن تجد مارى المكان اللازم للقيام بتجاربه .
ومن هنا تبدأ الصعوبات . ان مساعى بير المتكررة ،
عند مدير مدرسة الطبيعة والكيمياء ، لم تؤد الا الى
نتيجة ضئيلة : هى السماح لمارى بالعمل فى غرفة
تستخدم فى المدرسة مخزنا وقاعة للماكنات ، فلا
استعداد فيها ولا راحة . لكن الشابة الباسلة لم تيأس .
فبالرغم من حرمانها من تركيب الاجهزة الكهربائية ، التى
لابد منها فى كل البحوث العلمية ، وجدت السبيل
لتسيير آلاتها ، ولم يكن ذلك أمرا هينا . فان الاجهزة
الدقيقة لها عدو لدود ، هو الرطوبة وتغيرات الجو .
وهكذا كان جو هذا المعمل الصغير . فكما كان ضارا
بالآلات الكهربائية الدقيقة الحساسة ، كان كذلك ضارا
بصحة مارى . . ولكن صحتها لم تكن عندها يوما ما فى
المحل الاول !

وأمعنت مارى فى درسها وبحثها واستقرائها وتجاربه .
فأدركت أن اشعاعات الاورانيوم ، رغم ضعفها الشديد ،
ليست وليدة شئ ، ولا شبيهة شئ ، بل هى اشعاعات
ذوات « شخصية » قائمة بنفسها .

ولكن هل الاورانيوم وحده هو مصدر هذه الاشعاعات
التى انفرد بها ؟ . . لماذا لا تكون هناك عناصر أخرى لها
نفس الخاصية الاشعاعية ، وفى وسعها توليدها ؟ . .

فربما كان اكتشاف هذه الاشعاعات في الاورانيوم اولاً بطريق المصادفة ، هو الذى جعلها مرتبطة به فى عقول الطبيعيين . فالآن يجب أن نبحث عنها فى شىء آخر .

وماكاد يخطر ذلك لمارى حتى راحت تعمل . ونبذت دراسة الاورانيوم لتتولى تجربة « كل العناصر الكيميائية المعروفة » ! .. ولم تبطئ عليها النتيجة . فقد وجدت فى اجسام معدن التورיום Thorium اشعاعات أخرى مندفعة من نفسها ، تشبه ما فى الاورانيوم ، وبنسبة مماثلة . ورات العالمة الشابة بجلاء : أن هذه الظاهرة ليست من خواص الاورانيوم وحده .. فأطلقت عليها

اسم : « النشاط الاشعاعى » Radioactivité وكان « النشاط الاشعاعى » هذا يفتن مدام كورى ، حتى انها لم تمل دراسة أشد المواد تنوعاً ، بنفس طريقتها الاولى . وان هذا الفضول النسوى العجيب هو من أول فضائلها ، ومن صفات العلماء ، وهو غريزى فيها الى أقصى الحدود ! .. فبدلاً من أن تقف ملاحظاتها عند حد الاملاح والاحماض ، اندفعت فجأة نحو مجموعة معادن مدرسة الطبيعة والكيمياء تحولها الى « عينات » ، كيفما اتفق ، تجرى عليها تجاربها ، وتسجل نتائج امتحاناتها العملية .

وفكرة مارى بسيطة ، بسيطة مثل كل ماتكشف عنه العبقریات . فان مئات العلماء والباحثين كانوا اذا عرض لهم مثل ماعرض لمدام كورى ، قضوا الشهور بل السنين واقفين حائرين مترددين . أما مارى فقد ساءلت نفسها عن هذا التفاعل الاشعاعى النشاط الخفى ، ودهشت له ، بيد أنها حولت دهشتها الى عمل مثمر . وكانت كل تجربة لها ، خطوة تخطوها نحو ذلك السر المجهول . واذا بها امام مفاجأة مسرحية : لقد اتضح لها أن هذا

النشاط الاشعاعى قد بدا « اقوى بكثير جدا » مما كان يتوقع ، من كل مابدا فى كميات الاورانيوم أو التوريوم التى امتحنتها ... فهل تكون غلطة فى التجربة ؟ .. لقد أعادت مقاييسها وموازينها ، بدقة ، وثبات ، على نفس المواد ، وأعادتها عشر مرات ، وعشرين مرة ... فتيقنت ، بداهة ، أن كميات الاورانيوم والتوريوم التى فى المعادن الممتحة ، لاتكفى البتة لتحقيق وجود هذه القوة الخارقة فى الاشعاعات التى تشاهدها .

فمن أين تجيء هذه الاشعاعات الفائقة الخارقة اذن ؟! لابد ان تفرض مارى فرضا جريئا جديرا بها ، وهو : ان هذه المعادن ، التى ترسل تلك الاشعاعات كلها ، لابد ان تحوى عنصرا كيميائيا مجهولا حتى يومنا هذا: عنصرا جديدا

مادة جديدة ! .. فرض فائن مفر .. ولكنه فرض . فالى الآن لا وجود لهذه المادة ذات الاشعاع الدائب الهائل الا فى مخيلة مارى ومخيلة بير كورى . ولكنها موجودة فعلا ، ولها عندهما مكانها ! .. وقالت مارى لاختها برونيا ذات يوم بصوت حار متمالك :

— اتعلمين يا برونيا أن الاشعاع الذى لا استطيع تفسيره آت من عنصر كيميائى مجهول ؟ .. فالعنصر موجود ، ولم يبق الا أن نجده ! .. ونحن على ثقة من وجوده ! .. اما العلماء الطبيعيون الذين حدثناهم فى شأنه ، فقد زعموا أنها غلطة فى التجارب ، وأشاروا علينا بالحذر ... ولكنى مقتنعة ، ولست مخطئة ! ..

يالها من دقائق فذة فى هذه الحياة الفذة ! .. ان السطحيين من الناس ، يرسمون فكرة خيالية لا أساس لها عن المكتشف واكتشافه . فان « لحظة الاكتشاف » لا وجود لها على الدوام فى كل الاحوال . فان يحوث العالم متصلة اتصالا متتابعاً يجعل من العسير عليه أن يحكم

على لحظة النجاح واليقين التي تجيء فجأة ، خطفا ، كالبرق الذي يبهز الابصار .. وها هي ذى ماري ، واقفة امام آلاتها واجهزتها المنة العويصة ، لم تستطع ان تذوق نشوة الفوز المباشرة .. لأن النشوة ظلت تسرى فيها على مدى أيام من الجهد المضنى ، المشتعل بحمى الرجاء الرائع .. غير أن اللحظة التي أدركت فيها ، وتحققت في ذهنها ، أنها قد أمسكت بطرف مادة مجهولة ، كانت لحظة مثيرة حتما .

أطلعت اختها الكبرى برونيا على سرها ، فعاشت الاختان مرة أخرى في ذكرى سنوات الهم ، والفم ، والانتظار ، والاصطبار .. والتضحية المشتركة ، وعناء حياتهما طالبتين ، حياة ملؤها الحام الجميل مع الإيمان واليقين انها منذ أربع سنوات فقط كانت قد كتبت :

« ... فالحياة فيما يلوح ليست سهلة ميسرة على أحد منا . ولكن لابد من المثابرة ، ومن الثقة بالنفس . ولابد من الاعتقاد بأن المرء منا موهوب فى شيء ، وهذا الشيء لابد من بلوغه مهما يكن الثمن ... »
وفى رسالة رفعها البروفسور ليبمان الى اكاديمية العلوم فى جلسة ١٢ أبريل ١٨٩٨ ، تعلن « ماري سكلودوفسكى كورى » :

احتمال وجود عنصر جديد فى معادن البتشيبلند Pechblende متميز بنشاط اشعاعى قوى ، أقوى بكثير مما يوجد فعلا فى معدن الاورانيوم ...

وكانت هذه اول مرحلة فى اكتشاف الراديوم .
ان قوة وجدانها قد أظهرتها على أن تلك المادة المجهولة لابد من أن تكون موجودة ، فقررت وجودها .. ولكن بقى عليها أن تفتح المنطقة المجهولة ، وتكشف عن تنكر هذا العنصر الخفى .. لابد اذن من تحقيق الفرض

بالتجربة ، وعزل المادة .. لابد من أن يكون في وسعها أن
تحرر وتنشر : « انها هنا ! وقد رأيتها ! »

وقد تابع بير كورى ، باهتمام وشفف ، نجاح زوجته
السريع في تجاربها . وقد ساعدها ، دون أن يتدخل
تدخلا مباشرا ، بملاحظاته ومشورته .. وأمام الأهمية
الباهرة التى تحير العقول في هذه البحوث ، قرر بير
كورى أن يدع مؤقتا دراسته فى البلور ، وأن يضم جهوده
الى جهود مارى للقبض على المادة الجديدة العجيبة .

وهكذا ، عندما قضت أهمية عمل هائل بالتعاون ،
ظهر العالم الطبيعى العظيم الى جنب العالمة - وكان هذا
هو رفيق حياتها .

ومنذ ثلاث سنوات ، جمع الحب بين هذا الرجل
وهذه المرأة النادرين . وها هو ذا الحب يلبي نداء القدر
الخفى ، ويقف بينهما ، يأخذ بيديهما ، ويحارب
بسلاحهما الذى سوف يستل للانسان علما جديدا مجيدا
من ظلمات الجهل الضنين ...

لقد تضاعفت الآن قوى النضال . ففى ذلك «الاتليه»
الرطب بشارع لومون ، عقلان وأربع أيد تبحث عن
الجسم المجهول . ومن الآن فصاعدا سيكون من المستحيل
التفرقة بين نصيب كل منهما فى هذا الجهاد .. فكل
منهما ، قبل ذلك وبعد ذلك ، قد أتى بالبراهين الدامغة
على كفايته ، وعبقريته . فلا نستطيع ، ولا يجوز لنا أن
نبحث خلال هذه الثمانى سنوات ، عما يعود الى مارى
وعما ينسب الى بير ، فهذا مالم يرده الزوجان ..
ويكفى أن تقرأ بعد ذلك رسائلهما الى الاكاديمية لتجدها
كلها موقعة منهما معا ، وفى خلالها تجد : « أن واحدا
منا رأى ، وواحدا منا أثبت ... ونحن نقترح أن تسمى
مادة كذا : « بولونيوم » ، نسبة الى مسقط رأس احدهما

ولم يتغير العيش في مسكن شارع لاجلاسير . فمارى وبير يشتغلان أكثر من العادة ، وهذا هو كل الفرق .. وعندما هبت روائح الصيف ، وجدت مارى من وقتها متسعا لتشتري من سوق الخضار Halles سلال الفاكهة ، وتصنع منها مرطبات مربي للشتاء ، طبقا للوصفة المعروفة عند أسرة كورى .. ثم أغلقت نوافذها المطلة على الأشجار المورقة ، وسجلت الدراجتين في محطة أورليان ، وفعلت ماتفعله ألوف الشابات الباريسيات : سافرت في الاجازة مع زوجها وبناتها .

غير أن حزنا يصيب مارى ، اذ اعتزمت برونيا أختها وزوجها الدكتور كازيمير دلوسكى مفادرة باريس ، والاستقرار في بولونيا ، وتأسيس مصحة للمسولين .. وكان وداع مارى وبرونيا مؤثرا جدا .. فان مارى تفقد صديقتها وشقيقتها وراعيتهما ولاول مرة تحس وطأة المنفى :

من مارى الى برونيا ، في ٢ ديسمبر ١٨٩٨ :

(ليس في امكانك أن تتصورى الفراغ الذى أحدثته في حياتى . فانى افقد بفقدكما ماكنت اتمسك به في باريس ، ما خلا زوجى وطفلى . ويخيل الى الآن أن باريس لم تعد توجد ، فيما هو خارج مسكننا والمدرسة التى نعمل فيها .

اسألى مدام دلوسكا الوالدة (حماتها) : عما اذا كان لابد من سقى النبتة الخضراء التى تركتموها ؟ وكم مرة تسقى في اليوم وهل هى بحاجة الى كثير من الحرارة والشمس ؟

اننا في صحة جيدة ، رغم رداءة الجو والمطر والوحل . ايرين تتحول بنتا كبيرة . وهى شديدة الزهد في الغذاء ، ولا تريد ، بخلاف التابوكا باللبن ، أن تأكل شيئا ما بانتظام ، حتى ولا البيض . فاكتبى الى : ما الغذاء الذى

يوافق من كان في مثل سنها ؟ ..)

ثم كتبت في ١٥ أغسطس :

« لقد ظهرت سن ايرين السابعة ، في فكها الاسفل ، الى اليسار .. وهى تفق نصف دقيقة وحدها . ومنذ ثلاثة أيام ونحن نحميها في النهر . وهى تبكى وتصيح .. ولكنها اليوم ، (في حمامها الرابع) ، قد كفت عن النحيب ، وضربت في الماء بيديها . وهى تلعب مع القط ، وتجرى من خلفه صائحة صيحات الحرب ... ولم تعد تخاف الغرباء . وهى تغنى كثيرا ، وتصعد على المنضدة ، من فوق كرسيها ... »

وبعد ثلاثة أشهر ، دونت مارى ، في ١٧ أكتوبر ، بمباهاة : « ايرين تمشى جيدا .. ولم تعد تمشى على أربع » وفي ٥ يناير ١٨٩٩ : « ايرين لها خمس عشرة سنا ! »

وبين هاتين المذكرتين ، تلك التى سجلت في ١٧ أكتوبر أن ايرين لم تعد تمشى على أربع ، وتلك التى سجلت في ٥ يناير ١٨٩٩ أن قد صار لها خمس عشر سنا ، ثم مذكرة صنع مرطبانات المربى ، اثناء ذلك ، من ثمانية أرطال فاكهة ، وسكر ، وتوفيقيها في صنعها ! .. نجد سطورا أخرى في سجلات جلسة ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ بأكاديمية العلوم ، تقول : « ان الاسباب المختلفة ، التى سبق أن عددناها ، تحملنا على الظن بأن المادة الجديدة للنشاط الاشعاعى تحوى عنصرا جديدا ، نقترح ان يسمى الراديوم »

أربع سنوات في سقيفة

لو اننا اخذنا رجلا ، كيفما اتفق ، من بين الجماهير ،
ليقرأ خبر اكتشاف الراديوم ، لما شك لحظة في وجود
الراديوم : فان الناس الذين لم ترهف الثقافة ، ولم
يشوه التخصص ، حاسة النقد فيهم : يحتفظون بمخيلة
طلقة .. وهم على استعداد لقبول حقيقة غير منظورة ،
والافتتان بها ، مهما بدت غير مألوفة ..

اما زملاء كورى وزوجته ، من الطبيعيين ، فقد--د
تلقوا النبأ على طريقهم من التحفظ .. فان خواص
البولونيوم والراديوم تقلب النظريات الأساسية التي
اعتنقها العلماء منذ أجيال .. وهم على شدة اهتمامهم
بهذا الاستكشاف العجيب ، كانوا ينتظرون النتائج
الحاسمة التي تقطع شكوكهم باليقين .

وكان الكيميائيون أشد من الطبيعيين تعنتا .
فالكيميائي هو : « ذاك الذي لا يعتقد بوجود مادة جديدة ،
الا اذا شاهد هذه المادة ولمسها ، ووزنها ، وفحصها ،
وامتحنها بالأحماض ، ووضعها في زجاجة ، وقرر ثقلها
الذرى » ! ..

هذا ، والى الآن ، ما من أحد رأى الراديوم رأى
العين ، وما من أحد عرف وزن الراديوم الذرى .. ولذلك
ظل الكيميائيون مخلصين لمبادئهم ، وجزموا بأنه :

« لا ثقل ذرى ، فلا راديوم . أرونا الراديوم ونحن نصدقكم » !

ولكى يظهر البولونيوم والراديوم للمتشككين ، ولكى يبرهننا للعالم على وجود « طفليهما » ، ولكى يتمما هما نفسيهما يقينهما ، سيضطر بير ومارى كورى الى العمل منذ الآن مدى أربع سنوات .

وكان الهدف هو الحصول على الراديوم والبولونيوم النقيين . ولعزل هذين المعدنين ، الجديدين ، الثمينين ، من الطفيليات والشوائب ، لابد من كميات هائلة من المواد الأولية . وهنا تعرض ثلاثة أسئلة مكربة :

- كيف يمكن الحصول على كمية كافية من المعادن الخام ؟

- فى أى مكان تقام التجارب ؟

- من أى نقود تدفع نفقات هذا العمل التى لابد منها ؟

وكانت صخور البتشبيلند La Pechblende المعدنية ، التى يختفى فيها عنصرا البولونيوم والراديوم ، من المعادن الثمينة التى تستخرج من مناجم سان جواكيمستال Saint-Jeachimsthal فى بوهيميا ، للحصول منها على أملاح الأورانيوم المستخدمة فى صناعة الزجاج . واطنان البتشبيلند تكلف مالا طائلا، أكثر بكثير من أن يقوم به بيت كورى ! ..

ولكن الحذق سيسد مسد المال . فقد حكم العالمان بأن آثار الراديوم لابد من أن توجد فى نفاية البتشبيلند . فإذا كان هذا المعدن الخام غاليا ، فإن فضلاته قليلة التكاليف ، وإذا عولجت بالمعرفة أدت الى النتيجة نفسها . فإذا سالا أحد زملائهما النمساويين التوصية على طلبهما عند مديري مناجم سان جواكيمستال . فقد

لا يتعذر الحصول على كمية كافية من تراب هذا المعدن الصخرى بأسعار معقولة .
وكان ذلك أمرا بسيطا ، لكن لابد من خطوره على
البال ! ..

ثم لابد من دفع ثمن هذه المادة الخام ، ودفع تكاليف نقلها الى باريس ، وسيكون ذلك : سيدفعه بير ومارى من ادخارهما الضئيل . فليسا من السذاجة بحيث يطلبان اعتمادات رسمية .. ولو أن هذين العالمين الطبيعيين ، اللذين كانا على وشك اكتشاف هائل ، طلبا معونة جامعة باريس ، أو سألوا الحكومة اعانة لشراء تراب البتسبلند ، لضحكت منهما الجامعة ، وسخرت منهما الحكومة ، ولكان خطابهما ، على أى حال ، قد ضاع فى أضاير بعض المكاتب ، ولابد لهما من الانتظار الشهور الطوال قبل أن يتسلما ردا ، ربما جاء آخر الأمر بالرفض . فكأن الدولة ما زالت تسير على النهج الذى أدى الى اعدام العالم الكيميائى الشهير لافوازييه Lavoisier على المقصلة فى عالم ١٧٩٤ ، وقد أصدر قتلته الحكم عليه بحجة : « أن الجمهورية ليست فى حاجة الى علماء » ! ..

ثم أين المكان ؟ .. أيمكن ان يجدا فسحة فى المباني العديدة الملحقة بالسوربون ؟! الظاهر ان لا ! .. فبعد ما بذل بير ومارى المساعى العديدة عادة ، بصفقة المقبون ، من حيث بدأ .. أى الى مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء حيث يدرس بير : الى ذلك «الأتلييه» الذى استخدمته مارى فى تجاربها الأولى ، الذى هو سقيفة من خشب ، كعنبر مهجور ، سقفه من زجاج فى حالة زرية ، بحيث يتساقط منه المطر ! .. وكانت كلية الطب فيما سلف تستخدمه غرفة مشرحة ، ثم نبذته

منذ آمد ، اذ وجدته غير لائق حتى باستقبال جثث الموتى ! .. وليست أرضه من خشب ! .. بل هى مغطاة بطبقة من القار ، وليس فيه من الأثاث الا بعض مناضد مطبخ محطمة ، وسبورة سوداء لا يدرى أحد سر خبيتها وبقائها هنا ، وموقد قديم من حديد صدى .
وما كان لعامل بسيط أن يقبل راضيا على العمل فى مثل ذلك المكان ، غير أن مارى وبير قد أقبلا عليه مستسلمين . وكانت ميزته الفريدة ، على سوءاته ، أن أحدا لا يفكر فى حرمان الزوجين من اتخاذهما اياه معملا ! ..

وبينا كانا يضعان اليد على هذه المستعمرة ، جاءهما الرد من النمسا . أخبار طيبة ! .. فبفضل تدخل البروفسور سويس Suess ، عضو أكاديمية العلوم فى فينا ، قررت الحكومة النمساوية ، وهى المالكة لمناجم سان جواكيمستال ، أن تضع مجانا طنا من المعدن الثمين تحت تصرف هذين « المجنونين » اللذين يدعيان حاجتهما اليه ! .. واذا كانا بحاجة الى كمية أخرى أكبر من ذلك فيما بعد ، فهى تقدمها اليهما بثمان بخس .

وفى ذات صباح ، وصلت عربة نقل ضخمة تجرها الخيول ، كتلك التى تنقل الفحم ، ووقفت أمام مدرسة الطبيعة والكيمياء بشارع لومون ... فتهرع مارى وبير حاسرى الرأس ، وهما فى « مرايل » العمل ... وحافظا بغير على هدوئه المعتاد . أما مارى ، فان رؤيتها الحمالين يفرغون أكياس البتشبيلند قد حملتها على أجنحة الفرع ... فاندفعت ، فى تطلع ونفاد صبر ، تفتح كيسا وتتأمل كنزها الثمين .. تقطع الدوبارة وتكشف القماش السميك وتضع يديها فى تراب المعدن الصخرى الخام الذى مازال ممتزجا بابر صنوبر بوهيميا ...

انه ها هنا يختبئ الراديو ! .. انه من هنا سوف
تستخرجه ماري ، ولو كان شامخا كالجبل الأشم ، هذا
الشيء الهامد الذي يشبه حصباء الطريق ...
في غرفة سطح ، عاشت ماري سكلودوفسكى ألد
الساعات نشوة في حياتها طالبة . ولا تلبث ماري كورى
أن تتذوق ، في غرفة مشرحة مهجورة ، أفراحا شائقة! ..
فيا للعود السعيد على بدء ، الذى وعدت به امرأة :
(لم توعده بمثله ، ولم تعرفه ولا ريب ، امرأة قبل ماري)
.. اختارها الله لكل هذا الهناء ، فى كل هذا البؤس
والعناء ! ...

فهذه « السقيفة » الخشبية بشارع لومون هى آخر
ما يصلح للتجارب العلمية . ففى الصيف ، نظرا لسقفها
الزجاجى ، تغلى كالمرجل . وفى الشتاء لا يدرى أهلها هل
يتمنون الجمد أو المطر . فاذا أمطرت السماء ، تساقط
الماء على الأرض قطرة قطرة ، بدوى خفيف ، يلح ويشير
الأعصاب ، وعلى مناضد العمل فى أماكن أشر العالمان
على مواضعهما ليتحاشياها فلا يضا فيها أجهزتهما ..
واذا برد الجو ، تثلج المكان وأصحابه .. فلا علاج .
وحتى الموقد قد خيب آمالهما ، فاذا اقتربا منه أصابا
بعض الحرارة ، واذا بعدا خطوة عنه دخلا المنطقة
المتجمدة ! ..

ومع ذلك كان لابد لهما من التعود والصبر . وكتبت
ماري فيما بعد ، فى مذكراتها :

« ليس عندنا مال ، ولا معمل ، ولا عون للسير بهذا
العبء الجليل الثقيل .. فهو بمثابة خلق شيء من لا شيء .
واذا كان كازيمير دلووسكى قد وصف سنواتى الدراسية ،
بأنها : « سنوات البطولة فى حياة أخت زوجتى » ..
فيمكننى القول دون مبالغة : ان هذه الحقبة كانت ،

لزوجى ولى . عهد البطولة فى حياتنا المشتركة .

ومع ذلك ، وفى هذا العنبر الزرى العتيق ، قد
تتابعتم أجمل سننى حياتنا وأسعدها ، موقوفة خالصة
للعمل . وكنت أعد غالبا طعامنا حيث نحن ، لكيلا نقطع
تجربه هامة . . . وكنت احيانا أقضى النهار بطوله أحرك
سائلا يغلى على النار يعود من حديد ، طولله كطولى ،
فاذا جاء المساء سقطت تعباً واعياء . . . »

وعلى هذه الحال ، وفى مثل هذه الأحوال ، عمل بير
كورى وزوجته من ١٨٩٨ الى ١٩٠٢ . . فهما فاعلا بناء ،
وهما حمالا حطب ، وهما صاهرا حديد ، وهما نافخا
نار ، وهما مكتشفان شئ لم يقر له قرار ! . .

فقد ظل الراديوم حافظا سره ، لا يريد أن يميظ عن
نفسه اللثام ، أو يعرف بنفسه بنى الانسان ! . .

وصارت أيام العمل أشهرا ، وتحولت الأشهر الى
سنين . . . ولم يفقد بير ولا مارى الأمل ، ولم تخنهما
الشجاعة ، فان هذه المادة التى تقاومهما ، تفتنهما . . .
وقد جمعت بين الرجل وزوجه ألوان الحنان القلبى والهوى
العقلى ، فعاشا حياة غير معقولة ، فى مشرحة مهجورة ،
عيشة خلقت له ، وخلقت لها ، ولم تكن تصلح الا لهما ! . .
وعندما كان بير ومارى يتركان أجهزتهما وتجاربهما
لحظة ليتحدثا ويستجما ، كان يدور حديثهما حول هذا
الراديوم المحبوب . .

فتساءل عنه مارى بالتطلع الحار الذى يشعر به طفل
منوه بلعبة :

— ليت شعرى كيف تراه سيكون ؟ . . وأنت يا بير
كيف تتصور شكله ؟ . .
فيجيبها العالم بلطف :

- والله ما أدري ! غير أنني أتمنى أن يكون جميل اللون !
ومن عجب أن رسائل ماري كوري إلى أهلها وصحبها
لا تشير إلى جهادها الرائع العجيب .. فلم تشر بهم فيما
أصابها من شكوك ، وصعوبات ، ومهالك .. لقد اكتفت
بقرينها ، وشريك روحها وعقلها ، تبوح له ، ويبوح لها .
فهي ، إليه وحده ، تفضي بأفكارها وأحلامها .. وتكتفي
بأن تحيط أهلها بهنائها كزوجة وام ... فانظر إلى
تواضعها وهي تخفي عبقريتها وعظمتها وراء : « امرأة
كغيرها من النساء » :
من ماري إلى برونيا ، ١٨٩٩ :

(أن حياتنا تسير على وتيرة واحدة . فنحن نعمل كثيرا ،
ولكننا ننام جيدا ، ولذلك لا تسوء صحتنا . والمساء يقضى
في العناية بالبنت . ففي الصباح البسها ثيابها ، وأطعمها ،
ثم أخرج عادة في نحو الساعة التاسعة . ولم يحدث خلال
السنة كلها أن ذهبنا إلى مسرح تمثيل ، أو حفلة
موسيقية ، أو قمنا بزيارة ما .. ونحن لهذا بخير . ولا
تنقصني إلا أسرتي . ولا سيما أنتم ، أيها الاعزة ، وأبى ..
فاني كثيرا ما أفكر بحزن في عزلته . وليس لي ما أشكو
منه ، فالصحة ليست سيئة ، والطفلة تنمو وتكبر ،
وزوجي خير زوج يمكن أن تحلم به امرأة . وما كنت لأمنى
النفس بالعثور على مثله . فهو حقا هبة من عند الله ،
وكلما عشنا معا ازددنا حبا .

عملنا في تقدم ، ولا ألبث أن ألقى محاضرة في موضوعه)
وهذا العمل الذي تكتفي ماري بالإشارة إليه لما ،
كان يتقدم تقدما مذهشا . فمدام كوري تقترب من
الهدف . وقد أشفق عليها زوجها من شدة ما تلقاه من
ارهاق الفكر والساعد ، في حمل المعادن والأثقال ، والعمل

امام النار ، والتعرض لتيارات الهواء ، لتستخرج مادة نقية ، أنقى من الجوهر ، في وسط هذه البلوى .. وبدا له أن دون ذلك أهوالا وأهوالا . فنصح صاحبه بعقد هدنة .. فكأنه لم يكن يعرف خلق امراته . فان ماري قد قررت عزل الراديوم عن كل مادة غريبة مختلطة به ، ولو كانت كما قلنا جبلا شاهقا ، وسوف تعزله حتما . فهي تحتقر التعب والمشقة ، ولا يثنى عزمها أنها تحارب المجهول .

وفي ١٩٠٢ ، بعد خمسة وأربعين شهرا ، من اليوم الذي أعلن فيه كوري وزوجه احتمال وجود الراديوم ، تظهر ماري بالفوز النهائي في حرب الفناء هذه .. فتوفق في تحضير عشر الجرام من الراديوم النقي ، وفي وزن ثقله النوعي ، فتجد وزن الجوهر الجديد ٢٢٥ .

ولم يعد أمام الكيميائيين المتعنتين المتشككين إلا أن ينحنوا أمام الواقع ، أمام عناد امرأة هو فوق طاقة البشر ..

لقد أصبح الراديوم موجودا رسميا . الساعة التاسعة مساء . بير وماري في منزلهما بشارع كلرمان ، حيث تختفي فيه عن عيون الناس حديقة ريفية صغيرة جميلة ، غاية في الهدوء ، يمكنهما أحيانا التسرب من بابها الخلفي ، على الدراجة ، نحو الضواحي ، أو نحو الغابات ...

وقد اعتكف الدكتور كوري الوالد الشيخ في غرفته . وأدخلت ماري بنتها الحمام ، ثم ظلت الى جنبها حتى قامت ، والا لم تكف الطفلة عن مناداتها : « Mé ! » ذلك النداء الذي سيحل عند إيرين ، وعند ايف ، دائما مهما كبرت ، محل « ماما » . ولما انتظمت أنفاس الصغيرة التي تبلغ أربع سنوات ، واطمأنت عليها أمها ، نزلت الى

جنب زوجها الذى كان ينتظرها بفارغ الصبر ، يكاد يفار
من طفلته ، لأنه اعتاد وجود ماري الى جانبه بحيث لو
غابت عنه قليلا غاب معها نور العقل وخفقان القلب ..
ولو حدث أن تأخرت ماري لحظة أكثر مما ينبغى الى
جنب بنتها ، فانه يستقبل عودتها بعتب عصبى :
- انك لا تعنين الا بهذه الطفلة ! ..

وطفق يتمشى ببطء فى الغرفة ، وجلست ماري تخطط
لايرين مريلة جديدة ...
ولكنها فى ذلك المساء لم تكن قادرة على المضى فى تركيز
انتباهها فى الابرة والفرزة .. فنهضت ، ثائرة الأعصاب .
ووضعت تطريزها ، وتساءلت فجأة :
- ماذا ، لو اننا ذهبنا لحظة هناك ؟!

وكانت فى لهجتها نفمة التوسل التى لم يكن بغير فى
حاجة اليها ، لأنه هو نفسه كان مثلها يتحرق شوقا الى
العودة الى « السقيفة » التى تركاها منذ ساعتين ..
فالراديوم ، الفتان كمخلوق حى ، الجذاب كالحب ،
يدعوهما الى مسكنه ! ..

فوضعا معطفيهما ، وأحاطا الدكتور كورى الوالد
بهربهما ، واختفيا .. وسارا على القدمين ، وقد تشابكت
أرعاهما ، وتبادلا كلمات قليلة .. وتابعا طريقهما فى
الشوارع المزدحمة بهذا الحى الغريب ، بمبانيه الصناعية،
وأرضه المهملة ، وعماراته المتواضعة ، حتى وصلا الى
شارع لومون ، وعبرا الحوش .. ووضع بغير المفتاح فى
القفل ، فكان للباب صرير ، كالذى سمعاه منه ألوف
المرات ... وهما الآن فى دولتهما : فى حلمهما ...

وأهابت ماري بزوجها فى الظلام :

- لا تشعل النور ! ..

ثم أضافت ، فى ضحكة صغيرة :

— أتذكر يوم قلت لى : « أريد أن يكون الراديو جميل اللون » ! ..

وكانت الحقيقة أروع من كل التمنيات الساذجة التى تمنّاها بىر ومارى منذ بضعة أشهر .. فان للراديو شيئاً آخر غير «اللون الجميل» : فهو بنفسه نورانى مضىء ! .. وفى ذلك العنبر المظلم ، حيث وضعت ذراته الثمينة فى أنابيبها الزجاجية الدقيقة ، ووضعت — لعدم وجود دواليب — على المناضد أو الرفوف ، المثبتة بالمسامير الى الحيطان ، أرسلت أضواءها الفوسفورية الضاربة الى الزرقة ، البراقة ، المعلقة فى كبـد الظلمات ... فتمتت المرأة الشابة :

— انظر ... انظر ! ..

وتقدمت باحتراس ، وتلمست مقعداً من القش ، وجلست . وفى الظلام ، والسكون .. اتجها نحو الأضواء الشاحبة ، نحو الينابيع الخفية للأشعاعات ، اتجها نحو اكتشافهما ، نحو الراديو ! .. وانحنى مارى بجسمها ، وأقبلت برأسها ، واتخذت ذلك الموقف الذى كان منذ ساعة موقفاً على حافة مهد طفلتها الجميلة النائمة ... ولمست يد رفيقها شعرها الذهبى . ستظل تتذكر ، مدى العمر ، هذه الديدان الوهاجة ، وتتذكر هذا السحر ..

الحياة الشاقة

كان بيير ومارى يكونان جد سعيدين ، لو أنهما استطاعا وقف قواهما على كفاحهما الانسانى المثير ، فى معملهما الحقيقى ..

اسفا على أنه لا بد لهما من مواجهة ضروب أخرى من الكفاح والنضال ، لا يخرجان منها ظافرين .

كان على بيير ، مقابل الخمسمائة فرنك فى الشهر ، أن يعطى فى السنة مائة وعشرين درسا سنويا بمدرسة الطبيعة والكيمياء ، وأن يتولى الاشراف على تجارب الطلبة وتوجيههم . دع مع هذا التدريس المرهق ، عمله ومباحثه . وعندما كان الرجل وزوجه بلا أولاد ، غطت الخمسمائة فرنك نفقات البيت ، ولكن بعد مولد ايرين ، جاء أجر الخادم ، ومرتب الموضع ، فأخلا بالميزانية . فجرد بيير ومارى حملة لايجاد مصادر رزق جديدة .

فكيف العمل ، وبيير كورى كما نعرفه يؤثر المضى فى بحوثه بمعمله ، المفتوح لعصف الريح وهطول المطر ، على الطعام والنام ؟!

الحل بسيط ، بسيط جدا . فلو أن بيير عين استاذا فى السوربون ، وهى وظيفة تخوله اياها أعماله بداهة ، لأعطى دروسا أقل عددا من دروس المدرسة ، ولأضاف من علمه الى معين الطلاب ، ولرفع من نفوذ الجامعة ، ولما

طلب من القدر المزيد . فان مطامحه تتلخص في : « كرسى
أستاذ » ليكسب عيشه ، ويربى شباب العلوم الطبيعية ،
و «معمل لتجاربه» مستكمل الاستعداد الكهربائى والفنى ،
وفيه مكان لبعض المساعدين ... ويكون فى الشتاء أكثر
دفئا ...

مقالة جنونية فى الطموح ! .. فان وظيفة الأستاذية ،
لن يحصل عليها بير كورى الا فى عام ١٩٠٤ ، عندما تهتف
الدنيا بأسرها بقدره ! أما المعمل فلن يجد اليه أبدا سبيلا .
والموت أسرع من السلطات العامة فى طلب عظماء الرجال !
وهو ، كعالم ، يجهل الدسائس الحكومية . ومواهبه ،
وصفاته ، وأعماله لن تغنى عنه شيئا : لأنه لا يستطيع
إبراز قيمتها .. وقد قال عنه العالم الشهير هنرى
بوانكاريه :

« انه على استعداد دوما ليمحو نفسه أمام أصدقائه ،
أو حتى أمام منافسيه » ..

ففى ١٨٩٨ يخلو كرسى « الكيمياء والطبيعة » فى
السوربون . فيعزم بير كورى على المطالبة به . وكان
العدل يقضى بتعيينه فيه .. ولكنه لم يكن من تلاميذ
مدرسة « النورمال » ولا من تلاميذ مدرسة «البوليتكنيك»
فهو محروم من التأييد الحاسم الذى يسند به هذان
المعهدان تلاميذهما القدماء . زد على هذا أن اكتشافاته
منذ خمسة عشر عاما ليست « تماما » فى حيز « الكيمياء
والطبيعة » .. فرفض ترشيحه ! ..

ولكن لا بير ولا مارى بالذين يضيعان وقتهما فى إبهاء
الوزارات ، ودسائس الجامعات .. فرضيا من الغنيمة
بالإياب ، دون تدمير ولا شكوى .. وليست - فضلا عن
ذلك - الخمسمائة فرنك بالفقر المدقع ! ..

من ماري الى جوزيف سكلودوفسكى - مارس ١٨٩٩ :

(لا بد لنا من شدة الحرص ، فليس مرتب زوجي بالذي يكفى العيش عن سعة ، وان كان لا يحدث عجزا .

وارجو أنا وزوجي ان يتمكن قريبا من الحصول على مهنة ثابتة ، لا لنكفل تغطية نفقاتنا فحسب ، بل لندخر شيئا يكفل مستقبل طفلتنا . وارىد ان اقدم رسالة الدكتوراه اولا قبل ان ابحت عن عمل .

ونحن فى هذه الآونة مشغولان بمعادننا الجديدة ، بحيث لا أقدر على تحضير رسالتى ، وهى حقيقة تقوم على هذا العمل نفسه ، ولكنها تتطلب دراسات تكميلية لا طاقة لى بها الآن ..

صحتنا جيدة . ولا يشكو زوجي من الروماتيزم بقدر ما كان يشكو .. اما انا فلم أعد أسعل بتاتا ، ولا شئ فى رئتى كما دل الفحص الطبى .

ايرين تنمو نموا طبيعيا . وقد فطمتها فى شهرها الثامن عشر ، ولكننى بالطبع أعطيها منذ حين حساء اللبن ، والآن أغذيها بهذا الحساء والبيض الطازج)

سنة ١٩٠٠ .. دفتر الحساب يدل على ان الخرج يفوق الدخل . وقد سكن الدكتور كورى الوالد مع ولده فى بولفار كلرمان ، وأجر بيته بضاحية « صو » . ومارى تدفع الآن فى بيتها هذا ١٤٠٠ فرنك سنويا .. واضطرت الحاجة بير كورى الى قبول وظيفة معيد فى مدرسة البوليتكنيك ، فزاد الدخل الفين وخمسمائة فرنك فى السنة ..

ثم هبط عليهما فجأة اقتراح غير مأمول .. ولكنه لا يجيء من فرنسا .. بل من جامعة جنيف التى قدرت هذين العالمين حق قدرهما ، فعرض العميد على بير كورى

كرسى استاذية الفيزيكا ، بمرتب عشرة آلاف فرنك ،
ومرتب اقامة ، وادارة معمل مجهز بكل ما يلزم ، مع
مساعدين له .. كما منحت ماري وظيفة رسمية في المعمل
نفسه .. فياليت هذا العرض قد جاء من جامعة باريس !
.. اذن لطاب العيش ونعمت العقبى ! ..

فيسافران في يوليه الى سويسرا ، ويعتزمان القبول ..
ثم تبدأ الوسواس والتردد .. كيف يضحيان شهورا
عديدة في تحضير دراسة مهمة ، ويعطلان الى حين بحثهما
في الراديووم ، وليس نقل معدات الاكتشاف من الهينات ..
فيرسل بير كوري شاكرا ، معذرا ، مستقيلا .. لقد
دفعنا هذا الاغراء عنهما حبا في الراديووم ، وقررا البقاء في
باريس .. ولا يلبث بير أن يغادر مدرسة البوليتكنيك ،
ليتولى التدريس في قسم الـ P.C.N. (الفيزيكا ،
والكيمياء ، والعلوم الطبيعية) الملحق بالسوربون ..
وشاركته ماري في القيام بنصيبها ، فرشحت نفسها
للتدريس بمدرسة النورمال العليا للبنات في سيفر ، قرب
فرساي ، فجاءها الرد من العميد :

سيدتي :

اتشرف باحاطتك بأنك ، بناء على اقتراحي ، قد كلفت
خلال السنة الدراسية ١٩٠٠ - ١٩٠١ بمحاضرات الطبيعة
للسنتين الأولى والثانية بمدرسة النورمال في سيفر .
فتفضلى بتقديم نفسك الى الأنسة الناظرة ابتداء من
يوم الاثنين القادم ٢٩ الجاري

توفيقان .. لقد توازنت الميزانية لزمان طويل .. ورغم
حرمان بير من الكرسي الجدير به في السوربون .. فما
أكثر الوقت الضائع بين معاهد التعليم في دروس ثانوية! ..
وما أبعد الثقة على ماري في سفرها مرات كل أسبوع
الى سيفر في ترام بطيء بطئا مؤثسا، تنتظره نصف ساعة

كاملة ، واقفة على الرصيف ! .. وبير يجرى من شارع
لومون الى شارع كوفيه ليدرس لقسم P.C.N. ..
لم يعود يجرى الى العمل الملعون ! ..
ويرشح نفسه لعضوية المجمع العلمى باجماع صحبه ..
لينال منافسه « أماجا » Amagat ٢٣ صوتا ، وينال
هو ٢٠ صوتا ، والثالث Gernez ستة أصوات ! ..
وما اكثر ما اضاع أيضا من وقت وزيارات من أجل هذه
النتيجة العرجاء ! ..

أما عميد الجامعة الجديد ، بول آبل ، الذى كانت
تسمعه مارى سكلودوفسكى وهو يلقى دروسه فى
السوربون ، مبهورة ، مأخوذة ، فقد عرف لبير قدره ،
والح عليه أشد الالاحاح فى قبول ترشيحه لوسام اللجيون
هونور .. ويكتب اليه فى هذا ، ويكتب الى مارى لتؤثر
فى زوجها وتحمله على عدم الرفض . ولكن بير يرفض
ويصر على الاعتذار ، ويكتب اليه بأن حاجته الى معمل
أشد من حاجته الى وسام ! ..
من جورج سانياك الى بير كورى :

« لقد راعنى ما رأيته فى مدام كورى من تغير ملامحها
وذبولها . وانى اعلم أنها ترهق نفسها فى اكتشافها وتحضير
رسالتها . ولكن هذا دبنى على أن قوة مقاومتها غير كافية
لتعيش هذه العيشة الذهنية البحتة كما تفعل ، وما أقوله
منها ، أقوله عنك ..

فكلاكما لا يأكل الكفاية . وقد رايت أكثر من مرة مدام
كورى تقضم قطعتين من السجق ، وتبلعهما بفنجان من
الشاي . فهل تظن أن بنية ، مهما كانت قوية ، لا يمكن
أن تتأثر بمثل هذه التغذية غير الكافية ؟ فماذا يصيبك لو
أن مدام كورى اضاعت صحتها ؟
ان عدم الاكتراث والعناد من جانبها ليسا عذرا لك .

وقد تعتذر بأنها ليست جائعة ! .. وانها كبيرة تعرف ما عليها عمله ! .. ولكن لا .. انها تتصرف الآن تصرف الأطفال .. فأنتما لا تلقيان الى الطعام بالا ، وتتناولانه في اية ساعة ، كيفما اتفق .. وفي المساء تتأخران حتى تتمرد المعدة من طول انتظارها ، فتأبى العمل مع الأيام .. فلا تتخذا هذا التأخير عادة .. ومن الضروري ألا تخلط الشواغل العلمية بكل دقائق حياتكما . فدعا الجسم يتنفس .. ولا بد لكما من الجلوس براحة أمام المائدة ، تأكلان في أناة ، وتتجنبان الكلام في أشياء محزنة ، أو مرهقة للدماغ .. وليس لكما أن تقرأ أثناء الأكل ، ولأن تتكلما في علم الفيزيكا .. »

وستحمل لهما السنة القادمة حوادث اليمه . فقد حملت ماري ثم سقط الجنين ، فاسمع الى بثها وحزنها .

من ماري الى برونيا - ٢٠ اغسطس ١٩٠٣ :

« اننى شديدة الجزع من هذا الحادث حتى لا أجد الشجاعة للكتابة الى انسان . فقد تعودت على انتظار هذا الطفل الى حد لا أجد بعده عزاء . فرجائى الكبير ان تكتبى الى عما اذا كان الذنب ذنب ضعفى العام ! فاننى لا أخفى عنك اننى لم ادخر لقواى جهدا . فقد كنت موفورة الثقة ببنيتى ، والان أندم على ذلك ، لاننى دفعت فيه ثمنا غاليا . لقد كانت طفلة ، بنتا صغيرة ، في حالة طيبة ، وكانت حية .. وانا في اشد الحاجة اليها ، والتمنى لها .. »

ثم تجيء بعد ذلك اخبار سيئة من بولونيا . فقد ولد لبرونيا طفل ثان : ولد ، مات في خلال أيام ، فحدث عن حزن ماري على ما أصاب اختها ، وتساؤلها عن موت ولد كان في تمام العافية ، وماذا يفعل الوالدان اذن

للاحتفاظ بالاولاد وتربيتهم أكثر مما فعلا ؟ .. وهى لا تكاد الآن تنظر الى بنتها ايرين حتى ترتجف هلعا عليها ..

والح الروماتيزم على بير كورى ، وتركه فى حالة يرثى لها . فكان يئن طوال الليل ، وامراته الوالهة ساهرة الى جانبه ..

وهى فى هذا الويل كله تؤدى دروسها فى سيفر ، وكلاهما يتلهف على العودة الى العمل .. ففى مرة ، مرة واحدة ، لم يستطع بير صبرا ، فصدرت منه هذه الشكاة الخافتة :

- ان الحياة التى اخترناها شاقة عسيرة .. فحاولت مارى ان تحتج ، ولكنها لم تستطع اخفاء جرمها .. فاذا كان بير قانطا الى هذا الحد فهل خائته قواه ؟ .. ايكون مريضا بداء عضال ؟ .. ان فكرة الموت كانت تتردد فى الاشهر الاخيرة حول هذه المرأة .. فصاحت : - بير ! ..

فدهش العالم ، والتفت الى مارى ، التى نادته بياس وصوت مختنق ، وسأل :

- ماذا جرى ؟ .. ماذا اصابك يا حبيبتي ؟
- بير .. اذا اُختفى احدنا ، فلا ينبغى للآخر ان يعيش بعده .. فليس فى وسع احدنا ان يعيش دون الآخر ... اليس كذلك ؟ ..

فهز بير رأسه .. فان كلمات المرأة ، كلمات العاشقة التى نسيت ، لحظة من دهرها ، رسالتها ، قد ذكرته بان العالم لا يحق له هجر العلم : هدف حياته ..

لتأمل هنيهة وجه مارى المربد من الاسى ، ثم قال بحزم :
- انت مخطئة . فمهما حدث ، ولو أصبحنا جسدا بغير روح ، فلا بد من المضى فى العمل والكفاح ..

رسالة الدكتوراه

ماذا يعنى العلم اذا ما كان خدمته وسدنته اغنياء او فقراء ، سعداء او اشقياء ، اصحاء او مرضى ؟ .. فالعلم موقن بانهم خلقوا للبحث والاستقراء والاستكشاف ، وانهم سيظلون يبحثون ويجدون الى ان تخونهم قواهم ، وتحين ساعتهم . وليس في مقدور العالم ان يقاوم استعداداه ، او يناضل مواهبه والهامه . وهو حتى في ايام « القرف » والتمرد ، تقوده خطاه حتما وتعود به الى اجهزة معمله .

فلا عجب اذن من ازدهار أعمال بير ومارى ونجاحها خلال هذه السنين الشاقة العسيرة .. وها هو ذا استكشافهما : « النشاط الاشعاعى » قد سطع ، وبهر العقول ، والانظار ، في حين قصم ، شيئا فشيئا ، ظهري العالمين اللذين وهباه الحياة ...

فنرى انهما من سنة ١٨٩٩ الى ١٩٠٤ قد نشرا - اما معا ، واما أحدهما على انفراد ، واما مع زملاء لهما - اثنين وثلاثين مبحثا علميا .. ولم يلبث اكتشافهما الذى ولد في فرنسا ان اجتاح الخارج بسرعة .. فانهالت منذ ١٩٠٠ من انجلترا والمانيا والنمسا والدانمرك الرسائل والاستعلامات الموقع عليها من أعظم أسباطين العلم وفطاحله ، على عنوان شارع لومون ...

وعكف العلماء ، في كافة بقاع الارض المتحضرة ، على دراسة الراديوم وخواصه ، وتأثيره الذي راع عقولهم ، اذ ظهر ان اشعاعه اقوى من اشعاع الاورانيوم بمليونى مرة! واتضح ان تأثيره على كل مايعرض له ، اشد من تأثير السحر فى الزمن الخالى! .. فهو لايبالى بالورق الاسود ، الذى يحجب اللوحات الفوتوغرافية ، فيطبعا بما يريد . وهو يحول الجو موصلا كهربائيا ، وبذلك يفرغ الالكتروسكوب - وهو مقياس الكهرباء - عن بعد .. وهو يصبغ بلون البنفسج الانابيب الزجاجية التى تتشرف بأضوائه . وهو يقضم ، شيئا فشيئا ، الورق او القطن الذى يلف فيه ويحوله الى مسحوق! .. وهو ، كما سبق لنا القول : نورانى مضى ، بحيث تمكن المطالعة على ضوءه ليلا! .. ولكن ليس هذا آخر عجائب الراديوم .. فهو يمنح الضوء ايضا لاجسام مظلمة ، كان يستحيل عليها أن تضيء بنفسها مثل الماس . زد على هذا ان الراديوم له صفة «العدوى» .. ينتقل كهذا العطر ، ويعدى كالمرض! .. ويستحيل ان يترك جماد ، او نبات ، او حيوان ، او انسان ، أمام انبوبة راديوم ، دون أن يحدث فيه توا « تفاعل نورانى » محسوس ، يمكن آلة دقيقة ان تسجله . وكانت هذه العدوى ، التى تدخلت فى نتائج التجارب الدقيقة ، عدوا لدودا مقيما لبير ومارى كورى .

وكتبت مارى :

« لابد من اتخاذ احتياطات خاصة ، فاذا أردنا الاستمرار فى عمليات المقاييس الدقيقة . فان مختلف الادوات المستعملة فى معمل الكيمياء ، وتلك التى تخدم تجارب الفيزيكا ، لا تلبث أن تتأثر بالاشعاع الكهربائى ، وتصبح كلها اشعاعية ، فتؤثر فى الزجاج الفوتوغرافى رغم الورق الاسود . ويصبح التراب ، وهواء الغرفة ،

والملابس : ذوات اشعاع .. ويتحول هواء الغرفة موصلًا كهربائيًا . وقد ضاق بنا الحال في المعمل الذى نشتغل فيه ، اذ لم يعد لنا جهاز واحد معزول غير متأثر بالراديوم ! .. »

وانا لنجد ، بعد وفاة بير ومارى كورى بزمن طويل أن كراسات مذكراتهما العلمية ، مازالت متأثرة ، في تضاعيف أوراقها ، بهذا « التفاعل » الخفى الاشعاعى العجيب ، حتى ظلت تؤثر أيضا بعد ثلاثين عاما أو أربعين ، في أجهزة الموازين التى تكون منها دانية ! ..

وقد يلوح الراديوم لمن لا يعرفه جسما جامدا ، فى حين انه قوة هائلة ، خالقة ، محطمة ، قاتلة ، تسبب المآسى والانتحار ، وتحول الاقدار ، وينشأ عنها الحياة والموت . ولم يعد ، منذ اكتشاف الراديوم ، أمام الفلاسفة إلا أن يبدأوا من جديد فلسفتهم ، كما بدأ العلماء ، من جديد علمهم ! ..

أما آخر عجائب الراديوم واشدها تأثيرا ، فهو : مساهمته فى خير الانسانية وسعادة البشر . فانه سيصبح حليفا لهم ضد داء السرطان الوبيل .

فقد أعلن العالمان الالمان ، ولكخوف Walkhoff ، وجيزل Giesel ، فى عام ١٩٠٠ ، أن المادة الجديدة لها تأثيرات فيزيولوجية . فبادر بير كورى ، غير مكترث بالخطر ، الى تعريض ذراعه على الفور لتأثير الراديوم . فلم يلبث أن ظهر الضرر الذى فرح به ، وسجل عوارضه فى رسالة الى الاكاديمية ، وصفه فيها :

« احمر الجلد على سطح ستة سنتيمترات مربعة . وكان اقرب فى الشكل الى الاحتراق ، ولكنه لم يتسع ، بل ارتفع بحيث كون فى اليوم العشرين قشرة ، ثم جرحا ، ربطه . وفى اليوم الثانى والاربعين بدات طبقة الجلد

الظاهرة تتكون فى الاطراف ، وتتحج الى الوسط ، وبعد
اثنين وخمسين يوما من عمل الاشعة ، كان لا يزال باقيا
موضع الجرح ، مسطح سنتيمتر مربع واحد ، بحالة
جريحة ، اتخذت لونا داكنا يدل على تأثير أشد عمقا .
زد على هذا ان مدام كورى ، وهى تنقل أنبوبة صغيرة
مختومة تحتوى على بضعة أجزاء من عشر الجرام من هذه
المادة ، قد أصيبت باحتراقات كهذه ، على الرغم من أن
الانبوبة الصغيرة كانت موضوعة أيضا فى علبة معدنية رقيقة
وفضلا عن هذه التفاعلات الحية ، فقد أصابت أيدينا ،
اثناء البحوث التى قمنا بها فى تحضير عناصر الراديوم ،
تفاعلات متنوعة . فقد أصيبت الأيدي بتقشف عام .
واطراف الاصابع ، التى أمسكت الانابيب أو الكبسول الذى
يحتوى المادة ، نالتها أحيانا أوجاع الية جدا . وأصيب
أحدنا (يقصد بذلك نفسه أو مدام كورى) بالتهاب فى
اطراف الأنامل استمر خمسة عشر يوما ، وانتهى بسقوط
الجلد ، ولكن الاحساس المؤلم لم ينته تماما برغم مضي
شهرين . »

هذا ، وكان زميلهما ، وصديقهما البروفسور هنرى
بكرل ، يحمل فى جيب صدريته أنبوبة زجاجية تحوى بعض
الراديوم ، فأصيب أيضا باحتراق (لم يكن يتمناه !) ..
لبهت من العجب ومن الفضب ، وهروا الى دار كورى
يشكو لهما ما أصابه من مآثر ولدهما المروع !! .. وختم
كلامه بقوله :

« ان هذا الراديوم ! .. أحبه ، ولكنى محقق عليه ! .. »
وبهر بير كورى من شدة سلطان اشعاع الراديوم ،
لجربه فى الحيوان مع بعض الاطباء البارزين ، كالاساتذة
بوشار وبلتازار . فوصلوا الى نتيجة تقطع : بأن الراديوم
يفتك بالخلايا المريضة ، فيشفى القرع الجلدية والدمامل

وبعض أشكال السرطان . واتخذ هذا العلاج اسم كوريثيرابي Curietherapie . وكان كبار الاطباء الفرنسيين (أمثال دولوس وويكهام ودمونيتشي ودجريه الخ) يطبقونه بنجاح في علاج المرضى ، باستعارتهم أنابيب الراديوم من ماري وبير كوري . كما استخدمه الدكتور دولوس ، في مستشفى سان لويس بباريس ، في معالجة البشرة ، فاتخذت جلدا جديدا !..

اذن فالراديوم نافع نفعا مذهشا ، رائعا ، لاحد له ! وقد تنبأ له الثقات بنتائج مباشرة ، نافعة ، لا غنى عنها للإنسانية .

وعلى ذلك ستنشأ « صناعة الراديوم » !..

واشرف بير وماري على بدء هذه الصناعة . وحضرا بأيديهما - ولا سيما بيدي ماري - أول جرام من الراديوم وذلك باستخراجه من ثمانية أطنان من تراب البتشبلند في عنبر مدرسة الطبيعة والكيمياء ، طبقا لاختراعهما .

وفي ١٩٠٤ خطر لرجل صناعي فرنسي ، همام ذكي ، يدعى أرميه دي ليل Armet de Lisle ، تأسيس مصنع لعمل الراديوم وتقديمه للأطباء . وعرض على بير وماري معملا متصلا بمصنعه ، يمكنهما فيه القيام ، في راحة ودقة ، بأشغالهما . فاتخذا لهما مساعدين لتكوينهم وتدريبهم .

أما ماري فلن تفرق عن أول جرام من الراديوم راي النور على يديها ، بل ستهديه فيما بعد الى معهدها . ولم يكن لها ، ولن يكون ، من ورائه ، الا جهدها الشاق المضني وعندما ينهار ذلك العنبر الخشبي ، ذو السقف الزجاجي المحطم ، تحت فؤوس الهدم ، وعندما تفيب مدام كوري عن هذا العالم ، سيظل هذا الجرام من الراديوم الرمز

المشع ضياء ونورا لعمل عظيم ولجهاد بطلين من صناع التاريخ
أما الجرامات الاخرى فسوف تتخذ قيمة اخرى : قيمة
ذهبية . فقد أصبح الراديوم صناعة ، ثم سلعة تعرض
 للبيع ، كأثمن مادة وأعلى بضاعة عرفت في عالم التجارة .
وقد قدر الجرام الواحد منه بسبعمائة ألف فرنك ذهباً ،
أي ما يعادل ثمانية وعشرين ألف جنيه مصرى !!!



إذا كانت أعمال العلماء في الراديوم مخصصة مثمرة في
مختلف البلدان ، وإذا كانت قد خلقت صناعة جديدة ،
وإذا كانت التجارب الاولى من تطبيق الاشعة في معالجة
أبشع الامراض قد كللت بالنجاح ، فذلك كله كان ، لان
امرأة شابة شقراء ، حملها التطلع المعروف في النساء ،
والتحمس للعلم المشهود في الرجال ، على اختيار هذا
الموضوع لرسالتها . . وما ذلك الا لانها عرفت كيف تتوسم
وتتنبأ بما في « البتشبلند » من عنصر جديد ، ولانها
ضمت جهودها الى جهود زوجها ، فأثبتت وجود هذا
العنصر ، ولانها وفقت بعد ذلك الى عزل الراديوم فصار
نقياً ، كأثمن جوهر في الوجود منذ وجدت الارض ومن عليها
هاهى ذى : هذه المرأة الشابة ، يوم ٢٥ يونية ١٩٠٣ ،
أمام سبورة سوداء ، في قاعة صغيرة يطلقون عليها « قاعة
الطلاب » في السوربون ، يصلون اليها من سلم حلزوني
ضيق منزو . وقد مضى خمس سنوات على مارى منذ
تهجمت على موضوع رسالتها ، ولكن مشاغل استكشافها
الهائل قد أخرت طويلاً امتحان الدكتوراه ، لانه لم يكن
لديها الوقت الكافى لاستجماع عناصره . وهاهى اليوم
تقدم نفسها وتقف أمام قضاتها ! . . وكان موضوع الرسالة :
Recherches sur les Substances radioactives
قدمت نصه كالمبتع الى ممتحنها الثلاثة ، وعلى رأسهم

البروفسور ليبمان . و . . - وبالحادث العجيب الذى لا يصدق !.. قد اشترت لنفسها ثوبا جديدا ، اسود شاملا : « من صوف على حرير » !!.. او بالاحرى ان اختها برونيا التى جاءت الى باريس لحضور مناقشة الرسالة ، قد عيرت اختها بثيابها اللامعة ، واخذتها رغم انفها الى محل ، وتفاوضت مع البائعة ، واختارت القماش واشارت ببعض التصليح ، دون ان تهتم بأختها الصغرى السارحة فى ملكوت العلوم ، تنظر اليها كاسفة البال !.. وفى صباح يوم من شهر يونيه ، ضاحى الشمس ، مشهود الذكرى ، ألبست برونيا أختها مانيا ، بنفس العناية ونفس التأثير ، اللذين شعرت بهما منذ عشرين عاما ، فى ١٨٨٣ ، يوم ألبست صغيرتها « مانيزيا » ثوبا اسود كهذا الثوب ، اذ كان عليها ان تتقبل ، من يد موظف روسى ، الميدالية الذهبية لمدرسة شارع كاركوفيا ...

وقفت مدام كورى معتدلة القامة .. وعلى محياها الشاحب ، وعلى جبينها العريض المقرب ، الذى كشف عنه شعرها الاشقر المرفوع كالخوذة ، ظهرت تجعدات دقيقة جدا تدل على آثار المعركة التى خاضتها ، وكسبتها ... وتزاحم الطبيعويون والكيميائيون بالمناكب فى الغرفة التى تملؤها الشمس .. فجاءوا بمقاعد اخرى ... فان الاهمية الاستثنائية لموضوع الرسالة التى ستناقش هنا قد جذب رجال العلم . واخذ الدكتور كورى الشيخ ، وبير كورى ، وبرونيا ، أماكنهم فى آخر القاعة ، محشورين بين الطلاب .. وعلى مقربة منهم لقيف من الفتيات اليانعات يثرثرن ، هن تلميذات مارى بمدرسة سيفر ، جئن يصفقن لمعلمتهن ...

وكان المتحنون الثلاثة فى ثيابهم الرسمية ، جالسين وراء منضدة طويلة من البلوط .. فتناوبوا توجيه الاسئلة

الى طالبة الدكتوراه . وكانت ماري تجيب بصوت رقيق
وفي يدها قطعة من الطباشير ترسم بها أحيانا على السبورة
تفسير أبحاثها . فحولت الاصطلاحات العلمية الباردة ،
الى صورة حماسية حارة : صورة أعظم اكتشاف في العصر
فالعلماء لا يقرون الفصاحة والتعليقات . . فكذاك يمنح
قضاة كلية العلوم ماري سكلودوفسكى كورى درجة
الدكتوراه بكلمات غير لامعة ، تجعل لها بساطتها المطلقة ،
هند قراءتها الآن بعد ثلاثين عاما أو أربعين عاما ، قيمة
مؤثرة عميقة . . وقد نطق البروفسور ليبمان ، الرئيس ،
بالعبارة المقررة: ان جامعة باريس تمنحك لقب دكتور فى
العلوم بدرجة « مشرف جدا » . .

وعندما خفت تصفيق الحضور ، أضاف بمودة ،
وبصوت الشيخ الجامعى الحينى :
- وانى باسم المحلفين ياسيدتى أعبر لك عن تهاننا . .
وهذه الامتحانات الصارمة ، وهذه الحفلات الجدية
المتواضعة التى تجرى على وتيرة واحدة ، للباحث العبقري
وللعامل المجد الامين على سواء ، لا تدعو الى السخرية . .
فهى لها أسلوبها ، ولها جمالها ، ولها جلالها . . .
وقبل مناقشة الرسالة ببعض الوقت ، وقبل تقديم
صناعة الراديوم فى فرنسا وفى الخارج ، اتخذ كورى
وزوجه قرارا لم يعلقا عليه أهمية كبيرة ، ولكنه سيؤثر
تأثيرا كبيرا على البقية من حياتهما . . فان ماري بتنقيتها
« البتشلند » وب عزلها الراديوم ، قد اخترعت فنا ،
وخلقت طريقة لصنعه . . واستعدت بلدان عديدة ، فى
مقدمتها أمريكا ، والبلجيك ، لاستغلال هذا الاكتشاف .
ولم تكن المصانع لتستطيع انتاج هذا « المعدن الخرافى » ،
الا اذا عرف مهندسوها سر تحضير الراديوم النقى . .
فبسط بئر هذه الشؤون لزوجته ، فى صبيحة يوم

أحد ، فى بيتهما الصغير بشارع كلرمان ، فقد آن الكلام فى صدد هذا الكنز النفيس الذى لا نزاع فى تأثيره ، وانتشاره ، وسلطانه ، وقال :

— ونحن الآن بازاء حلين .. فاما أن ننشر ، دون قيد ولا شرط ، نتائج بحوثنا ، بما فى ذلك طريقة تنقية الراديوم ... واما أن نعد أنفسنا كأصحابه ، باعتبارنا « مخترعى الراديوم » . وفى هذه الحالة ، قبل أن ننشر طريقة تحليل البتشبلىند ، لابد لنا من أن نسجل فنية الابتكار ، لنحفظ لأنفسنا حقوق صنع الراديوم فى العالم بأسره . ففكرت مارى بضع لحظات ، ثم قالت :

— هذا مستحيل . انه يكون مخالفا للروح العلمى . فأشرق وجه بيير ، ولكنه ، اراحة لضميره ، عاد يقول : — أظن ذلك .. ولكننى لا أريد أن نتخذ هذا القرار خبط عشواء .. فان حياتنا عسيرة شاقة .. وهى تنذرنا بالبقاء كذلك أبدا . ولنا طفلة .. وقد نرزق أولادا سواها .. فهذا « التسجيل » لهم ، ولنا ، هو عبارة عن مال كثير ، عن غنى هائل .. فهى الراحة المكفولة مدى العمر ، وهى الكف عن عيش الكفاف ... ثم أشار ، بضحكة صغيرة ، الى الشئ الوحيد الذى يعز عليه التخلى عنه :

— ويمكن أن يكون لنا أيضا معمل جميل ! فحدقت مارى بعينيهما .. ووزنت فكرة الربح ، والمكافأة المادية .. ثم لم تلبث أن نبذتها ، قائلة : — ان علماء الطبيعة ينشرون دائما أبحاثهم بحذافيرها ، فاذا كان لاكتشافنا مستقبل تجارى ، فهذا من محض المصادفة التى لايجوز لنا الانتفاع بها . والراديوم سيستخدم فى مصلحة المرضى .. فيبدو لى محالا أن نكسب من وراء هذا ..

ولم تبذل جهدا فى اقناع زوجها .. فهى تحزر انه لم يذكر تسجيل الاختراع الا خلاصا من الشك ، والكلمات التى نطقت بها عن يقين تعبر عن عواطفهما معا ، عن ايمانهما بواجب العالم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

وكرر بير ، فى وسط السكون ، كالصدى ، عبارة مارى :
- لا .. انه يكون مخالفا للروح العلمى .

وتنفس الصعداء ، وأضاف وكأنه قد سوى مسألة ثانوية :

- سأكتب اذن هذا المساء الى المهندسين الامريكان بكل التفاصيل التى يطلبونها .

وكتبت مارى ، بعد عشرين سنة :

« لقد قرر بير كورى بالاتفاق معى ، الا نحصل على اى نفع مادى من اكتشافنا : فلم نسجله . وقد نشرنا ، دون تحفظ ما ، نتائج بحوثنا ، وكذلك طرق تحضير الراديوم . وفوق ذلك اعطينا كل من يهمهم الامر المعلومات التى طلبوها . وكان ذلك عملا خيرا افاد صناعة الراديوم ، التى امكن تحسينها : مطلقة من كل قيد ، فى فرنسا بادئا ، ثم فى الخارج ، ومقدمة للعلماء والاطباء ما هم بحاجة اليه من موادها . وهذه الصناعة مازالت تستخدم الى اليوم نفس الطريقة التى رسماها تقريبا بلا تغيير .. »

وبعد ربع ساعة من ذلك الحديث القصير ، فى صباح يوم أحد ، اجتاز بير ومارى ، على دراجتيهما العزيزتين ، باب « جانتى » Gentilly مسرعين .. واتجها نحو غابات كلامار Clamart

لقد اختارا ، والى الابد ، بين الفقر والثراء .. وفى المساء ، عادا متعبين ، وأذرعهما محملة بزهور البرية وطاقات المروج ..

العدد

كانت سويسرا أول دولة عرضت على كورى وزوجه مركزا جديرا بمكانتهما ، فى جامعة جنيف . . وكانت انجلترا أول دولة قدمت اليهما الآلاء والتكريم ، اذ جاءتهما فى يونية ١٩٠٣ ، دعوة رسمية من المجمع الملكى الشهير ليلقى بير كورى امامه محاضرة فى الراديو ، فقبل العالم وسافر وزوجته الى لندن . فاستقبلهما وجه صديق كريم هو اللورد كلفن . وكان فخورا بهما وبعثتهما ، فأخذهما الى معمله ، وعرف بهما مساعديه ، بغبطة مؤثرة وأظهرهم على الهدية العظيمة التى جاءتهم من باريس : ذرات ثمينة من الراديو ، موضوعة فى أنبوبة من زجاج ! .

وفى مساء المحاضرة جلس اللورد كلفن الى جنب مارى : أول امرأة سمح لها أبدا بالدخول الى حرم جلسات المجمع الملكى . وفى القاعة ، التى اختنقت بزحام انجلترا العالمة ، كنت ترى السير ويليام كروكن ، ولورد رالى ، ولورد افبرى وسير فردريك برامويل ، وسير اوليفر لودج ، والبروفسور ديوار ، وراى لانكستر ، وأيرتون ، و س . ب . تومسون وأرمسترانغ . . فتحدث بير بالفرنسية ، فى أناة ، وبسط خواص الراديو . ثم طلب اطفاء الانوار ، وبدأ بعض تجارب مذهشة . تحمس لها الحضور ، وكان لها أثرها من الفداة فأرادت لندن كلها أن ترى عن كثب أبوى الراديو . فانهالت

دعوات العشاء والمآدب على « البروفسور بير ومسدام كورى » ، فحضرا هذه الاستقبالات الباهرة ، واستمعا الى الثناء عليهما وشرب نخبهما .. وكان بير ، أثناء ذلك ، كأنه « فى واد آخر » .. رغم أدبه الجم .. لا يكاد يدرك أن كل تلك التهاني موجهة اليه! .. وكانت مارى فى حرج وضيق من ألوف النظرات المصوبة اليها ، الى : ذلك « الحيوان النادر » ، والظاهرة العجيبة الشاذة فى شخص امرأة عالمة بالطبيعة! ..

وكانت فى ثوب قائم ، لا يكاد يبدى من جسمها شيئا ، وكانت يداها ، اللتان أفسدتهما الأحماض والأشعاعات ، تبدوان للعيان . وكل ماحولها صدور عارية ، وظهور مجردة ، ونحور تتلأأ بأجمل مافى الامبراطورية من قلائد وعقود .. طفقت مارى تتأمل بلذة خالصة هذه الحلى ، ولاحظت بدهشة أيضا أن زوجها ، وهو عادة شارد الذهن ، قد سمرت عيناه فى هذه القلائد المضيئة والعقود الساطعة بهاء .. فقالت له ، وهما يأويان الى فراشهما بعد السهرة : — ما أروع مارأينا .. اننى ماتخيلت قط وجود مثل هذه الجواهر! ..

فراح العالم يضحك ويقول :

— تصورى أننى ، أثناء العشاء ، لم أدر بماذا أشغل نفسى ، فوجدت لعبة ، هى : أن أحصى عدد المعامل التى كان يمكن تشييدها بهذه الاحجار الكريمة التى تحملها النساء حول أعناقهن! .. ولما دعيت الى الخطابة ، كنت قد وصلت الى عدد من المباني كعدد الافلاك والنجوم! ..

وعادا بعد بضعة أيام الى باريس ، الى السقيفة ! بعد ما وثقا صداقات قوية مع أساتذة فطاحل ، حتى ظهر وفاء الانجلوسكسون لمن يعجبون بهم فى شكل خطاب ، وصل فى نوفمبر ١٩٠٣ ، يعلن اليهما أن الجمعية الملكية بلندن ،

هى أيضا ، عبرت عن تقديرها بجائزة من أعلى الدرجات: مدالية دايفى . وكانت مارى مريضة ، فسافر زوجها وحده لحضور الحفلة ، وعاد حاملا من انجلترا مدالية ثقيلة من الذهب ، حفر عليها اسماهما . فلم يجدا مكانا لها عندهما أصلح من أن يعهدا بها الى بنتهما ايرين ، التى أصبح ذلك اليوم عندها فى مدى عمرها البالغ ست سنوات ، أحفل الايام ! وكان العالم يقول لاصدقائه الذين يزورونه ، مشيرا الى البنت الصغيرة ، وهى تلهو بلعبتها :

— أن ايرين تعبد قرشها الكبير الجديد ..!

ان روعة هاتين الرحلتين القصيرتين ، والبنت اللاعبة باسطوانة ذهبية .. هما بداية « السمفونى » التى جعلت تدنو الآن وتقرب نغماتها القوية الشجية .

وسنسمع لحنا جديدا رائعا هذه المرة من جانب السويد فى الاجتماع العام للمشهود يوم ١٠ ديسمبر ١٩٠٣ ، أعلنت اكاديمية العلوم بستوكهلم رسميا : أن جائزة نوبل للطبيعة عن السنة الجارية قد منحت مناصفة بين هنرى بكرل ، ومسيو ومدام بير كورى ، لاكتشافهما العظيم ..

ولم يحضر الحفلة الرجل ولا زوجه . فتلقى وزير فرنسا من يد ملك السويد ، نيابة عنهما ، الدبلوم والمدالية الذهبية ، وذلك لمرضهما وشدة انهماكهما فى العمل ، بحيث تراجعا أمام رحلة طويلة كهذه ، فى قلب الشتاء ، تتطلب ٨ ساعة بلا توقف .. ونرى مارى تعلن الى أخيها جوزيف النبأ السعيد فى بساطة وتقول : « انها لا تدرى متى يقبضان النقود » ! .. وصدور هذه الكلمات من امرأة رفضت بمحض اختيارها الثروة ، يدل على معنى فريد « فالشهرة الصاعقة ، وتمجيد الصحف والجماهير ، والدعوات الرسمية ، والجسر الذهبى الذى مدته أمريكا لهما ، لم

يكن هذا كله عندها شيئا مذكورا ، بل كان محلا للشكوى المرة !.. اما جائزة نوبل فليست عندها الا مكافأة سبعين ألف فرنك ذهبيا جزاء عملهما ، فهي محتمة القبول ، لا تتعارض مع « الروح العلمى » .. ثم هى فرصة نادرة لتخليص بير من حصص التدريس وانقاذ صحته !

وفى ٢ يناير سنة ١٩٠٤ ، وصل الشيك المبارك الى فرع البنك فى شارع جوبلان ، حيث يودع الزوجان ضئيل ادخارهما . فاستطاع بير أخيرا أن يترك التعليم فى مدرسة الطبيعة والكيمياء . واتخذا لهما مساعدا على نفقتهما بدلا من انتظار أشباح الجامعة الموعودين !.. وأرسلت مارى ، على سبيل السلف ، الى أختها برونيا وزوجها الدكتور كازيمير دلووسكى ، عشرين ألف كورون نمساوى لتيسير بداية مصحتهما . اما بقية الثروة الصغيرة ، التى لا تلبث أن تتضخم بجائزة أوزيريس التى منحها خمسين ألف فرنك ، فقد قسمت بين قراطيس فرنسية ، وسندات بلدية فارسوفيا .

ونجد فى دفتر حسابات مارى بعض نفقات أخرى ، كهدايا نقدية ، وقروض الى شقيق بير ، وأخوات مارى ، واعانات لجمعيات علمية ، وهبات لبعض الطلبة البولونيين ولاحدى رفيقات الصبا ، أو خدم المعمل ، أو طالبات فى مدرسة معلمات سيفر .. بل ان مارى لتذكر معلمتها الفرنسية الاولى ، الفقيرة جدا ، التى كانت تذوب شوقا لرؤية بلادها ، فترسل اليها تذكرة من فارسوفيا الى باريس ، ومن باريس الى ديبب مسقط رأسها ، وتستقبلها فى بيتها ، فتفرورق عينا السيدة الفاضلة من شدة التأثر لهذا الفرح غير المنتظر !! وكانت حسنات مارى فى صمت وسر . لم تندفع فى بذخ ، ولم تطع النزوات . وقررت أن تساعد مدى حياتها أولئك الذين هم فى حاجة اليها ..

وأخيرا تفكر فى نفسها !.. فتدخل غرفة حمام « عصرية »
بمنزل شارع كلرمان ، وتجدد ورق غرفة صغيرة .. ولكن
لم يخطر لها ، بمناسبة جائزة نوبل ، أن تشتري لنفسها
قبة جديدة !.. وإذا كانت قد ألحت على بير ، ليفادر
مدرسة الطبيعة ، فانها احتفظت لنفسها بمهنة التدريس
فى سيفر .. فهى تحب تلميذاتها ، وتحس من القوة
مايمكنها من الاستمرار فى التعليم الذى يكفل لها مرتبا !.
ونشأ سوء تفاهم دائم فرق بينهما وبين الجمهور الذى
اولاهما عطفه .. فقد بلغ كورى وزوجه فى تلك السنة
(١٩٠٣) ذروة العبقرية التى تؤيدها التجربة ، ويمكن ان
تؤتى اطيب الثمرات .. وقد سارا تحت سقيفة من خشب
يبللها المطر ، مدى سنوات ، فاكشفا الراديو الذى بهر
الدنيا . ولكن الرسالة لم تتم ، فدماغاهما يحويان كنوزا
أخرى مجهولة .. وهما يريدان أن يعملأ .. ويجب أن
يعملأ !

والمجد لا يكثرث كثيرا بالمستقبل ، الذى يتعلق به بير
ومارى . فالمجد يلقي بنفسه على العظماء ، ويلتصق بهم ،
بكل اثقاله ، يحاول ان يعرقل سيرهم . فاذاعة جائزة نوبل
قد حولت الى الزوجين أنظار الملايين من الناس ، رجالا
ونساء ، فلاسفة وعمالا ، أساتذة ووجهاء ، رجال شارع
وطلابا .. وهذه الملايين من المخلوقات تريد أن تعبر للزوجين
عن ميلها واعجابها !.. فحدث ، ولا حرج ، عن جماهير
المتطفلين والصحفيين من كل البلدان الذين حاصروا بيت
كورى وسقيفة شارع لومون !.. وحدث عن تلال البرقيات
التي وصلت من أربعة أرجاء المعمورة .. والوف المقالات
فى الصحف ، وارغام العالمين على الوقوف أمام المصورين !
فأصبحا ضحية مجدهما ، وحرما ، فى عزة الفنى ، الكنز
الوحيد الذى يتمنيانه ، وهو : الهدوء !..

وقد أصبحت كل دقائق حياتهما ، البسيطة المتواضعة
الخفرة ، نهبا مباحا للناس جميعا ، على صفحات الجرائد
وفي الصور الفوتغرافية ، وفي أغاني المسارح ! ..
وحاول كورى وزوجه جهدهما أن يرفضا كل حديث في
الصحف ، وأن يوصدا بابهما ، وأن يفلقا على نفسيهما
معملهما الحقير ، الذى دخل فى ذمة التاريخ ! .. لكن
شيئا من ذلك لم يتم . ان عملهما وحياتهما الخاصة لم
يعودا ملكا لهما .. حتى دماثة خلقهما ، وتواضعهما الذى
أدهش الصحفيين ، قد صار أمرا مشهورا ، وموضع
إشارة وتمجيد ! ..

يا لهذا المجد من مرآة عجيبة ! .. فهى أحيانا مخلصة ،
وأحيانا تشوه من ينظر إليها كالمرآيا المقوسة التى نراها فى
لونا بارك ! .. لقد صارت حياة مارى وزوجها مادة لآخر
مشاهد « الكبريات » وصلات الفناء ! .. ولما ذاع انهما
قد أضاعا عرضا جزءا من عنصر الراديو ، مثلوهما فورا
على مسرح مونمارتر ، محبوسين فى سقيفتهم لا يسمحان
لاحد بالدخول ، يقومان بخدمة نفسيهما ، ويفتشان
بطريقة مضحكة كل ركن من المسرح ، ليجدا المادة الثمينة
المفقودة ! ..

والحق أن ضياع كمية من الراديو ، مهما كانت من
الضالة ، له تأثيره فيهما ، ويتطلب منهما جهادا جديدا
كالاشغال الشاقة . فان اقل كمية منه توضع فى انبوبة
زجاجية بحجم الاصبع ، تتطلب مواد أولية من عدة أطنان !
هذه هى مشاغل مارى وبير ، بعد ثلاثة عشر يوما من
حصولهما على جائزة نوبل .. ففى خلال هذه الايام الثلاثة
عشر ، قام الكون باكتشاف آخر : اكتشاف كورى وزوجته
ولكن بير ومارى لم يلبسا القباء الكاريكاتورى الذى
أرادتهما الدنيا على لبسه ! ..

من بير كورى الى جورج جوى - ٢٢ يناير ١٩٠٤ :

صديقى العزيز :

«أردت أن أكتب اليك من زمن طويل ، فاعذرني اذا كنت لم أفعل ، فهذا راجع الى الحياة الفبية التى أحيها فى هذه الآونة .

فأنت قد رأيت هذه « اللحسة » بالراديوم !.. وهذا ماكلفنا ثمن لحظة من الشهرة : فالصحفيون والمصورون من جميع بلاد العالم يضطهدوننا ، ويحاصروننا ، ويجرون فى أعقابنا . وبلغ بهم الامر أن ينقلوا حديث طفلى مع خادمتها ، وأن يصفوا القطعة البيضاء السوداء التى عندنا ! ثم تلقينا رسائل وزيارات من كل الشواذ من الناس ، ومن كل المخترعين المجهولين .. أما طلبات النقود فلا حصر لها ثم تأمل مواكب جامعى الامضاءات ، والمفتونين ، والمحدثين والوجهاء .. بل العلماء أيضا ، الذين وفدوا لرؤيتنا فى سقيفتنا الفخمة التى تعرفها بشارع لومون !.. وعلى هذا كله . لم تعد لدينا لحظة هدوء فى العمل ، هذا العمل الذى تحول أيضا الى مكتب لتصدير البريد مساء !.. وهى حالة أغرقتنى فى طوفان من الغباء .. »

وهذان الشخصان اللذان تحملا الفقر دون تدمير أو شكوى ، وصمدا للعمل المنهك القوى ، وثبتا لظلم الناس ، قد بدت منهما لأول مرة فى حياتهما هزة الثورة الغريبة .. فكلما زادت واتسعت شهرتهما زادا ضيقا بها وتمللا منها من بير كورى الى جورج جوى ، ٢٠ مارس ١٩٠٤ :

« ... لقد رأيت كيف يحبونا المال فى هذه اللحظة . ولكن آلاء الثراء مصحوبة بويلات العناء . فاننا لم نكن قط أقل راحة وسلاما مما نحن الآن . اذ تمر بنا أيام لا نجد فيها للتنفس وقتا .. نحن .. نحن الذين حلمنا

بالعيش كالمتوحشين بعيدا عن بنى آدم !! »
من بير كورى الى شارل ادوار جيوم ، ١٥ يناير ١٩٠٤ :

« ... انهم يطلبون منا مقالات ومحاضرات ، وعندما
تمر السنون ، سنرى هؤلاء الناس أنفسهم : الذين يسألوننا
ذلك ويعطلوننا ، يدهشون ويتساءلون : لماذا لم نعمل بعد
اكتشافنا شيئا ما ! .. وانى لاحن الى اوقات أشد هدوءا ،
في بلاد آمنة ساكنة ، تمنع فيها المحاضرات ، ويضطهد
فيها الصحفيون ! .. »

من مارى الى جوزيف سكلودوفسكى ، ١٤ فبراير ١٩٠٤ :

لا نزال فى العجيج والضجيج . والناس يحولون دوننا
ودون العمل بقدر ما يستطيعون . أما الآن فقد اعتزمت ان
أكون شجاعة ، ولا أقبل أية زيارة .. ولكنهم رغم ذلك
يزعجوننا . لقد أفسدت علينا الشهرة والامجاد حياتنا !!
من مارى الى جوزيف سكلودوفسكى ، مارس ١٩٠٤ :

أبعث اليك ، يا عزيزى جوزيف ، بأرق التهاني فى عيدك
وارجو لك صحة جيدة ، ونجاحا للأسرة كلها . كما أتمنى
ألا ترهق بمثل المراسلات التى تفرقنا فى هذه الساعة ، ولا
بالفارات التى نحن ضحاياها ...

انى آسفة نوعا ما اذ رميت الرسائل التى تلقيناها ..
فقد كان فيها أغان وأناشيد وأشعار فى الراديو ، وخطابات
من المخترعين المختلفين ، ومن أرواح وأطياف ، كما كان
فيها رسائل فلسفية ! ..

وقد كتب الى بالامس أمريكى يسألنى الاذن له باستعارة
اسمى لتعميد حصان له فى حلبة سباق الخيل ! .. دع
عنك ، طبعاً ، ماهناك من مئات الطلبات لتوقيعاتنا ،
وصورنا الفوتوغرافية .. ولست أرد على أية رسالة من

هذه الرسائل اطلاقا ، ولكنى أضيع الوقت فى قراءتها
من مارى كورى الى بنت عمتها هنرييت ، ربيع ١٩٠٤

ان عيشتنا الهادئة العاملة قد تزعزعت وانقلبت ، بحيث
لا أدرى هل تعود يوما فتسترد توازنها .
ولم تكن فرنسا الا آخر بلد تحرك لتكريم ال كورى
بما ينبغى ، بعد مدالية دايفى الانجليزية ، وجائزة نوبل
السويدية ، فسمحت جامعة باريس ، آخر الامر ، لبير
كورى بكرسى الطبيعة فى السوربون ! ..

ولم تكن حرب المجد عند مدام كورى مبدءا ، ولكنها
كانت فطرة فيها .. فهى تهرب من الجماهير ، ومن
الاعجاب ، ومن الثناء ، فى اضطراب وحياء .. انها لاتحب
تبديد قواها العقلية ، والروحية ، والجسدية ، فى
استقبال المجد ، والحفاوة به ، والاقبال عليه .. فكانت
اذا ما احاط بها الناس سائلين فى عرض الطريق أو مكان
عام : « الست مدام كورى ؟ » ، بعد ماشرت الصحف
عشرات الصور لها على رغمها ، تجيب : كلا ... أتم
مخطئون ! .. ومن النكات التى تروى عنها ، أنها كانت
مدعوة ذات مساء مع زوجها ، فى سهرة بقصر الاليزيه ،
عند رئيس الجمهورية لوبيه ، فتقدمت سيدة منهاوسالتها :
- أتريدى أن أقدمك لملك اليونان ؟ ..

فاجابت مارى ببساطة وأدب :

- لست أرى فى هذا نفعا ! ..

ولم تلبث - لدهشتها ودهشة السيدة التى خاطبتها -
ان رأت أنها بازاء مدام لوبيه نفسها ، فاعتذرت ، وأسرفت
فى الاعتذار ، وسلمت أمرها لها ! ..

ووجد آل كورى الآن أسبابا جديدة للعيش
« كالمتوحشين » . فهما يهربان من المتطلعين والمتطفلين ..
فقصدا ، على الدراجتين ، القرى المنعزلة يقضيان الليل

فى فندق ريفى ، ويتخذان فى سجل الفندق اسمين زائفين .. فضلا عنهما الناس .. بيد أن صحفيا امريكيا لبقا تبع آثارهما ، حتى وصل أمام بيت صيادين كانا قد نزلا فيه .. فجريدته قد أرسلته ليحدث مدام كورى العالمة الشهيرة !!.. أين يمكن أن تكون ؟.. فيسأل بعض الناس .. يسأل تلك المرأة « الصيادة » الجالسة أمام كوخها ، حافية القدمين ، على عتبة الباب الحجرية ، تنفض الرمل عن حذاءها المطاط .. !!

فرفعت المرأة رأسها ، وحدقت بعينيها الرماديتين فى الرجل الدخيل .. فاذا هى ، عنده ، فجأة ، تشبه مئات الصور والوفها التى نشرتها الصحف لها !.. انها هى !. فظل الصحفى لحظة مصعوقا ، ثم جلس على الارض الى جنب مارى ، وأخرج نوتته !.. فلما رأت استحالة الهرب استسلمت ، وردت بجمل صغيرة على أسئلته : نعم ، بيب كورى وهى قد اكتشفا الراديو .. نعم ، انهما ماضيان فى تجاربهما ..

وفى تلك الاثناء ، كانت تضرب حذاءها الكاوتشوك على الحجر ، لتخرج آخر مافيه من حبات الرمل ، ثم تضعه فى قدميها العاريتين الجميلتين ، اللتين خدشتهما الصخور وجذوع الاشجار .. فيالها من فرصة صحفية عظيمة !. ان هذا المشهد العائلى نعمة نادرة !.. فراح الصحفى يسأل مارى عن شبابها ، وعن طرق عملها ، وعن نفسية المرأة التى تقف على البحث العلمى نفسها !..

فاذا بها قد حولت عنه وجهها المدهش .. والقت اليه جملة ، جملة واحدة ، ستكررها دائما كشعار لها ، تصور خلقها ، وكيانها ، ومواهبها ، واستعدادها .. جملة أبلغ من كتاب .. وقد وضعت بها مارى للحديث حدا : « علينا فى العلم أن نهتم بالاشياء ، لا الاشخاص » .

على مدى الأيام

اسم كورى الآن « اسم عظيم » . وقد صار الزوجان اوفر غنى بالمال ، واقل غنى بلحظات السعادة ، ولاسيما مارى التى أضاعت حركات حماسيتها ، وفقدت نزعات فرحتها ، فهى لم تكن مأخوذة تماما بالافكار العلمية التى تستغرق زوجها . وقد تأثرت حساسيتها وأعصابها بحوادث كل يوم ، وكان رد الفعل سيئا .

وكان زوجها يشكو أيضا من الروماتيزم ، يثور عليه أحيانا ، ويدعه هادئا أحيانا . وهو يفسر الداء بأنه نوع من النورستانيا ، فهو لم يعد يعمل شيئا منذ عام ، والشهرة تضطهده وتطارده ، ولا تجعل له ملجأ ولا مستقرا ، ولا تترك له وقتا لعمله ، ولا وقتا لراحته . ولم يجد الطريقة التى يدفع بها عن نفسه وفكره هؤلاء الذين ينهشون وقت العلماء والمفكرين كأنه حق مباح لهم . ولم تعد لهما لذة الاجازات السابقة ، المتعة ، المندفعة ، المجنونة ، التى كان الزوجان يقطعان فيها ، على دراجتين ، طرقا الخلاء كتلميذين . . فاستأجرت مارى قرب باريس ، فى وادى شفرينز (١) ، بيتا خلويا صغيرا تعالج

(١) هو الراى الزمردى المشهور الذى كانت تكنه صديقة مصر « مدام جوليت آدم »

فيه زوجها الذى انهكه التعب ، وتمرح حوله بنتها ايرين على دراجة صغيرة ، فى ثوب ولد ، فهي سلواهما الوحيدة .. ويحس بير كأن خطرا يهدده .. أ يخشى هذا الرجل الذى كان فى ريعان الشباب أن يموت وشيكا ؟ انه يسابق عدوا خفيا ، ويناضله . وينقل ، فى حنان ، الى امراته قلقة . يريد أن يسرعا فى بحوثهما ، وأن ينتفعا بكل لحظة من زمنهما ، وأن يطبلا المكث فى معملهما ..

وليست ماري بأسعد منه حظا ، فهي منذ عشرين سنة تدأب وتكدح وتشقى : منذ كانت بولونية صغيرة فى السادسة عشرة ، تضرب فى الريف وفى الحضر ، طلبا للخبز . وقد عاشت شبابها فى وحدة موحشة ، منحنية على كتبها وكراساتها ، فى غرفة سطح مثلجة . وعند ما جاء الحب متثاقلا ، كانت مرتبطة بالعمل ارتباطا لا انفصام له ..

ثم جمعت بين حبها العلم ، وحبها رجلا ، فحكمت على نفسها بعيش لا رحمة فيه . فبينما نرى بير قد تمتع فى شبابه الباكر بفترات كسل طويلة ، ومراهقة شائقة ، وعواطف حارة ، نرى ماري ، منذ صارت امرأة ، لم تتخل لحظة عن عبثها ، فلم تعرف راحة العيش ولا طمأنينة الوجود . فهي زوج ، وهى أم : مسرفة فى الحنان ، وهى تتمنى لو أتيحت لها أيام راحة واسترخاء .. وهذا ما يدهش بير ، وما ينكره عليها . فهو قد بهر اذ عثر على رفيقة نابغة ، يجد منها تضحية كاملة شاملة لنفسها ، كما يضحي هو نفسه ، فى سبيل ما يسميه : « أفكارهما المسيطرة » .

تطيعه ، وهى دائمة الطاعة ، ولكنها ، فى روحها وبدنها ، تحس الضنى . وتتساءل : ماذا ثبط عزمها ، وهل عقم فكرها ؟ والحقيقة بسيطة : فهذه المرأة التى كانت فى

السادسة والثلاثين ، ينادى الحيوان الأعجم فيها بحقه
في الحياة ، بعد ما طال اخماد انفاسه وكبح جماحه .
مارى في حاجة الى بعض الزمن الذى لا تكون فيه « مدام
كورى » : تنسى الراديو ، تاكل وتثام ، لا تفكر فى شيء ..
وهذا حرام عليها . ان كل يوم يحمل اليها التزامات
جديدة . وستكون سنة ١٩٠٤ مرهقة لها منهكة ، وستكون
فيها حاملا . فتطلب اجازة من مدرسة سيفر ، وتعود
مساء من العمل ، متعبة ، مثقلة ، معتمدة على ذراع بير ،
تشتري أحيانا ، احياء لذكريات فارسوفيا ، القليل من
« الكافيار » الفالى الذى يسيل لعابها من أجله ..

ويوم يحين الوضع ، تبلغ روحها التراقى ، فضلا عن
عذابها لسوء صحة زوجها ، وكأنها لم تعد تحب شيئا :
لا الحياة ، ولا العلم ، ولا الولد الذى سيولد . وجاءت
برونيا من بولونيا لحضور الولادة ، فتزعج اذ تكتشف
مارى هذه .. الجديدة ، المنكسرة ، المفلوبة على امرها ،
التي لا عهد لها بها .. تسمعها لا تنفك عن أن تردد :

— لماذا أضع مخلوقا آخر فى الدنيا ؟ .. ان الحياة
شاقة ، أشد ما تكون جدبا وجحودا .. ليس لنا أن
نفرض ويلاتها على الأبرياء ..

والوضع متعسر ، لا ينتهى . وأخيرا ، فى ديسمبر
١٩٠٤ تولد طفلة بضة متوجة بشعر أسود أيضا ، وتدعى :
ايف (١) ..

وتدخل ابتسامات الطفلة الجديدة ولعبها البهجة على
قلب أمها . فتسترد مزاج الحياة . وتقرب من أجهزة
المعمل بلذة كانت قد نسيتها . ولا تلبث أن تعود الى

(١) Eve هى صاحبة هذه القصة الخالدة ، عن أمها الخالدة ،
التي تجاهد الآن فى أمريكا ، فى سبيل حرية فرنسا ! وقد زارت
مصر فى ١٩٤٢ ، ولهما مكانة عالمية رفيعة فى الصحافة والأدب .

مدرسة المعلمات بسيفر ، ثم تثبت قدمها التي كانت قد هزتها الايام ، فتستأنف الجهاد على شوك القتاد .
وتسافر مع بير الى ستوكهلم لحضور مؤتمر نوبل ،
وليردا الدين الأدبي الذي هما مدينان به . فيتحدث العالم
الكبير ، باسمه واسم زوجه ، في ٦ يونيه ١٩٠٥ ، امام
اكاديمية علوم ستوكهلم ، عن نتائج اكتشاف الراديوم ،
وعن اثره في الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا والميتيرولوجيا
والبيولوجيا (علوم طبقات الأرض والظواهر الجوية
واسباب الحياة وأحوالها) ، وعما اضافه الراديوم الى
كنوز المعرفة ، وعن فضله على الانسانية .
وضفر المجد اكاليله . فجاءت من فرنسا - اخيرا
جدا ! - عضوية المجمع العلمى ...
من بير كورى الى جورج جوى في ٦ اكتوبر ١٩٠٥ :

(ذهبت يوم الاثنين الى المجمع ، ولكنى اتساءل : فيم
كان ذهابى اليه ؟ .. فليست تربطنى بعضو منه صلة ،
وليس لجلساته ادنى اهمية .. انى احس ان هذا الوسط
ليس وسطى)

ثم ها هو ذا كرسى الاستاذية فى السوربون يسعى اليه .
ولكنه يتساءل : واين المعمل ؟ .. فيقولون : كرسى بلا
معمل ! .. فيدهش ، ويرفض ان يغادر مركزه المتواضع
الذى يستطيع ان يجد فيه سقيفة يعمل فيها ! .. وتقوم
الدنيا وتقعده ، ويعرض الأمر على البرلمان ، فيقرر بناء
حجرتين له ، ويفتح اعتمادا لتجهيزهما .. ولكن البناء
يلتهم ثمن الآلات .. ويظل كورى حائرا ! ..

لابد من ثمانى سنوات اخرى تمضى قبلما تستطيع مارى
ان تجد مسكنا لنشاطها الاشعاعى .. فى بناء مستقل ..

بناء لن يراه بير بعينه .. لانه يكون قد ذهب .. فتظل بعده ممزقة القلب حسرة على خدينها ، خدينها الذى عاش ومات ولم يتحقق له وجود هذا المعمل : الأمنية الوحيدة لحياته ..

وكان كل ما سر بير فى هذا كله : أن عينت زوجته مساعدة له ، فأصبحت لها الى جانبه صفة رسمية :

جامعة فرنسا

« تعين مدام كورى ، الدكتور فى العلوم ، ابتداء من اول نوفمبر ١٩٠٤ ، رئيسة اشغال الطبيعة (كرسى مسبو كورى) فى كلية العلوم بجامعة باريس .

ويكون مرتب مدام كورى بهذه الصفة : الفين وأربعمائة

فرنك سنويا .

الوداع اذن أيتها السقيفة العزيزة ! .. أيتها المشرحة القديمة المهجورة ! .. يا مهد أعظم اكتشاف فى تاريخ العلم ، فى هذا العصر ! ..

وقضوا ، آباء وأبناء ، أياما سعيدة فى وادى شفرينز .. وسبقهم بير الى بيت شارع كلرمان .. ثم لا تلبث أن تتبعه مارى ، ومعها ايرين وايف ، الى باريس ، فتركهما فى البيت لجدهما ، وتلحق بير فى المعمل .. وحين تدخل تراه واقفا كالعادة أمام النافذة يمتحن جهازا .. كان ينتظرها ، فيضع معطفه وقبعته ، ويأخذ ذراع زوجه ليذهبا الى مطعم فويو Foyot ، حيث يقام العشاء التقليدى لجمعية علوم الطبيعيات . ويتحدث الى جاره فى المائدة ، هنرى بوانكاريه ، عن النظريات التى تشغله فى تلك الآونة : قياس انبثاق الراديوم ، وعن علم استحضر الأرواح ، وما فيه من حقائق وأكاذيب ، وعن تربية النبات ورايه فيها ، راجيا توجيهها نحو علم الطبيعة .

” ١٩ أبريل ١٩٠٦ “

بدأ ذلك الخميس عبوسا قمطيرا : فالمطر لا يزال ينهمر ، والجو مظلم كئيب ، فلم يستطع الزوجان برغم استفراقهما في عملهما أن ينسيا شؤبوب أبريل . ولا بد لبير من حضور غداء جمعية أساتذة كلية العلوم ، ثم الذهاب لتصحيح التجارب عند ناشره « جوتيه - فييار » والمروء بعد ذلك بالمجمع العلمى . ووراء مارى اشواط تقضيها . وبعد جهد ، فى مشاغل الصباح ، رايأ بعضهما . فبينما كانت تلبس ايرين وايف ثيابهما فى الدور الأول ناداها من الدور الارضى ، يسألها هل هى ذاهبة الى للمعمل ؟ فردت بأنها لن تجد متسعا من الوقت ، فأسرع بالخروج . . وبينما كانت مارى تتغذى مع بنتيها ، كان بير فى دار جمعيات العلماء Sociétés Savantes بشارع دانتون ، يتحدث مع زملائه ، فى مودة ولذة ، عن السوربون ، والبحوث ، والمهنة . .

وفى نحو الثانية والنصف بعد الظهر نهض باسما ، واستأذن رفاقه ، وصافح العالم الكبير بير بران ، صديقه الحميم ، وجاره فى السكن ، على وعد بالمقاء مساء . وعلى عتبة الدار ، وقف وحدى فى السماء الملبدة بالغيوم ، ثم فتح مظلته الكبيرة ، ومضى تحت المطر الهاطل نحو نهر السين . فوجد أبواب المطبعة مغلقة ، بسبب اضراب

العمال . فاتجه الى شارع دوفين Dauphine الذى
تدوى فى أرجائه أصوات الحوذية ، وصرير الترام المار على
الرصيف Quai المجاورة . فما أشد الزحام المتراكم
على هذا الطريق الشبيه بالزقاق فى باريس القديمة ! ..
فلا يكاد الرصيف الضيق يتسع للمارة العديدين فى هذه
الساعة من بعد الظهر . حاول أن يشق طريقه ، تارة على
الرصيف ، وتارة فى الشارع نفسه بخطى غير متوازنة ،
خطى الذين يستسلمون لأحلامهم ويتبعون تأملاتهم ..
ففيهم يفكر ، وهو شارد البصر ، عابس الوجه ؟ أفى تجربة
علمية تشغله ؟ أفى رسالة صديق له يقدمها الى الأكاديمية
وصورتها فى جيبه ؟ .. أم كان يفكر فى ماري ؟ ..
كان يسير منذ لحظات ، على الأسفلت ، وراء عربة
مقفلة تسير ببطء نحو الجسر الجديد Pont-Neuf . وعند
ملتقى الشارع برصيف النهر كان الضجيج يصم الآذان .
ومر قطار متجه الى الكونكورد على طول السين ، فقطعت
عربة نقل ضخمة ثقيلة ، يجرها جوادان ، طريقها ، ودخلت
شارع دوفين .. وأراد بيير ، باندفاع الشاردين ، أن يعبر
الرصيف ليصل الى الجانب الآخر . ففادر فجأة العربة
التي كانت تحمى خطاه ، وتياسر .. ولكنه فوجئ بحيوان
يخرج من فمه الدخان : أحد حصاني المركبة التي عارضت
العربة فى ذات اللحظة ، فضاق الفاصل بين المركبتين أشد
الضيق . فزع بيير ، وفى حركة طائشة ، حاول أن يلتصق
بصدر الحصان ، الذى شب فجأة وجفل .. فزلق حذاء
العالم على الأرض المبتلة .. فصاح الناس جميعا من حوله
رعبا .. فقد سقط بيير تحت حوافر الخيل الضخمة ..
وهلع المارة وصاحوا : « قف ! قف ! » فشد الحوذى
اللجام .. ولكن عبثا ، فقد مضت الخيول قدما لا تلتوى
على شيء ..

كان بير ملقى على الأرض حيا ، لم يصب بسوء . لم يصرخ ، لم يكذب يتحرك . ونجا جسمه من بين حوافر الخيل ولم يكذب يمس . . ونجا من بين عجلتي العربية الأماميتين أيضا . . كانت المعجزة محتملة الوقوع . ولكن ذلك الدولاب الهائل المحمل بستة أطنان من البضاعة ، اندفع بضعة أمتار أخرى . . فاصطدمت العجلة اليسرى بعقبة ضعيفة حطمتها في مرورها . . جبين أنسان . . رأس بشرى . . انفجرت الجمجمة . . وانبثقت مادة لزجة حمراء ، تناثرت في كل جانب ، في الوحل . . تلك كانت دماغ بير كورى ، وذلك كان مخه ! . .

حمل رجال البوليس الجسد الداقء الذى غادره الحياة في غمضة عين . واستوقفوا على التوالى عربات عديدة ، ولكن ما من حوذى تقبل في عربته جثة مفطاة بالوحل يسيل منها الدم مرت الدقائق ، وتجمع الطفيليون ، وتزاحموا . وحاصر جمهور ، يزداد دائما ، عربة النقل الواقفة ، وتعالى صيحات الغضب في وجه سائقها « لويس مانان » الذى ارتكب الفاجعة دون قصد . واخيرا جاء رجلان بلوح من خشب . وضعا عليه الميت . وبعد وقفة لا داعى لها في صيدلية حملوه الى مركز البوليس المجاور ، حيث فتحوا محفظته ، وفحصوا أوراقه . وعند ما ذاع الخبر بأن الشهيد هو « بير كورى » ، البروفسور العالم الشهير ، تضاعفت الضجة ، واضطر الشرطة الى التدخل لحماية « مانان » من سخط الجمهور ، ومن القبضات الممتدة اليه .

ومسح الدكتور دوريه الوجه باسفنجة مبللة ، وكشف عن الجرح الفاجر في الرأس ، وعد الست عشرة عظمة التى تكسرت ، والتى كانت ، منذ عشرين دقيقة ، جمجمة . . وأخبروا ، بالتليفون ، كلية العلوم . لم يلبث أن وفد

مساعد الأستاذ ، مسيو « كلرك » ، يبكى وينتحب ، في مركز البوليس المقيم بشارع دى جراندز أوجستان ، في حين كان العربجى « مانان » يزفر أيضا .. وقد انتفخ وجهه الأحمر ، وخضلته العبرات ..

وبينهما ، كان بير ، ممددا على الأرض ، وقد عصب رأسه ، وظل وجهه سليما ، مكشوفاً . لا يكثر بشيء .. وكانت عربة النقل ، وطولها خمسة أمتار ، طافحة لحافتها بالملابس العسكرية ، واقفة بالباب . ومحا المطر شيئاً فشيئاً بقع الدم التى كانت تلتطخ احدى العجلات . وكان الحصانان الضخمان الفتيان ، قد انتابهما قلق خفى لغياب صاحبهما ، فطفقا يصهلان ، خوفاً وضيق صدر ، ويضربان حجارة الأرض بحوافرهما الحديدية ، فترسل شرراً ...

أرعى الشقاء سديوله الكثيبة على بيت كورى ، وجلله بالسواد . وتوالت السيارات والمركبات على شارع كلرمان المقفر ، تبحث عنه .. ودق الباب مندوب رئيس الجمهورية ، فلما علم أن « مدام كورى لم تعد الى البيت بعد » ، ذهب دون أن يبلغ رسالته . ثم دق الجرس مرة أخرى ، ودخل الفيلا بول آبل عميد الكلية ، والبروفسور جان بران .. دهش الدكتور كورى الشيخ من هذه الزيارات الهامة ، فتقدم للقاء الرجلين ، ولاحظ وجهيهما الكالحين . وكانت مهمة بول آبل تقضى بأن يحيط مارى أولاً بالأمر ، فظل صامتا قلقا في حضرة حميها . ولكن الشك الفاجع لم يدم طويلا ، لأن الشيخ العجوز نظر مرة أخرى الى هذين الوجهين لحظة ، ثم قال ، دون أن يوجه السؤال :

— ان ولدى قد مات !

سمع تفاصيل الحادث ، فجرت الدموع في اخاديد

وجهه المتجمد ، وفاضت دموع الثورة ، ودموع الحزن ..
وفي حنان ويأس عنيفين اتهم الدكتور كورى ولده بعدم
الانتباه ، الذى كلفه حياته ، وردد هذا الكلام من قلب
كسير : « فيم كان يحلم أيضا ؟! »

الساعة السادسة . صوت مفتاح فى قفل . مارى مرحة ،
فرحة ، تزهو حياة ، على عتبة الصالون . فتلاحظ ، فى
اتجاه أصحابها نحوها ، علامات العطف المروعة .. يعيد
عليها بول آبل ماجرى . تظل مارى من الفجعة ، بلا
حراك ، كأنها لم تدرك شيئا . فهي لا تنهار فى الأذرع
العننون ، ولا تزفر ، ولا تئن ، ولا تبكى ، كأنما صارت
تمثالا . وبعد صمت طويل ، حائر ، تحركت أخيرا
شفتاها ، وسألت بصوت خافت ، راجية بجنون ضربا من
التكذيب :

— بـير .. مات ؟ .. مات ؟ .. مات كل الموت ؟!
ان هذه اللحظة ، لهى لحظة حاسمة فى تأثيرها على خلق
مارى ، ومصيرها ، ومصير اولادها .. فهي لم تتحول
من زوجة شابة سعيدة الى أرملة لا سبيل الى عزائها
فحسب .. كلا ! بل كان التحول أبسط من ذلك وأخطر
.. هذا الضجيج الداخلى الذى يمزق مارى ، هذا
الرعب ، الذى لا اسم له ، والذى غلف أفكارها التائهة ،
كان من الوبال ، بمنزلة السم الزعاف ، بحيث لا يعبر عنه
بالشكوى ، ولا تنفع فيه السلوى . فمنذ بلغت ضميرها
هاتان الكلمتان « بير مات » .. سقط على كتفيها ، لبقى
الى الأبد ، دثار الوحدة والسر والكتمان ، كأنه مسح
الرهبان .. وفى الوقت الذى أصبحت فيه مدام كورى ،
فى ١٩ ابريل ، أرملة ، صارت أيضا مخلوقة يرثى لها ،
منعزلة ، لا يرجى لها شفاء .

فأحس شهود المأساة بهذا الحائط غير المنظور ، يقوم

بينهم وبينها ، وتلاشت عبارات الأسى والتشجيع ، قبل أن تصل الى ماري التي جمدت منها العينان ، وشحب الوجه ، وجف اللسان ، حتى لم تكد تسمع ، ولم تكد تجيب .. ورفضت بايجاز تشریح الجثة الذي كان سيتم التحقيق ، وطلبت احضارها الى شازع كلرمان . ورجت صديقتها مدام بران أن تؤوى ايرين بضعة أيام . وارسلت الى فارسوفيا برقية قصيرة : « مات بير في حادث » . تم خرجت الى الحديقة الرطبة ، وجلست ، ومرفقاها على ركبتيها ، ورأسها في يديها ، ونظرتها الى الفضاء بيضاء .. امرأة صماء ، خرساء ، عمياء : تنتظر خدينها ..

وحملوا اليها المخلفات البائسة التي وجدوها في جيوب زوجها : قلم حبر ، ومفاتيح ، ومحفظة ، وساعة لا تزال تدور ، وحتى زجاجها ما زال سليما . وأخيرا ، في الساعة الثامنة مساء ، وقفت عربة اسعاف امام البيت . خفت ماري ، وصعدت اليها ، وتبينت ، في الفبش ، ذلك الوجه المتسامح ، الكريم ، الرائق ..

وأدخلت النقالة ببطء وعناء من الباب الضيق . وكان اندريه دبيرن ، الذي ذهب الى مركز البوليس ليتسلم جثة أستاذه وصديقه ، يعاون في الحمل الجنائزي . وسجوا الميت في غرفة بالدور الارضى ، وظلت ماري وحدها مع زوجها ..

فقبلت وجهه ، وجسمه الرطب ، الذي ما زال دافئا ، ويده التي كانت لا تزال تنثنى .. ثم أخذت عنوة وقسرا ، الى غرفة مجاورة ، حتى لا تحضر زينة الموت ... فأطاعت ، كأنها لا تعي ، ثم أخذت بفكرة أنها تركت هذه الدقائق تسرق منها ، وما كان لها أن تدع لانسان سواها العناية بهذا الجسد الدامي ، فعادت ، والتصقت بالجثة . وفي اليوم التالي كان وصول جاك كورى ، شقيق بير ،

من مونبلييه ، سببا في فتح حنجرتها ، وتدفق سيل دموعها
فهي اذا صارت وحدها مع الآخرين ، أحدهما حي ، والاخر
فان ، استسلمت لحزنها وأخذت تنتحب وتزفر .. ثم
نشددت وتماسكت ، وذهبت تهيم في البيت ، تسأل : هل
حموا « ايف » ؟ وهل سرحوا شغرها كالعادة ؟ وتقصد
الحديقة ، وتنادى ايرين من وراء السور ، وهي تلعب
بالمكعبات مع اولاد بران ، وتخاطبها بقولها ان (به Pé) -
يفسد اباها - قد ضرب رأسه ، فهو في حاجة الى الراحة
.. فلم تكثرث الطفلة ، وعادت الى لعبها ..

ولما مضت بضعة اسابيع ، وعجزت ماري عن الكلام عن
محنتها امام الناس ، وتاهت في بידاء الصمت ، ذلك التيه
الذي يجعلها أحيانا تصرخ من الوحشة رعبا ، فتحت
كراسة رمادية وأسرت الى الورق ، بخط مرتجف ، أفكارها
التي تخنقها . وفي هذه الصفحات المحوة بالدمع ،
المخضلة بالعبرات ، والتي لا سبيل الى نشرها ، الا بعض
فقرات منها ، تخاطب ماري ببيير ، وتناديه ، وتسأله ..
نحاول ان تسجل كل تفاصيل المأساة التي فرقت بينهما ،
لتظل تتعذب بها بقية عمرها . وهذه المذكرات المختصرة
الخاصة ، أو هي اليوميات الوحيدة التي كتبتها ماري ،
واحتفظت بها ، تصور أفجع الساعات في حياة هذه المرأة .

« بيير ، حبيبي بيير ، أنت هناك ، هاديء ، كجريح
مسكين ، يستريح في منامه ، معصوب الرأس .. وجهك
حلو رائق ، لا تزال هو أنت ، مقيدا في حلم لا تستطيع
منه فكاكا . شفتاك ، اللتان كنت اسميهما « النهمتين » ،
صارتا داكنتين ، ممتقعتين .. ولحيتك الصغيرة الرمادية !
.. وشعرك لا يكاد يرى ، لأن الجرح قد بدأ هناك ، وفوق
الجبين ، الى اليمين ، تبدو العظمة التي كسرت .. اواه !
لشد ماتألمت ، وما اكثر مادميت ، ان ملابسك غارقة في

الدماء .. يا للصدمة المروعة التى أصابت رأسك المسكين
الذى طالما عززته وربت عليه بيدي . لقد قبلت جفنيك .
جفنيك اللذين كان من عادتك اغماضهما لاستطيع تقبيلهما ،
ملقيا الى برأسك فى حنان ...

لقد وضعناك فى التابوت صباح السبت ، وأسندت
رأسك فى تلك الأثناء .. ووضعنا القبلة الأخيرة على محياك
المثلج ... ثم وضعنا بعض العشب من الحديقة ، فى
التابوت ، مع صورتى الصغيرة التى كنت تسميها :
« التلميذة الصغيرة العاقلة » ، والتى كنت تحبها ... هى
الصورة التى ستصحبك فى قبرك ، صورة تلك التى سعدت
بأن أعجبتك ، حتى لم تتردد فى أن تشاظرها حياتك ، ولم
تكن رأيتها الا بضع مرات .. وكنت كثيرا ما تقول لى :
ان هذه هى المرة الوحيدة فى حياتك التى تصرفت فيها بلا
تردد . واعتقدت بيقين مطلق أنك أحسنت عملا ..
يا حبيبى بير ! أظن أنك لم تخطئ . فقد خلقنا لنعيش
معا ، وكان اقتراننا أمرا مقضيا .

أغلق تابوتك ، ولم أعد أستطيع أن أراك . لا أقبل
أن يغطوه بخرقه بشعة سوداء . انى أغطيه بالزهور ،
وأجلس الى جانبه ..

... جاءوا يطلبونك ، صحبة حزينة ، نظرت الهم ،
ولم اخاطبهم . اننا نسير بك الى « صو » ، وراك تنزل
الى المقبرة الكبيرة العميقة . ثم موكب مروع من الخلق .
يريدون المسير بنا .. قاومناهم ، أنا وجاك ، نريد أن نرى
حتى النهاية ، فملأوا الحفرة ، ووضعوا عليها الزهور .

لقد انتهى كل شيء . بير ينام نومته الأخيرة تحت
الثرى . وهذا آخر كل شيء ، كل شيء ... «

لقد فقدت مارى رفيقها ، وفقدت الدنيا رجلا عظيما .
وكان لهذا الرحيل الشنيع ، فى المطر والوحل ، أثره فى

نفوس الناس . ووقفت الصحف ، في جميع البلدان ،
أعمدة عديدة على وصف حادث شارع دوفين المثير
للشجون . فوصلت الى شارع كلرمان برقيات العطف
والمؤاساة عليها امضاءات ملوك ووزراء وشعراء وعلماء ،
واسماء ناس غير معروفين .. وفي تلك التلال من الرسائل
والمقالات والبرقيات صيحات التأثير الصادق .
من لورد كلفن :

(فجئنا بالأخبار المروعة عن وفاة كورى . ما موعد
الجنائزة ؟ سنصل غدا صباحا . فندق ميرابو)
من مارسيلين برتللو :

(... لقد بوغتنا بالنبا المروع بغتة الصاعقة .. ما اكثر
الخدمات التى اداها الى العلم والانسانية ، وما اكثر
الخدمات التى كنا نتوقعها من هذا المستكشف العبقري .
كل هذا قد تلاشى فى لحظة ، واصبح فى عداد الذكريات)
من ج . ليبمان :

(يخيل الى اننى فقدت اخا . لم اكن ادرى اية صلات
كانت تربطنى بزوجك ، ولكننى اليوم ادرى ..
وانى لاتألم من أجلك يا سيدتى)

وفى هذه المناسبة ، كما كان فى كل المناسبات ، هربت
المرأة التى ستعرف منذ الآن باسم : « الأرملة العظيمة » ،
هربت من هجمات المجد . ولكى تتجنب احتفالا رسميا
بالجنائزة ، قدمت موعدها الى يوم السبت ٢١ ابريل .
ورفضت المواعيد ، والوفود ، والخطب ، وطلبت أن يدفن
بسر فى أبسط صورة ، فى قبر أمه ، بضاحية « صو » .
بيد أن ارستيد بريان ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف ،
اخترق الحصار ، ولحق بشهامة ، بأهل الاسرة وأعز

المقربين ، وشيع جثمان بير في صمت ، الى مقبره الاخير ،
البعيد ، في مقبرة الضاحية الصغيرة .

وكان الصحفيون المتربصون وراء القبور ، يلحظون
وجه ماري المحجب بقناع الحداد الكثيف :

« .. استندت ماري كوري الى ذراع حميها ، وتبعث
نعش زوجها الى القبر المحفور في طرف الحوش ، تظله
اشجار الكستناء . وهناك ، بقيت لحظة بلا حراك ، ناظرة
دائما نظرتها الثابتة الجامدة . ولكن عندما جىء بياقة من
الزهور الى القبر ، اندفعت ، فأخذت تقطف الزهور
واحدة بعد واحدة ، وتنثرها على النعش ..

وقد فعلت ذلك في أناة وهدوء ، وكأنها نسيت تماما
من حولها : أولئك الذين اشتد بهم التأثير ، فلم يأتوا
بحركة ولا نامة ولا همسة .

ومع ذلك لم يجدوا بدا من تنبيهها الى تقبل العزاء من
المشييعين ..

وعندئذ ، أفلتت الباقة فسقطت على الأرض ، وغادرت
المقبرة ، دون أن تقول كلمة ، ولحقت بحميها .. »

(جريدة « الجورنال » في ٢٢ أبريل ١٩٠٦)

وفي الأيام التالية ، أقيمت كلمات التأبين في ذكرى العالم
الراحل بالسوربون والجمعيات العلمية الفرنسية
والأجنبية ، التي كان بير كوري من أعضائها . وكان من
أجمل ما قيل فيه ، قول صديقه هنري بوانكاريه في
أكاديمية العلوم ، اذ وصف رسوخ علمه ، وتواضعه ،
ودمائه خلقه ، ورقة طبعه ، وتعلقه بمثل علوى ، هدفه
كل ما هو واجب وحق .

من مذكرات ماري :

« في غداة الدفن ، قلت كل شيء لصغيرتي ايزين ، وكانت
لا تزال عند اصدقائنا . فلم تفهم شيئا بادىء ذى بدء ،

وتركتنى اذهب دون ان تقول شيئاً ، ولكن الظاهر انها ،
فيما بعد ، قد بكت وطلبت رؤيتنا . وانتحبت فى البيت
طويلاً ، ثم عادت الى اصحابها الصغار ، لتنسى . ولم
تسأل عن أى تفصيل ، وكانت فى البداية مشفقة من الكلام
عن أبيها . وفتحت عينيها محدقة بقلق فى ملابسه السوداء
التي جاءونا بها . . . والآن لم يعد يلوح انها تفكر فى شيء
من ذلك .

وصل جوزيف وبرونيا . ما اطيب قلوبهما ! . . . ايرين
تلعب مع خاليها . اما « ايف » ، فقد ظلت خلال هذه
الشجون لا تدري منها شيئاً ، تجرى فى البيت وتلعب
وتضحك . . . فى حين اننى ارى بير ، بير ، مسجى على
سرير الموت .

.. وفى الأحد التالى لموتك ، يا بير ، ذهبت الى المعمل
مع شقيقك جاك ، لأول مرة . حاولت ان اقوم باتمام
تجربة كنا بدأناها معا . . فاستحال على ذلك . .

وفى الشارع ، أمشى كائن منومة تنويماً مفنطيسياً ،
لا أعى مما حولى شيئاً . اننى لن أقتل نفسى ، وليست
لدى رغبة ما فى الانتحار . . ولكن . . ألا توجد بين كل
هذه العربات واحدة تجعلنى أشاطر حبيبى مصره ؟! . . »

وكان الدكتور كورى الشيخ ، وولده جاك ، وجوزيف
سكلودوفسكى ، وبرونيا ، يلحظون فى هلع حركات تلك
المرأة المثلجة الهادئة ، المتشحة بالسواد ، تلك الآلة
الأوتوماتيكية التى استحالت اليها مارى . . ولم يكن مشهد
طفلتها يثير فيها أقل عاطفة ، فظلت متصلبة ، جامدة ،
شاردة : تلك الزوجة التى لم تلحق برجلها فى عالم
الأموات ، وقد بدت مع ذلك كأنما غادرت عالم الأحياء . .

ولكن الأحياء كانوا مشغولين بها ، قلقين على ذلك
المستقبل الذى لم تعد تفكر فيه . ان موت بير كورى

قد سبب مشاكل هامة . فماذا يكون مصير البحوث العلمية التي تركها ، ودروسه في السوربون ؟ .. وماذا يكون مصير ماري ؟ .. واذا احتفظت الجامعة بماري كوري فأية صفة تكون لها ؟ .. وفي أي معمل ؟ .. ايمكن وضع هذه المرأة النابغة تحت رئاسة أحد ؟ .. واين هو البروفسور المختص الكفاء لإدارة معمل بير كوري ؟ ولما سئلت مدام كوري عن رغباتها أجابت اجابة غامضة : بأنها لا تستطيع ان تفكر ، وليست تدري .. فأحس جاك وبرونيا وجورج جوى - اخلص اصدقاء بير - بأن عليهم ان يتولوا عن ماري اتخاذ القرارات والتوجيهات . وحمل جاك كوري وجورج جوى الى عميد الكلية يقينهما بأن ماري هي وحدها ، بين علماء الطبيعة الفرنسيين ، العالم الجدير بمتابعة أعمال بير ، وهي الاستاذ الوحيد الخلق بأن يخلفه . فلا بد من زحزجة العادات والتقاليد ، وتعيين مدام كوري استاذة في السوربون .

وفي ١٣ مايو ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم ، بالاجماع ان يحتفظ بالكرسی الذي انشئ لبير كوري ، وأن يعهد به الى ماري :

جامعة فرنسا

« مدام بير كوري ، الدكتور في العلوم ، ورئيسة اشغال بكلية العلوم بجامعة باريس ، تتولى دروس الطبيعة في الكلية المذكورة ، ويكون مرتبها بهذه الصفة عشرة آلاف فرنك سنويا ، ابتداء من أول مايو ١٩٠٦ »
وهذه أول مرة يعهد فيها الى امرأة بمركز في التعليم الفرنسي العالي .

استمعت ماري ، شاردة اللب ، الى حديث حميها ،

عن تفاصيل مهمتها الخطيرة التي وجب عليها أن تتقبلها .
فلم تجب الا بكلمة : « سأحاول » .. وصعدت الى ذاكرتها
عبارة قالها ببير فيما مضى ، عبارة هي وصية معنوية وأمر ،
يرسم لها طريقها :

« مهما يحدث - حتى لو أصبحنا جسدا بغير روح --
فلا بد من المضي في الكفاح والعمل .. »
من مذكرات ماري :

« يعرضون على أن أتولى مكانك يا بيرى : دروسك ،
وإدارة معملك . لقد قبلت . ولا أدرى أحسنت أم
أسأت ؟ . فقد طالما تمنيت لى أن أدرس فى السربون ،
وأريد على الأقل أن أبذل جهدا لاتمام أعمالك . يخيل لى
أحيانا ، أنه هكذا يتاح لى العيش ، وأحيانا يلوح لى أننى
مجنونة فى محاولتى أياه ... »
٨ مايو ١٩٠٦ :

« يا حبيبى بير ، انى افكر فيك تفكيرا لانهاية له ، يطيح منه
راسى ويضطرب عقلى ... لا أدرك أن على منذ الآن أن
أعيش وأنا لا أراك !! أن أعيش وأنا لا أبتسم لرفيق حياتى
الحبيب !!

منذ يومين والأشجار مورقة ، والحديقة غناء ... وفى
هذا الصباح راقنى فيها منظر الطفلتين .. وبدا لى أنك
كنت ستجدهما عندئذ جميلتين ، تدعونى لأرى ازدهار
الترجس والخزامى . وبالأمس فى المقبرة ، لم أستطع أن
افهم كلمتى « بير كورى » المحفورتين على الحجر .. وقد
ازعجنى جمال الخلاء ، فألقيت بخمارى على وجهى ، حتى
أرى كل شيء من خلال النسيج الأسود »
١١ مايو :

« يا بيرى . استيقظت بعد ما نمت جيدا ، نوما هادئا

نسبياً . وذلك منذ ربع ساعة فقط ، وها أنذا ، ارانى
أريد أن أعوى كرة أخرى كحيوان مفترس «
١٤ مايو :

« يا صغرى ببير ، أريد أن أخبرك بأن أشجار الجليسين
اينعت وأزهرت ، وكنت تحب هذا النوار .
وأريد أن أخبرك أيضا بأنهم قد عينونى فى كرسيك ،
وانه كان هناك بعض الحمقى الذين هناونى بذلك ! ..
أريد أن أقول لك : اننى لم أعد أحب الشمس ، ولا
الزهر ، فمنظرهما يؤلمنى ، بل أنا أوتر الايام الغائمة
القائمة ، كيوم موتك . واذا كنت لم أعرف الحققد على
الجو الصحو ، فذلك لحاجة طفلى اليه ... »
٢٢ مايو :

« أشتغل فى المعمل طول يومى ، وهذا كل ما أستطيعه ،
فانى أحس فيه أن نفسى هناك خير منها فى أى مكان سواه .
ولا أتصور شيئا يمكن أن يطيب لى شخصيا ، الا البحث
العلمى ، لو طاب .. ولكن لا ! .. انه لن يطيب لى أبدا ،
لاننى اذا وفقت فيه ، فلن أحتمل أنك لن تعلم به ... »
١. يونيه :

« كل شيء كئيب . ان مشاغل الحياة لا تترك لى حتى
التفكير بسلام فى حبيبى ببير .. »
غادر جاك كورى وجوزيف سكلودوفسكى مدينة
باريس . ولا تلبث برونيا أن تلحق بزوجها فى مصحتهما
ببولونيا .

وفى مساء أحد الايام الاخيرة التى تقضيها الاختان معا ،
سارت مارى ببولونيا الى غرفتها ، وكانت نار الحطب
تتلظى فى مدفئها رغم حرارة الصيف ، واغلقت الباب
بالمفتاح . فدهشت برونيا وساءلت محيا الارمل : كان

أشد شحوبا وأقوى امتقاعا . وأخرجت ماري ، دون أن تفوه بكلمة ، من دولاب ، ربطة ضخمة ، مغلفة بورق مشمع . ثم جلست أمام النار ، وأشارت الى شقيقتها الكبرى أن تجلس الى جانبها ، وكانت قد أعدت ، فوق المصطلى ، مقصا ضخما ، وهمست :

- برونيا .. ساعديني ! ..

ثم فكت الدوبارة على مهل ، وأزاحت الورق .. وكان اللهب يصبغ بالذهب يديها المرتعشتين .. فظهرت صرة مربوطة ربطا جيدا في ملاءة . فترددت ماري لحظة ، ثم فكت الملاءة البيضاء . فتمالكت برونيا نفسها من صرخة رعب ، فقد كانت الملاءة تحوى كتلة بشعة من ملابس ملطخة بوحل جاف ، ودم أسود .. فقد ظلت ماري منذ أيام تحفظ في جوارها الثياب التي كان يرتديها بير عندما دهمته عربة النقل في شارع دوفين .

وأخذت الأرملة المقص وبدأت تقص السترة القائمة ، وتلقى بها قطعة قطعة الى الموقد ، وتنظر اليها وهي تتقلص ، ثم تدخن ، ثم تشتعل ، ثم تتلاشى وتختفى .. بيد أنها لم تلبث أن توقفت فجأة ، وقاومت عبثا عبراتها التي امتلأت بها عيناها المتعبتان . لقد بدت في ثنايا القماش اللاصق بعضها ببعض ، مادة لزجة ، رطبة ، هي آخر بقايا مخ كانت تتولد منه ، منذ أسابيع قليلة ، افكار نبيلة ، واكتشافات عبقرية ...

حدقت ماري في هذه الآثار العفنة ، ولمستها ، وقبلتها في يأس ولهفة .. فانتزعت منها برونيا الملابس ، والمقص ، وطفقت تقص القماش ، وتلقى بقطعه الى النار .

وانتهت المهمة أخيرا ، دون أن يتفوها بكلمة . فالورق المشمع ، والملاءة ، والمنشفة التي مسحت فيها الاختان إيديهما ، ذهبت أيضا فريسة للهب . ثم قالت ماري ،

بعد لاي ، بصوت متهدج مختنق :
- ما كنت لأطبق أن يلمس الغرباء هذا ...
ثم اقتربت من برونيا :

- والآن ، قولى لى : كيف اعمل لأعيش .. انى
اشعر بأن هذا واجبى ، ولكن كيف أوديه ؟ وما العمل ؟
وانهارت فى بحر ان من الزفرات ، والفصص ،
والعبرات ، والنشيج ، والصراخ ، وتعلقت بأختها التى
أسندتها ، وحاولت أن تهدىء من ثأرتها ، ثم نزع
عنها ثيابها ، ووضعت فى الفراش هذه المخلوقة المسكينة
الخائرة القوى ..

وفى اليوم التالى ، عادت مارى : آلة أوتوماتيكية ،
مثلجة ، كما كانت منذ ١٩ أبريل ... هذه الآلة الصماء ،
ضمتها برونيا الى صدرها ، وهى تصعد الى قطار
بولونيا .. وستظل تلازمها ، أمدا طويلا ، صورة مارى
جامدة بلا حراك ، على رصيف المحطة ، مجللة بقناع
الحداد ..

واستؤنف نوع من « الحياة العادية » فى هذا
البيت الذى كان مطبوعا ، بذكرى بير ، حتى انه اذا ماذق
جرس الباب الخارجى أحيانا فى المساء ، يخيل الى مارى ،
بجنون ، مدى لحظة أو بعض لحظة ، أن الكارثة ليست
الأ حلما أو كابوسا ، وأن بير كورى لا يلبث أن يظهر ..
وعلى الوجوه ، الفتية والعجوز التى حولها ، يقرأ نوع
من الانتظار . ينتظرون منها مشروعات ، وخطة
للمستقبل . فهذه المرأة التى كانت فى الثامنة والثلاثين ،
والتي قصم الحزن ظهرها ، هى الآن كبيرة أسرة .

فاتخذت قراراتها : أن تبقى فى باريس طول الصيف ،
حتى تتردد على العمل ، وتعد الدروس التى ستبداها فى
نوفمبر . فمحاضراتها فى السوربون ينبغى أن تكون

جديرة يبير كورى ، ما دامت تلقى من فوق كرسية .
فجمعت ماري كراساتها وكتبها وراجعت المذكرات التي
تركها العالم . واستغرقت مدة أخرى في الدرس .
وفي خلال اجازة الصيف الحزينة ، كانت الطفلة ايف
في سان ريمى بوادى شفريز مع جدها ، وكانت ايرين على
شاطيء البحر مع خالتها « هيللا » ، التي جاءت لتقضى
الصيف في فرنسا ، جالبة معها من بولونيا حنانها
وحبها ..

وفي الخريف ، لم تعد ماري تحتمل البقاء في بيت
شارع كلرمان ، فراحت تبحث عن مسكن جديد . أرادت
ان تقطن ضاحية « صو » ، حيث كان بير يعيش قبل
ان تلقاه .. وحيث يثوى الآن ويستريح ...
وعندما عرضت مسألة النقل ، تقدم الدكتور كورى
الشيخ في خجل ، وربما كان لأول مرة في حياته ، من
زوجة ابنه ، وقال :

- والآن يا ماري ، اذ لم يبق بير ، لا ارى سببا
يدعوك الى السكن مع شيخ هرم . استطيع ان اذهب
فاعيش وحدى ، او مع ولدى الكبير جاك .. فقررى
ما تريدن ! ..
فتمتت ماري :

- لا . انت الذى يقرر ! فان ذهابك يسبب لى الألم .
ولكن عليك ان تختار ما يطيب لك .

وكان صوتها مضطربا من الجزع . فهل تراها ستخسر
ايضا هذا الصديق ، هذا الخل الوفى ؟ فمن الطبيعى ان
يذهب الدكتور كورى ليعيش مع جاك ، بدلا من ان يبقى
معهما هي ، هي الأجنبية ، البولونية .. ولكن لم يلبث
ان جاءها الرد الذى تتمناه :

- ان ما أوثره يا ماري هو البقاء معك دائما ..

ثم تحول مسرعا الى الحديقة حيث كانت تناديه
صيحات ايرين السعيدة ..

أرملة ، وشيخ في التاسعة والسبعين ، وصبية ،
وطفلة ، هذه هي الآن أسرة كورى .

« مدام كورى ، أرملة العالم العظيم الذى مات تلك
الميتة الفاجعة ، والتي عينت أستاذا في كرسي زوجها
بالسوربون ، ستلقى في منتصف الساعة الثانية من بعد
ظهر يوم الاثنين ٥ نوفمبر ١٩٠٦ ، درسها الأول ..

وتبسط مدام كورى في محاضرتها الافتتاحية نظرية
الأيونات في الفاز ، وتعالج موضوع « النشاط
الاشعاعى » ...

وستكون محاضرة مدام كورى في « مدرج مدرسى » ،
وهذه المدرجات تحوى نحو مائة وعشرين محلا ، سيشغل
اكثرها الطلاب . والجمهور والصحافة ، وكلاهما له بعض
الحقوق أيضا ، سيتقاسمان عشرين محلا على الأكثر ! ..
وفي هذا الظرف ، الظرف الفذ في تاريخ السوربون ، ألم
يكن يحسن تيسير اللوائح ، بحيث يوضع تحت تصرف
مدام كورى ، في محاضراتها الأولى على الأقل ، المدرج
الكبير ؟ ... »

هذه العبارات المقتبسة من صحف ذلك العهد ، تدل
على اهتمام باريس وشدة تلهفها على رؤية « الأرملة
المشهورة » تواجه الجمهور لأول مرة . فالصحفيون
والأعيان ، وجميلات النساء ، والفنانون ، حاصروا
سكرتيرية كلية العلوم متذمرين من أنه لا تعطى لهم
« تذاكر دعوة » ! .. ولم يكونوا في هذا مدفوعين برغبة
التعلم والتثقف ، فما أقل اهتمامهم بـ « نظرية الأيونات
في الفاز » .. ولم تكن آلام مارى في ذلك اليوم العصيب
الا محركا آخر لشهيتهم وفضولهم . فللحزن أيضا

محدثون ! ..

امرأة ستتكم لأول مرة في السوربون .. امرأة ..
وهي في الوقت نفسه عبقرية ، وزوجة كسيرة القلب .
أليس في هذا ما يكفي لاجتذاب رواد التمثيلية الأولى
وحفلات الافتتاح ؟ ..

وعند الظهر ، عندما كانت ماري واقفة ، خاشعة ،
أمام قبر زوجها ، في ضاحية « صو » ، تحدث بصوت
خافت ذاك الذي ستخلفه اليوم .. كانت قاعة المدرج
الصغير تفص بالحضور ، الذين ملأوا ردهات كلية العلوم
ومماشيتها ، وفاضوا حتى غطوا ساحة السوربون ! ..
وكنت ترى في القاعة : الجهلاء الى جنب فطاحل العلماء ،
وأصدقاء ماري الحميمين منشورين بين المتفرجين ..
وكانت القسمية الضيزى قسمة الطلبة « الحقيقيين » ،
الذين جاءوا يتتبعون الدرس ، ويدونون المذكرات ،
وكان عليهم الالتصاق بالمقاعد متشبثين حتى لا يزحزحوا
عنها ...

الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرون .
ضجيج الحديث يشتد ويحتد . همسات ... أسئلة
... استفهامات ... وأعناق تمتد حتى لا يفوتها شيء
من هيئة مدام كورى وهي داخلة . وكل الذين هناك
كان يشغلهم فكر واحد : ما هي العبارات الأولى التي
ينطق بها « الأستاذ » الجديد ؟ .. العبارات الأولى
للمرأة الوحيدة التي سمح بها السوربون أبدا أن تكون
بين أساتذته ؟! أتراها ستشكر الوزير ، وتثنى على
الجامعة ؟ .. أتراها ستتحدث عن بير كورى ؟ .. أجل
بلا ريب ، فان العرف جرى بأن الخلف يطرى السلف
.. ولكن السلف هنا ، زوج ، ورفيق في العمل . ياله
من مركز حرج ! .. ويالها من لحظة مثيرة ، فريدة ! ..

الساعة الواحدة والنصف . ففتح الباب الخلفى ،
وأخذت مدام كورى مكانها بين عاصفة من التصفيق .
فأحنت رأسها فى حركة قصيرة جافة تقصد بها التحية .
ثم وقفت ويدها تضغطان بقوة على المنضدة الطويلة
المحملة بالأجهزة .. وانتظرت مارى أن يكف الهاتف .
فكف دفعة واحدة ازاء هذه المرأة الشاحبة ، وحمل
تأثر مجهول ، على الصمت : جمهورا جاء يتفرج على
معرض ...

ف نظرت مارى الى ما أمامها وقالت :
- عندما نستعرض التقدم الذى بلفته الطبيعة منذ
عشر سنوات ، يدهشنا التطور الذى طرأ على أفكارنا
من جهة الكهربائية والمادة ...

لقد استأنفت مارى كورى المحاضرة بنفس الجملة
التي وقف عندها بير كورى ..

فأى شئ يمكن أن يكون مثيرا ، يقبض القلوب ، فى
تلك الكلمات الباردة : « عندما نستعرض التقدم الذى
بلفته الطبيعة .. » حتى تطفر الدموع من العيون ،
وتخضل الوجوه ؟ ..

وبذات الصوت الثابت ، المتشابه ، مضت العالمة ذلك
اليوم ، فى درسها ، حتى النهاية . فتحدثت عن نظريات
جديدة فى تيار الكهربائية ، والتحليل الذرى ، وأجسام
النشاط الاشعاعى .. وبعد ما بلفت غاية استعراضها
الجاف ، دون هواة ، انسحبت من الباب الصغير
الخلفى ، مسرعة كما دخلت ..

وعدها..

أعجبنا بمارى ، عندما كان يظاهرها رجل نابغ ، فاستطاعت ، فى وقت معا ، أن تدير منزلها وأن تشترك فى مهمة علمية عظيمة . ولم تتوقع أنها ستضطلع ، يوما ما ، بحياة أشق من هذه الحياة ، أو أنها ستقوم بجهد أعظم من هذا الجهد . ان هذه الحياة تعد ناعمة ، اذا قورنت بالحياة المقبلة التى تنتظرها ! فان مسئوليات « مدام كورى الأرملة » حقيقة بأن تروع رجلا ، قويا ، سعيدا ، جريئا .

فعليها أن تربي بنتين ، وأن تكسب حياتهما وحياتها ، وأن تحتفظ بكرسى الأستاذية احتفاظا عاليا . وعليها ، وقد حرمت من عون بير كورى الثمين ، أن تستمر فى البحوث التى بدأتها معه .. ولا بد لمساعدتها وتلاميذها أن يتلقوا منها الأمر والمشورة . وتبقى بعد هذا كله مهمة أساسية : أن تشيد معملا جديرا بأحلام بير الخائبة ، حيث يجد شباب البحوث ورواد المعرفة ، مجالا للتقدم بعلم « النشاط الاشعاعى » الجديد ...

وكان أول ما عنيت به مارى سكنا صجيا لبنتيها وحميها . فاستأجرت فيلا بضاحية « صو » ، خص منها الدكتور كورى الشيخ بجناح مستقل . واتخذت ايرين وايف من حديقتهما مسرحا وملعبا . وزادت متاعب مدام

كورى ، اذ كان عليها أن تقضى نصف ساعة فى القطار الى
معملها . فتسرع وتصل الى عربة الدرجة الثانية ، فى
هذا القطار الكريه الرائحة ، وقلمما تجد من وقتها
ما يسمح لها بالعودة للغداء فى « صو » . فأعادت صلاتها
بحوانيت اللبن Les Crémieres فى الحى اللاتينى ،
تلك التى كانت تدخلها وحيدة ، كما تدخل اليوم ،
ولكنها كانت شابة ، وكانت ممثلة بأمل بسام ، وقلب
خلى لا يبالى . . . أو كانت تكتفى وهى رائحة غادية فى
معملها بأن تقضم كسرة خبز وبعض الفاكهة . وتعود
مساء متأخرة ، فتنظم النار فى المصطفى ، بيد الفنانة
الكيميائية العارفة بسر النار والهب ، ثم تلقى بنفسها
على الكنبه ، تتنفس من ضنى نهارها . .

وكانت من التحفظ والتحرز بحيث لا تبدى حزنها ،
فلا تبكى أبدا أمام أحد ، وتأبى الشكوى أو العزاء .
ولا تفضى الى أحد بأزمات يأسها ، ولا بلياليها المعذبة
التي تملؤها الأشباح المفزعة . وكان يحدث ، فى الحين
بعد الحين ، أن تخونها قواها ، فتقع ، فى قاعة المائدة ،
مغمى عليها . . .

ولم تكن من جهة المال فى ضائقة . فهى تكسب ما يكفى
لتربية أولادها ، وإن كانت قد تواضعت فى عيشها عما
كانت عليه مع زوجها . واستعانت بمربيات بولونيات
خففن عنها بعض أعبائها . لكنها وجدت خير حليف لها
فى الدكتور كورى الشيخ ، فهو رغم فاجعته فى ابنه بير
لم يترك نفسه تذهب فى الحزن شعاعا . فهو يحتقر
الأسى الذى لا فائدة منه ، ويزدرى النحيب على القبور .
فلم يذهب قط بعد الدفن الى المقبرة . وما دام بير لم
يعد ولن يعود ، فهو يأبى أن يعذب نفسه بشبحه ! . .
وكما كان محضره ملطفا لعيش ماري ، كان أيضا فرحة

البنتين . ولولا هذا الشيخ العجوز ، ذو العينين الزرقاوين ، لخنق الحداد طفولتهما ، فضلا عن غياب أمهما عن البيت دائما ، في ذلك « العمل » الذى لا يفتأ اسمه يتكرر على سمعهما . فهذا الشيخ هو رفيق لعبهما ، وهو أستاذهما . وسيورث ايرين التوازن المعنوى ، وكرهية الحزن ، والتعلق الشديد بالواقع ، والتحمس لفكتور هيجو . وايرين عنده تشبه ولده الراحل شبها غريبا . وقد أحاطت مدام كورى هذا الشيخ الفاضل بكل عطف ومحبة ، عندما أصيب باحتقان فى الرئة ألزمه الفراش عاما كاملا ، فقضت كل أوقات فراغها الى جانب هذا المريض ، المتعنت ، النافذ الصبر ، تحاول أن تروح عنه ، حتى قضى نحبه فى ٢٥ فبراير ١٩١٠ .

وفى مقبرة « صو » التى عراها الشتاء وجمدها ، طلبت مارى من حفارى القبور ، أن يخرجوا تابوت بير كورى أولا ، ثم يضعوا تابوت والده الشيخ فى آخر القبر ، ويعيدوا تابوت زوجها ، حتى اذا ما جاء دورها وضعا تابوتها الى جانبه ، فلا يفرق بينهما أحد . ووقفت تحديق بلا خوف فى المكان الخالى المعد لها ، وهى تتأمل طويلا ! ..

وعنيت بتربية بنتيها عناية فائقة ، فسجلت فى مذكراتها ميل « ايرين » الى الأحشاء ، و « ايف » الى الموسيقى . . وكانت ترسلهما الى الهواء الطلق للسير مسافات طويلة على الأقدام ، أو الدراجة ، وتمرنهما على فلاحه الأرض ، والطهى ، والخياطة . وكانتا تقضيان اجازة الصيف مع خالتهما « هيللا » التى تجيء خصيصا من بولونيا . وسافرتا لأول مرة الى بولونيا فى ١٩٠٠ ، حيث استقبلتهما برونيا فى مصحتها ، فتعلمتا ركوب الخيل ، وصعود الجبل .

ولم تكن امهما تريد لهما حياة رياضية مندفة بلا تعقل الى البهلوانية ، ولكن حياة خشنة ، فلن تسمح لايرين أو لايف أن « تخافا من الظلام » ، أو أن تخفيا الرأس تحت الوسادة ، عندما يرعد الرعد ويبرق البرق ، أو أن تخشيا اللصوص أو الأوبئة . فقد عرفت مارى يوما ما هذه الآفات ، فجنبتها بنيتها . بل ان ذكرى حادث بدير لم تحملها على السهر عليهما فى خوف وحذر . فتركت الصغيرتين تخرجان وحدهما فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، ولا تلبثان أن تسافرا أيضا دون حاشية . وكذلك كانت ضحتهما المعنوية محل اهتمامها . حاولت أن تحفظهما من الأحلام ، والنجوى ، والحنين ، والافراط فى الحساسية . واتخذت قرارا فريدا هو : ألا تحدث اليتيمتين أبدا عن أبيهما ، فبدلا من أن تفرقهما فى جو المأساة ، حرمتها ، وحرمت نفسها معهما ، من التأثيرات النبيلة .

وكذلك لم ترد توزيع قلبيهما بين وطنين . فأرادت أن تتعلما البولونية وأن تحبا مسقط رأسها ، ولكن على أن تكونا فرنسيتين صميمتين ، فلا تتألمان عبثا لشعب مضطهد !

وكانت مرتاحة بأن صغيرتيها لن تعرفا الطفولة المتعبة ، أو المراهقة الشاقة ، أو الفتوة البائسة ، التى كانت نصيبها فى الحياة . بيد أنها لم تكن تتمنى لهما عيشا مترفا ناعما . ففى ظروف عدة ، سنحت لمارى الفرصة لتضمن لايرين وايف ثروة طائلة ، فلم تفعل . ولما أصبحت أرملة كان عليها أن تقرر : ماذا تفعل بجرام الراديو الذى حضرته هى وبيير بأيديهما ، وكان ملكا حلالا لها . وعلى الرغم من نصائح الدكتور كورى الشيخ ومن رأى عدة أعضاء بمجلس اليتيمتين العائلى ، قررت أن تهب الى

معملها هذا التراث الثمين الذى كان يساوى اكثر من مليون فرنك ذهبيا ! .. (... ر.) جنيه مصرى !)

وكان عندها انه اذا كان الفقر مضنيا ، فانه كذلك لا معنى للفنى الطائل المرهق ! .. وكان من الطبيعى السليم عندها ضرورة . ان تكسب بنتها فيما بعد عيشهما ! ..

وكان العيب الوحيد فى هذه التربية ، فى هذا البيت المفلق ، الذى لا يدخله الا ثلاثة أو أربعة من أقرب المقربين ، أنها تربية ينقصها ما جرى به العرف فى استقبال الناس من كلمات الرقة ، وإشارات اللطف ، والانحناء ، والظرف . فظلت الفتاتان تجهلان ذلك عشرة أعوام أو عشرين عاما ، الى أن ترغمهما حياة المجتمع على معرفته وقبوله ، ولو كرهتا ..

وكانت تلك المخلوقة التى تخشى على بنيتها العواطف الحنون والرقة والتفانى فى المحبة ، كانت هى نفسها للحنان والحب مثالا ، فأرادت أن تجنبهما عذابها . ولم تكن تطبق فى بيتها العقوبات المعروفة : « كالتذيب فى ركن الفرفة » ، أو « الحرمان من الحلوى » . وكذلك كان لا يعرف فيه الصياح ، لا فى الغضب ، ولا فى الفرح ، فقلما رفعت إحدى البنتين صوتها . وفى ذات يوم أذنبت إيرين ، فأرادت أمها أن تعاقبها ، فحرمته على نفسها أن تخاطبها مدى يومين . وكانت هذه الساعات أشد على الأم منها على البنت ، فكأنها كانت قد عاقبت نفسها . تهيم فى البيت الكئيب على وجهها تتألم بأكثر مما تتألم بنتها ..

وكانتا تخاطبانها : « مه شيرى .. » .. « مه الحلوة ! » .. أو « حلوتى » . وكان صوت هذه الأم الحلوة العزيزة « مه » لا يكاد يسمع .. فهى تخاطبهما فى شبه استحياء

.. لا تريد أن تخافا منها ، ولا أن تعجبا بها .. « مه »
الرقيقة هذه ، ظلت على مدى السنين ، متجنبّة تماما أن
تعرف بنتيها أنها ام أسرة كغيرها . أو أنها (أستاذ) محطّم
تحت أعباء حاجة العيش اليومية ، بل ارادتهما أيضا
على أن تظلا تجهلان أنها أندر مخلوقة على سطح الأرض ..
ولم يحدث أبدا أن حاولت ماري أن تزهو كريمتاها
بعملها ، ومجدها . وكيف يمكن أن يخطر ذلك ببالها ،
وهي ، أمام مهمتها العظمى ، ليست الا مثال التردد
والاستسلام والمذلة !؟ ..

من ماري كورى الى هانيا (بنت أختها هिला) ١٩١٣ :

(تكتبين الى أنك تتمنين لو أنك عشت منذ قرن من
الزمان ! .. فى حين أن « ايرين » تؤكد لى تفضيلها العيش
فيما يستقبل من الأزمان ، فى الأجيال القادمة ، وأظن أنه
يمكن أن يحيا الانسان ، فى العهدين ، حياة طيبة نافعة .
وما ينبغى لنا هو : ألا نفسد الحياة على أنفسنا ، وأن
نستطيع أن نقول : « لقد عملنا ما استطعنا عمله » . وهذا
كل ما يمكن أن نطالب به ، وهو أيضا الشئ الوحيد
الخلق بأن يحمل الينا بعض الهناء .

فى الربيع الماضى ، ربت بنتاى دود القز . وكنت مازلت
مريضة جدا ، فظللت مدى اسابيع ، فى حالة عجزى
الاضطرارى ، أراقب طويلا تكوين الشرائق ، باهتمام
عظيم . فهذه الديدان الشديدة الهمة ، الموفورة الذمة ،
تعمل بكل قوى ارادتها وثباتها ومواظبتها ، مما أدهشنى
حقا . وأنا ، وان كنت أقل منها استعدادا للنظام ، فانى
أيضا عملت مثلها ، ونسجت على منوالها ، فى صبر ، نحو
هدف واحد . وقد فعلت ذلك ، دون أقل معين من اليقين
بأن الحقيقة كانت هناك ، عالمة بأن الحياة برق خلب ،

ووهم قلب ، وانها لا تترك وراءها شيئاً ، وان غيرنا من
الناس يراها على الضد مما نراها تماماً . وقد فعلت ذلك
بلاشك ، لان شيئاً برغمنى عليه ، كما أن دودة القز مرغمة
على نسج خيوطها .. وهى ، هذه المسكينة ، مضطرة
الى أن تبدأ هذا النسيج حتى ولو استحالت عليها اتمامه ،
عاملة بنفس العناية وبنفس الهمة الصبور .. واذا ام
تبلغ غاية مهمتها ، ماتت الى غير بعث أو نشور ، وبغير
جزاء أو شكور ...

فهيا يا عزيزتى هانيا ، اينسج كل منا خيوطه ، دون
ان يسأل عن السبب ، أو يتساءل : ما الفاية ؟ او اين
النهاية ! ..

انتصارات ومحن

امراة شاحبة جدا ، نحيلة جدا ، بدا وجهها يتجعد شيئا ، وتحول شعرها الأشقر فجأة الى المشيب ، تدخل كل صباح ، في معمل شارع كوفييه ، الذي بنته الجامعة مؤقتا ، وتضع مريلة من التيل الثقيل ، تغطى بها ثوبها الأسود ، وتبدأ تعمل .

وكانت ماري ، في تلك الحقبة العابسة من حياتها ، لم تبين أن جمالها قد بلغ ذروة اكتماله . وقد قيل : ان الناس ، كلما تقدمت بهم السن ، تكون لهم الوجوه التي يستحقونها ! فما أصدق هذا القول وانطباقه على مدام كورى ! .. فاذا كانت الفتاة المراهقة « لطيفة » ليس غير ، واذا كانت الطالبة والزوجة الشابة على كثير من الرشاقة ، فان العالمة الناضجة المحطمة ، قد أصبحت اليوم ذات جمال فتان . ولم يكن وجهها السلافي ، الذي تضيئه حياة العقل ، في حاجة الى تلك الزخارف السطحية : كالنضارة والبهجة .. فلمحة البسالة الحزينة ، وتداعى البدن ، هما ، بعد الأربعين بقليل ، زينتها النبيلة . وهي ستبقى بهذا المظهر المثالي في عيني ايرين وايف مدى السنين الطوال ، الى اليوم الذي تبينان فيه بجزع ، أن أمهما قد أصبحت امراة عجوزا وهن العظم منها واشتعل الرأس شيئا ...

فهى (أستاذ) ، وهى (بحاثة) ، وهى (مدير

معمل) .. تعمل بالهمة التي لا تعرف الكلل . فاستمرت تدرس في « سيفر » ، وصارت بدروسها في السوربون أول أستاذ في ذلك الحين ، في العالم كله ، يلقي محاضرات في « النشاط الاشعاعى » .. تريد أن تساوى أولئك الأساتذة الذين بهروا مانيا سكلودوفسكى يوما ما ! ..

ثم نشرت دروسها في عام ١٩١٠ في مجلد ضخيم باسم *Traité de Radio-activité* مكون من ٩٧١ صفحة ، في هذا العلم الحديث الذى اكتشف بالأمس القريب على يديها وعلى يدى زوجها ! .. ولم تضع فى أوله صورتها بل صورة بير كورى .. وكانت قبل ذلك بعامين اثنين قد حلت بهذه الصورة نفسها مجلدا آخر من ستمائة صفحة *Les Oeuvres de Pierre Curée* عن أعمال بير كورى ، رتبته وصححتها وقدمتها بقلمها .

وزاد عدد طلابها ومريديها . ووقف المحسن الأمريكى الشهير أندرو كارنيجى *Andrew Carnegie* فى ١٩٠٧ الأموال على بعثات سنوية عديدة عند مارى كورى ، انضمت الى المساعدين الذين تدفع لهم الجامعة مرتبات ، بخلاف المتطوعين للبحث . وكان بين هؤلاء « موريس كورى » ابن جاك كورى ، قد بدأ فى العمل مهنته العلمية ، وجعلت مارى تحنو عليه حنو الأم وتفخر به .

وراحت مارى كورى ، يساعدها معاون زوجها الأمين وصديقه الوفى أندريه دبيرن ، تعمل على استخلاص عنصر الراديو من أملاحه ، واستفراده نقيا ، وتعين وزنه الذرى . فتلقى فى هذا السبيل عقبات كأداء ، حتى توفى الى تحضير أول نموذج دولى للراديو . وكانت تلك الأنبوبة الخفيفة من الزجاج ، التى ختمتها مارى بيديها ، وهى جد متأثرة ، تحوى ٢١ مليجراما من كلورور الراديو النقى .. وستكون نموذجا لما يوزع فيما بعد من أنابيب

في القارات الخمس ، وسيودع ايداعا رسميا مشهودا في « دار الموازين والمقاييس والمكايل » في سيفر ، قرب باريس .

وانهالت على الأرملة العظيمة شهادات الدكتوراه الشرفية ، وعضوية الأكاديميات الأجنبية من كل ناحية ، حتى ملأت أدراج بيت « صو » . وليس لدى فرنسا لتكريم العظماء في حياتهم الا شيئان : اللجيون دونور ، والأكاديمية . فمنحت ماري الوسام في ١٩١٠ ، ولكنها فعلت ما فعله زوجها قبلها . . . رفضت قبوله .

ولكن لماذا لم تعارض أيضا أولئك المتحمسين الذين جاءوا بعد شهور قليلة ، يحملونها على التقدم الى أكاديمية العلوم ؟! أتراها نسيت ما تعرض له زوجها من فشل مذل ؟! أم تراها جهلت ما يحيط بها وبعملها من غيرة وحسد ؟!

اجل ! انها تجهل . وايضا ، وكأنها ما زالت بولونية ساذجة ، خشيت أن تتهم بالادعاء أو الجحود ، لرفضها ما خيل اليها أن البلاد التي اختارتها وطنا ثانيا لها ، تقدمه اليها علامة تقدير عظيم لعلمها ! . .

وكان منافسها على العضوية ادوار برانلي Branly وهو عالم كبير وكاثوليكي مشهور . فقامت المعركة بين انصار كوري وانصار برانلي : بين أحرار الفكر وبين الاكليركيين . كيف يباح المجمع العلمي للنساء ؟ . . لقد بدأ النضال في كل الساحات ! وشاهدت ماري ، في عجز وقصور ، هذه المعارك التي لم تحسب لها حسابا . وكان اكبر العلماء في صفها يدعون لها ، وعلى رأسهم : هنري بوانكاريه ، والدكتور رو Roux ، واميل بكار Picard ، والبروفسور ليبمان ، وبوتى Bouty ، وداربو Darboux ولكن المعسكر الثاني أعد دفاعا قويا : « ان النساء

لا يمكن أن يدخلن المجمع العلمى ! » . وهذه الصيحة قد صدرت من أماجا Amagat ، الذى كان منذ ثماني سنوات المنافس الموفق لبير كورى ! .. وتطوع آخرون بالأكاذيب ، فذهبوا يؤكدون للكاثوليك أن مارى يهودية ! .. ولعلمهم راحوا يؤكدون لأحرار الفكر أنها كاثوليكية ! .. وفى ٢٣ يناير ١٩١١ ، يوم الانتخاب ، أعلن الرئيس بصوت عال مخاطبا الحجاب ، وهو يفتح الجلسة :
- « دعوا كل الناس يدخلوا ، إلا النساء » ! ..

وكادت مارى تفوز بعضوية المجمع العلمى الفرنسى لولا فرق صوت واحد ! ..

ولكن يلوح فى تاريخ أسرة كورى أن العالم الخارجى الأجنبى هو الذى يصلح دائما أخطاء فرنسا . ففى شهر ديسمبر من هذه السنة نفسها ، ١٩١١ ، أرادت أكاديمية علوم ستوكهلم أن تعترف بالأعمال المجيدة التى أدتها مدام كورى منذ موت زوجها ، فمنحتها جائزة نوبل الكبرى فى الكيمياء .. ولم يحدث أبدا أن شرف قدر رجل أو امرأة بالحصول على مثل هذه الجائزة العالمية السنية مرتين ، كما شرفت مارى كورى ! ..

فطلبت مارى من برونيا أن تجيء لتقوم واياها بالرحلة الى السويد ، كما استصحبت بنتها ايرين .. فحضرت الصغيرة الجلسة المشهورة .. وبعد أربع وعشرين سنة ، فى نفس هذه القاعة ، ستحصل هذه الطفلة الصغيرة على هذه الجائزة نفسها ! ..

اكتشاف عظيم ، وشهرة عالمية ، وجائزتا نوبل ، واحدة فى « الطبيعة » وواحدة فى « الكيمياء » ، قد حملت الى مارى اعجاب كثيرين ، كما حملت بالطبع حقد كثيرين غيرهم ..

فتهجم عليها اهل السوء يريدون أن يودوا بها . واندفعت

حملة شعواء في باريس ضد هذه المرأة ، التي كانت في الرابعة والأربعين ، ضعيفة ، واهنة ، حطمها الجهاد المتواصل .

مارى هذه التي اتخذت مهنة رجل ، قد اتخذت من الرجال أصدقاءها وموضع أسرارها . فلاعجب أن كان لها أثرها في هؤلاء الأصدقاء ، ولكنه أثر المعرفة والعبقرية ، لا أثر الحب والهوى والتغزل في ضوء القمر ! .. فهي عالمة منقطعة لعلمها ، زاهدة ، متحفظة . وهي ، منذ بضع سنين ، في حالة صحية تدعو الى الرثاء لها ، والخوف عليها ، فهي اذن آخر من يفسد بين الرجال وزوجاتهم ، أو يلوث الاسم الذي تفخر به وتعتز على جميع الأسماء .

كان هناك صحفيون تجرأوا على سب امرأة عزلاء من مثل أسلحتهم ، ولقد جاء أحدهم بعد ذلك يسألها الصفح والففران ، نادما باكيا ! .. ولكن الجريمة ارتكبت ! ارتكبت حتى لم يعد بين ماري وبين الانتحار والجنون الا خطوة .. وهي لم تخطها لأن مرضا خطيرا جدا أقعدها ..

وكان شر هؤلاء القوم تتجلى خساسته في ظروف كالتى رفضت فيها الأكاديمية الفرنسية ترشيح مدام كورى . فقد عيروها بأصلها ووصفوها بالروسية ، وأخرى بالألمانية ، أو اليهودية ، أو البولونية ، فهي « الأجنبية » التى جاءت باريس « مربية أولاد » لتحصل على مكانة رفيعة تستغلها ! ..

أما عند ما تتجلى مواهب مدام كورى للعيان ، ويقبل العلم فيشرفها ويكرمها ، في بلاد أخرى ، نرى في تلك الصحف نفسها ، وفوق توقيعات نفس المحررين ، وصفها بقولهم : « سفيرة فرنسا » ، « اتقى ممثلة لعبقرية جنسنا » ، « انها مجدنا القومى » ! .. وبنفس الظلم يوارون أصلها البولونى ، الذى هو من مفاخرها ! ...

وهكذا وجدت مدام كورى سببا آخر لكراهية الشهرة،
وداعيا يدعوها لمقت المجد .

وجاء فى مايو ١٩١٢ وفد من اساتذة بولونيا وعلمائها ،
يلتمس من مارى العودة الى بلادها ، بناء على رغبة أمتها
كلها ، لتتولى فى فارسوفيا مشروع معمل عظيم « للنشاط
الاشعاعى » ، وتكون مديرتة . وكانت تلك فرصة لها
لترك فرنسا ، وتتخلص من الأدياء الذين أساءوا اليها ،
وتولى ظهرها للظلم والقسوة والاثام الزور . ولكنها
لا تصفى أبدا لنصائح الموحدة والنقمة ، بل تبحث بكل
أمانة عن واجبها ، أين يكون ؟ فترى ان تأسيس المعمل
الذى طالما تمناه زوجها قد تقرر ، فهربها من باريس معناه
القضاء على هذا الأمل ، واخماد هذا الحلم العظيم .

ولكنها تسافر الى بلادها ، فتحضر وضع الحجر
الأساسى لمعهد الراديوم فى فارسوفيا ، الذى يعد من أعظم
معاهد العالم ، وتحتفل بها أمتها كقديسة ، وتسافر من
هناك الى انجلترا وبلجيكا . . فتقبل من جامعة برمنجهام
درجة الدكتوراه الفخرية Docteur honoris causa نسمع
اليها كيف تصف الحلقة لبنتها ايرين :

« لقد ألبسونى ثوبا جميلا أحمر له ثنايا خضر ، كزملائى
العلماء الذين نالوا الدكتوراه . . وسمع كل منا خطبة
صغيرة تعدد أعمالنا ، ثم أعلننا العميد ، واحدا بعد واحد،
بحصولنا على الاجازة .

وعندئذ أخذنا مكاننا من المنصة ، ثم قمنا ، فسرنا فى
موكب من جميع اساتذة هذه الجامعة ودكاترتها ، فى مثل
أزيائنا . . وكان ذلك مسليا للنفوس . . وكان على أن اتعهد
هلنا بالمحافظة على قوانين جامعة برمنجهام وتقاليدها ! »

فتحمست ايرين الصبية ، وكتبت الى أمها :
« يا حبيبتي! . . انى أتعجل رؤيتك فى الثوب الجميل الاحمر

ذى الثنايا الخضر.. لشد ما تكونين فيه فاتنة ! .. ولكن هل احتفظت بهذا الثوب الجميل ، أو أنهم اعاروك اياه مؤقتا أثناء الحفلة ؟! »

وفي فرنسا .. تلاشت الزوابع وتنوسيت ، واصبحت العالمة الكبيرة في ذروة المجد . ومضى الآن عامان على المهندس « نينو Nénot » وهو يبنى لها « معهد الراديوم » ، على الأرض المخصصة له في الشارع الذى أطلق عليه اسم « بير كورى » فى الحى اللاتينى .

ولم يحدث هذا من تلقاء نفسه . فان الدكتور « رو » مدير معهد باستور اراد أن يؤسس لمارى كورى معملا ، ففارت الجامعة ، وتمسك السوربون بها .. وتم الاتفاق بين الدكتور « رو » والعميد ليار Llard على دفع ٤٠٠.٠٠٠ فرنك ذهباً من كل من الجامعة ، ومعهد باستور لتأسيس معهد الراديوم الذى يتكون من بناءين : أحدهما معمل للنشاط الاشعاعى تحت ادارة مارى كورى ، والثانى معمل للبحوث البيولوجية تحت رئاسة عالم وطبيب عظيم هو البروفسور كلود ريجو Claude Regaud ، فينظم دراسات عن السرطان ويعالج المرضى به . وهذان المعهدان التوأمان يعملان متعاونين للتقدم بعلم الراديوم .

وبينما كان بناؤها العزيز يرتفع ، اذ جاءها النبأ بأن مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء ، تبنى هى ايضا قاعات جديدة ومدرجات للمحاضرات .. وأن السقيفة المشهورة - معمل بير ومارى القديم - لا تلبث ان تسقط تحت معاول الهدم .. فأسرعت الى شارع لومون لتودع السقيفة الوداع الاخير . كانت لا تزال كما هى ، والسبورة السوداء مازالت عليها بضعة سطور بخط بير كورى . حملتها بعناية وتقديس .. وكان الباب عندئذ سيفتح ، ويمر منه شخص طويل ، معروف ، محبوب .. « بير !! »

وغرست بيديها الاشجار في حديقة المعهد ، لتنمو وتكبر
عند افتتاحه . وكان الزجاجون يفتنون ويصفرون ، وهم
يركبون الزجاج في جميع ادوار البناء . . وكانت تقرأ منذ
الان على باب مدخله ، هذه الكلمات ، منقوشة في الحجر :
« معهد الراديووم - بافيون كورى »

وعلى الحيطان المتينة ، سجلت ماري كلمات باستور
الخالدة :

« اذا كانت الفتوحات النافعة للانسانية تمس شفاف
قلبك ، واذا كنت تقف مبهورا امام التلغراف الكهربائى ،
والتصوير الشمسى على النحاس ، والبنج ، وغيرها من
الاكتشافات الرائعة : اذا كنت غيورا على النصيب الذى
تستطيع بلادك أن تدل به على ازدهار هذه العجائب ،
فرجائى اليك اذن أن تهتم بهذه المساكن القدسية ، التى
يطلق عليها اسم « المعامل » . واطلب أن تضاعف وأن
تزخرف . . فهى معابد المستقبل ، وهى الفنى والخير . .
انه فيها حيث يكبر وينمو كيان الانسانية ، ثم يقوى
ويسمو . . انه فيها حيث تتعلم الانسانية القراءة فى أعمال
الطبيعة ، التى هى أعمال التقدم العالمى والانسجام ، فى
حين أن أعمال الانسانية نفسها ليست غالبا ، الا أعمال
وحشية وتعصب وهدم وتخريب . . . »

وفى شهر يونيه الساطع ، تم بناء « معبد المستقبل »
بشارع بيير كورى . . ولم يعد ينتظر غير الراديووم والباحثين
العاملين ، ومديرته . . .

بيد أن شهر يوليه هذا ، كان من عام ١٩١٤ .

الحرب

استأجرت ماري لفصل الصيف فيلا بمقاطعة بريتانى Bretagne ، وكانت ستلحق يوم ٣ اغسطس بايرين وايف اللتين سافرتا قبلها مع مربية وطاهية . فقد كان من عاداتها البقاء في باريس ، حتى تنتهى السنة الدراسية ، فى الشقة الجديدة على رصفة بتون Quai de Béthune ، تقضى فى العمل نهارها ، وتعود فى ساعة متأخرة فتجد البوابة قد عنت بالشقة ، كيفما كان من ماري الى ابنتيها ، فى اول اغسطس ١٩١٤ :

عزيزتى ايرين ! عزيزتى ايف ! الظاهر ان الامور تسوء :
فنحن نتوقع تعبئة الجيش من لحظة الى اخرى . ولا ادرى هل أستطيع السفر او لا ؟ لا تخافا ولا تحزنا ، فاذا لم تنشب الحرب جئكما يوم الاثنين . والا بقيت هنا ، واستدعيتكما عندما يكون ذلك فى الامكان . وسنجهده ، انا وانت يا ايرين ، فى ان نخدم البلاد

٢ اغسطس :

يابنتى العزيزتين ! بدأت التعبئة ، ودخل الالمان فرنسا دون اعلان حرب ، فلا يسهل علينا الاتصال خلال بضعة ايام ..

باريس هادئة ، متجلدة ، رغم احزان الفراق . .

« يا عزيزتى ايرين ! وانا ايضا أريد احضارك هنا ، ولكن هذا مستحيل الى حين . فصبر جميل . يجتاز الالمان البلجيك بحد السلاح ، فلم تقبل بلجيكا الصغيرة الباسلة ان تدعهم يمرون دون دفاع عن نفسها . . الفرنسيون جميعا يؤمنون بالنتيجة ، وان كانوا يعتقدون ان الصراع شديد . بولونيا محتلة بالالمان . فماذا يبقى منها بعد مرورهم ؟ . لا علم لى بشيء عن اسرتى » . احاط بمارى فراغ غير مألوف ، فان زملاءها وكل العاملين حولها قد لحقوا بفرقهم . ولم يبق الى جانبها غير الميكانيكى ، لويس راجو ، الذى رفض تجنيده لضعف فى القلب ، وخادم قصيرة القامة ، طول قبضة اليد !

ونسيت البولونية أن فرنسا ليست الا وطنها المختار ، فلم تفكر الام فى السعى الى أطفالها . والمخلوقة المريضة ، الواهنة ، قد احتقرت آلامها وأوجاعها ، كما ان العاملة قد عطلت أشغالها وبحوثها . ولم يعد يشغلها غير فكر واحد : ان تخدم وطنها الثانى . وفى هذا الظرف العصيب برزت مرة أخرى مواهبها وابتكاراتها .

هى لا تبحث عن الحلول السهلة ، فتفلق معملها لتصبح مثل كثيرات من الفرنسيات الباسلات : ممرضة ذات نقاب أبيض . . كلا . لقد بحثت من فورها حتى وجدت نقصا فى الخدمة الطبية لا يشغل بال أولياء الامور ، فى حين أنه بدا لها فاجعا : فان المستشفيات ، سواء ماكان منها فى الميدان او فى المؤخرة ، محرومة تقريبا من أجهزة الاشعة « السينية » ! . .

ومن المعروف ان اكتشاف رونتجن فى ١٨٩٥ لاشعة x هذه قد قدم للجراحة عونا كبيرا ، اذ كشف عن « داخل » جسم الانسان ، ومكن الجراح من أن يرى ويصور العظام

والاعضاء . وفى عام ١٩١٤ لم يكن فى فرنسا غير عدد محدود من أجهزة رونتجن يستخدمها أطباء الأشعة ، ولم تزود الخدمة الطبية العسكرية بهذا الجهاز إلا بعض المراكز الكبرى ، التى اعتبرت جديرة بهذا الترف ..!

وكيف يكون « ترفا » هذا الجهاز السحري الذى يمكن بفضل اكتشاف رصاصة البندقية أو شظية القنبلة فى الجرح ، ويمكن به أيضا تحديد موضعها وعزلها ؟!

فأدركت مارى ، ببصيرتها العلمية النافذة ، الحاجة الماسة الى استخدام الأشعة السينية ، وتأسيس مراكز للكشف بها على وجه العجلة .. وفى بضع ساعات أحضرت الاجهزة الموجودة فى معامل الجامعة ، بما فيها جهازها ، وقامت بجولة عند صناعتها ، وجمعت كل ما يمكن جمعه من قطع الاجهزة ، لتوزيعها على مستشفيات منطقة باريس . واختير المتطوعون لإدارة أجهزة الأشعة هذه من بين الاساتذة ، والمهندسين ، والعلماء .

ولكن كيف السبيل الى نجدة الجرحى الذين يتوافدون افواجا بصورة فظيعة ، فى عربات الاسعاف المجردة حتى من « الأبريزة » التى يمكن فيها تركيب الجهاز ؟ ..

وجدت مدام كورى حلا : فقد أسست على نفقة الاتحاد النسائى الفرنسى أول « عربة أشعة » ، وكانت سيارة عادية ، فزودتها بجهاز رونتجن ، ودينامو يعمل بإدارة محرك السيارة ، ويزود الجهاز بالتيار اللازم . وكان هذا المركز المتحرك الكامل يدور من مستشفى الى مستشفى منذ أغسطس ١٩١٤ . وقد كفل وحده الكشف عن الجرحى الذين أرسلوا الى باريس خلال معركة المارن الكبرى ..!

وكان تقدم الالمان السريع قد جعل مارى ، ازاء ضميرها فى موقف حرج . فهل تلحق بابنتيها فى اقليم « بريتانى » ،

او تبقى في باريس ؟ .. واذا هدد الغزاة العاصمة ، فهل
تتبع الخدمة الطبية في تفهقرها ؟
استعرضت بهدوء هذه الاحتمالات ، وقررت البقاء في
باريس مهما يحدث . فهذه المرأة العنيدة ، الشديدة المراس
لا تحب الهرب . ان من يشعر بالخوف يخدم أعداءه .

من ماري الى ايرين ، ٢٨ أغسطس ١٩١٤ :

بدانا نواجه احتمال حصار باريس ، فاذا حدث ذلك
تقطعت بنا الاسباب ، فعليك اذن ان تتحملى بشجاعة ، لان
رغباتنا الذاتية ليست شيئا مذكورا الى جنب النضال
العظيم الدائر الرحى منذ الان . وعليك ان تحسى
بمسئوليتك ازاء أختك ، وان تسهرى عليها ، اذا قدر
علينا الافتراق طويلا .

٢٩ أغسطس :

يا عزيزتى ايرين : لا شيء يدل على ان المواصلات ستقطع
بيننا حتما ، ولكنى حرصت على أن أقول لك ان علينا
الاستعداد لكافة الاحتمالات . فان باريس قريبة من الحدود
بحيث لا يبعد على الالمان الدنو منها ، وهو مالا يحول
بيننا وبين الرجاء فى انتصار فرنسا النهائى .. وعلى
ذلك : فلا بد من شجاعة وثقة ! فكرى فى دورك : دور
الاخت الكبيرة ، وقد آن لك أن تحملى ذلك على محمل الجد
٣١ أغسطس :

وصلتنى الآن رسالتك الرقيقة المؤرخة يوم السبت ،
ووجدت شوقا شديدا الى معانقتك ، حتى كدت ابكى ..
ليست الامور على مايرام . نفوسنا قلقة حزينة ، وقلوبنا
واجفة . ونحن فى حاجة الى شجاعة عظيمة . ورجائى
الا تخوننا او تعوزنا الشجاعة . وعلينا ان نثق بأنه بعد

الايام العصبية سيصفو الجو ويطيب الزمان . وانى بهذا
الامل أضمكما الى صدرى ، يا ابنتى المحبوبتين .

واذا كانت مارى تستعرض العيش باطمئنان ، فى باريس
المحاصرة ، المهدة والمدافع ، المستهدفة للقنابل ، أو التى
قد يفزوها عدوها ويقتحم أبوابها ، فان هناك كنزا تريد
أن تحميه من الغزاة : هو جرام الراديو الذى يملكه معملها
وهى لا تجرؤ على أن تعهد الى أى رسول بهذا الكنز
التمين ، فتقرر نقله بنفسها الى بوردو .

وهاهى ذى ، فى القطار الطافح بالشخصيات البارزة
وموظفى الحكومة ، مزودة بصندوق ثقيل من حديد ، يضم
الانابيب الزجاجية الدقيقة التى تحوى جرام الراديو . .
فوجدت ، بمعجزة ، طرف كنية ، ووضعت أمامها الطرد
الحديدى . . وأعارت الاحاديث المتشائمة ، التى تضج
بها مركبة القطار ، اذنا صماء ، ونظرت من النافذة الى
الريف الضاحى . . ولكن هناك أيضا كل شىء يحدثها عن
الهزيمة . . فعلى الطريق العام ، الذى يمتد الى جنب خط
سكة الحديد ، يجرى موكب لا ينقطع ، ولا آخر له ، من
السيارات الهاربة نحو الغرب . .

وقد اجتاح الفرنسيون مدينة بوردو . فلم يعد ثمة اثر
للحمالين ، أو سيارات الاجرة ، أو غرف الفنادق . فظلت
مارى ، والليل يدخل ، واقفة فى ساحة المحطة ، بجانب
حملها الباهظ ، لا تجد القوة على حمله . والناس يدفعونها
دون أن يخرجوها عن طبعها ، فتسلت بموقفها . . أتراها
ستنتظر حتى الغد ، واقفة ، حارسة هذه الخزانة ، التى
تساوى مليوناً من الفرنكات ؟ كلا ! فقد عرفها موظف
باحدى الوزارات ، رافقها فى السفر ، وانبرى لنجدها .
وحصل لها منقلدها على غرفة فى شقة خاصة ، ووضع
جرام الراديو فى مأمن . فأودعت مارى ، فى الصباح ،

كنزها المتعب ، في خزانة بنك ، وتخلصت منه . وقصدت طريق باريس .

ولم يلفت ذهابها الى بورديو أحدا ، أما عودتها الى العاصمة فأثارت التعليقات .. فازدحمت حلقة من الناس حول هذه العجيبة : « ألسنت اللى راجعه هناك » ! .. فحافظت « ألسنت » على اخفاء شخصيتها ، ولكنها تكلمت على غير عاداتها ، وهدأت من مشاعر القلق ، مؤكدة ان باريس « ستقاوم » ، وليس على سكانها من خطر . وكان القطار الذى يحمل الجنود ، و « مدنيا واحدا » ... يسير فى بطء لا يصدق ، ويقف مرات ، فى وسط الحقول ، مدى ساعات .. وتقبلت ماري من جندى كسرة خبز كبيرة فهي منذ غادرت أمس معملها ، لم تجد وقتا لتناول الطعام وكادت تموت جوعا .

باريس ، الصامتة ، المهددة ، لاحت لها ، فى ضوء سبتمبر البهيج ، أجمل وأعلى منها فى أى وقت مضى . كيف يمكن التفریط فى هذه الحلية الثمينة ؟ .. ولكن سرعان ما طرقت أذنيها الاخبار التى عصفت بها الشوارع : لقد كسر هجوم الالمان ، وبدأت معركة المارن ! من ماري الى ايرين ، ٦ سبتمبر ١٩١٤ :

مسرح الحرب يتغير الآن : فالظاهر ان العدو يبعد عن باريس . ونحن جميعا يحدونا الامل ، مؤمنون بالفوز النهائى مرئى الفتى فرنان شافانس على مسائل الطبيعة . فاذا كنت لا تستطيعين العمل لاجل فرنسا فى الوقت الحاضر ، فاعملى لاجل مستقبلها . وسيذهب كثير من الناس ، لسوء الطالع ، بغير رجعة ، من جراء هذه الحرب ، ولا بد من شغل اماكنهم والحلول محلهم . فأتقنى دراسة الرياضيات والطبيعات ما استطعت ...

لقد نجت باريس !.. فاستردت ماري بنتيها ، اللتين كانتا تحتجان بشدة على هذا النفي . وعادت ايف الى كلية « دى سفنييه » ، والتحقّت ايرين بمدرسة الممرضات لتحصل على الدبلوم ، دون أن تنقطع مع ذلك عن ممارسة الاشعة ، والتردد على السوربون ...

وكان كل ما تنبأت به مدام كوري : أن الحرب ستطول وتكون مجزرة . فلا بد من عمل العمليات للجرحى ، حيث هم ، وانه ينبغي للجراحين والاختصاصيين في الاشعة أن يعملوا في عربات الاسعاف بجهة القتال ، حيث تستدعى سيارات الاشعة فتؤدي خدمات لا تقدر . وكانوا يطلقون على تلك السيارات : « كوري الصغيرة » . ولبت نداء ماري سيدات كريمات تبرعن بسياراتهن الفخمة ، كالمركيزة دى جاناي ، de Ganay ، والبرنسس مورا Murat .. فصار تحت تصرفها عشرون سيارة ، واحتفظت لعملها شخصيا بأقلها قيمة : سيارة عتيقة اشبه بسيارات النقل ! وأسست مائتي قاعة ثابتة للاشعة ، وزاد ما أنقذته من الارواح ، وما رحمته من الاجساد ، ومن خلصتهم من الالم والعذاب ، على المليون ...

وفي الأشهر الاولى من الحرب استشارت ايرين في مسألة خطيرة ، قالت لايتها :

— ان الحكومة تطلب من رعاياها الذهب ، ولاتلبث أن تطرح سندات القرض ، وسأعطى القليل الذي أملكه من الذهب ، وسأضيف عليه المدايات العلمية التي لا فائدة لي منها . وهناك شيء آخر ، فاني ، كسلا منى ، قد تركت في ستوكهلم قيمة جائزة نوبل « للمرة الثانية » — وهي أعظم ما أملك — كورونات سويدية . فأريد أن أجيء بها وأوظفها في سندات الحرب ، فالدولة بحاجة الى ذلك ولكنني لا أبني على ذلك قصورا من الاوهام ، فان ضياع

هذا المال محتمل ، ان لم يكن مؤكدا . ولذلك لا أريد ان ارتكب مثل هذه « الحماسة » بغير موافقتك ...

وتحولت الكورونات السويدية الى فرنكات فرنسية ، وتحولت الفرنكات الى « اشتراكات وطنية » ، و « تبرعات اختيارية » ، و « مساهمات دفاعية » ! .. و .. وظلت تبخر شيئا فشيئا ، كما توقعت ماري .. وسلمت مدام كوري ماتملكه من قطع الذهب الى بنك فرنسا ، فتقبلها الموظف ، ولكنه رفض ، بأباء واستنكار ، ان يرسل المداليات العلمية لتصهر في سبائك ! ..

وكانت مهمتها الجديدة تجعلها على اتصال بمختلف الناس ، فكان بعض الجراحين الذين يعرفون مزايا أشعة x ، يعاملونها كزميل كبير لهم ، والبعض الآخر من المبتدئين يتشككون الى ان يعلموا ..

وكانت النساء الانيكات ، المنتسبات الى « الطبقة الراقية » ، واللواتي يطلق عليهن : « ملائكة المستشفيات الحارسات » .. ينظرن بعين الازدراء الى هذه المخلوقة المتواضعة في لبسها ، والتي تهمل ذكر اسمها ، فيعاملنها أحيانا كتابعة لهن ! .. وكانت ماري تتسلى بهذا الاحتقار ! .. ولكنها ، عندما كان يضايقها أحيانا غرور هؤلاء النسوة كانت تنقى روحها ، وتسرى عن نفسها ، بتذكرها ممرضة وجنديا يعملان في هدوء معها بمستشفى « هوجستاد » ، أويديان : اليزابيث والبير : هما ملكا البلجيك ! ..

وكانت مدام كوري أحن ماتكون على الجرحى . ترى رعب الفلاحين والعمال وجزعهم من أجهزة أشعة رونتجن ، وتساؤلهم : هل الكشف بها سيوجعهم ! ؟ .. فتطمئنهم : « سوف ترون ، انه كالتصوير الفوتوغرافي » . وكانت تبدي رقة وصبرا مدهشين . وكانت تبدي للحياة البشرية ، احتراماً مقدسا لا حد له . وستظل ذكرى ألوف الاجساد

التي راتها ممزقة ، وذكرى الزفرات والعبرات والالين ،
تلقى ظلا كثيبا على حياتها زمنا مديدا ..
وقد فاجأتها طلقات مدافع الهدنة وهي في معملها ،
بمعهد الراديو ، فخفت هي ومساعدتها مارت كلاين
Marthe Klein ، تبحثان في متساجر الحى
عن رايات فرنسية ، فلم تجدا لها اثرا ، فألصقوا على زجاج
النوافذ ورقا من ثلاثة ألوان . وكانت ماري ترتجف متوترة
الاعصاب من الفرح ، ولا تكاد تستقر في مكان . وتخرج
مع الآنسة كلاين في « سيارة الأشعة » القديمة ، التي
حطمتها أربع سنوات ، في مجاهدة ومغامرة ، وتسيران
بها على غير هدى ، في الشوارع . ولما وصلتا ميدان
الكونكورد ، حالت الجماهير دون تقدم السيارة ، وتعلق
بعضهم بجانبها ، واستقر آخرون على سطحها ! ..

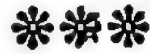


كان هذا النصر لماري : بمنزلة انتصارين . فان بولونيا
تنهض من اطلالها ، وبعد قرن ونصف قرن في استعباد ،
تسترد استقلالها . فها هو ذا « حلمها القومى » قد تحقق !
حلمها الذى كادت تضحي لأجله ، منذ سنوات ، بمواهبها
واستعدادها ، بل كادت تضحي أيضا بحب بير كورى ! ..

من ماري الى جوزيف سكلودوفسكى - ديسمبر ١٩٢٠ :

هكذا ، نحن الذين ولدنا في العبودية ، وكنا من المهد في
الاغلال ، قد رأينا بعث وطننا الذى كان حلمنا .. وما كنا
لنؤمل أن نعيش ، نحن أنفسنا ، الى أن نشهد هذه
اللحظة .. بل خيل إلينا أنها قد لا تتاح الا لاولادنا ..
وها هي ذى ! .. حقا ، ان بلادنا دفعت ثمننا غاليا في هذا
الهناء ، ولا يزال أمامها ماتدفعه .. ولكن ، أيمكن أن
تقاس سحب الموقف الحاضر ، بالمرارة والقنوط اللذين كانا

سيخمدان أنفاسنا ، لو ان بولونيا ظلت ، بعد الحرب ،
مقيدة ، ونهباً مقسماً ؟ .. اننى مثلك ، أومن بالمستقبل



وهذا الامل ، وهذه الاحلام ، تعزى مارى كورى عن
مشاغلها الخاصة . فالحرب قد أخلت بعملها العلمى ،
والحرب قد أبلت صحتها ، والحرب قد خربتها ، فالنقود
التي سلمتها للبلاد قد ذابت كما يذوب الثلج تحت حرارة
الشمس . وعندما تستعرض حالتها المادية تشعر بالقلق
والانزعاج . فهي قد جاوزت الخمسين ، وتكاد تكون فقيرة ولكي
تعيش ، وتعمل ابنتيها ، لم يعد لها غير مرتبتها كأستاذ :
اثني عشر ألف فرنك في السنة . فهل تمكنها قواها من
متابعة التدريس ، وتكفل لها ادارة معملها خلال السنين
التي مازالت تفرقها عن سن التقاعد والمعاش ؟.



وكافأت الدولة كثرات من النساء بالاوسمة والنياشين
... أما هي ، فبالرغم من خدماتها خلال الحرب : تلك
الخدمات التي لا نظير لها في تاريخ الدفاع الوطنى ، فلم
يفكر احد في أن يعلق صليبا صغيرا من صلبان الجنود ،
على ثوبها ! ..

السلام

استرد العالم هدوءه . وكانت ماري ، وهي المرأة المثالية مفتونة طبعاً بمبادئ ويلسون ، مؤمنة بعصبة الأمم . وكانت تحلم بمعاهدة تمحو القوائيل والاحقاد حقاً . وكانت تقول أحياناً : « أما أن يباد الألمان حتى آخر رجل فيهم ، وهو مالا أدعو إليه ، وأما أن يعطوا صلحاً يستطيعون احتماله ... »

وهي ، مع قيامها بدور عظيم في الكفاح الجلل ، لم تصبح داعية حرب وكرب وتعصب . إنها العالمة ، التقية ، النقية ، الطاهرة العلم . . لذلك لا نلبث أن نعود فنجدها ، في ١٩١٩ ، على رأس معهدها ومعملها .

ومكنتها الحياة المطمئنة المنظمة من الاهتمام بمستقبل إيرين وايف : اللتين أصبحتا فتاتين قويتين ، وأصبحتا في مثل طولها . أما الكبرى ، وهي طالبة ، في الحادية والعشرين هادئة ، متزنة اتزاناً رائعاً ، فلم تتردد أبداً ، لحظة واحدة في الحكم على استعدادها . تريد أن تكون عالمة بالطبيعة ، وتريد ، على وجه الدقة والتحديد ، أن تدرس الراديو فسارت إيرين كوري ، ببساطة وسجية جذيرتين بالاعجاب في الطريق الذي سلكه قبلها أبواها : بير وماري كوري ، لا تتساءل عما إذا كانت مهمتها ستكون مثل مهمة أمها

روعة، أو دونها.. ولا تشعر بأنها مضطهدة، مثقلة بحمل اسم عظيم...

فحبها الخالص للعلم ، ومواهبها ، كلاهما يوحى اليها مطمعا واحدا : أن تعمل ، مدى الحياة ، في هذا العمل الذي راته يبنى حجرا حجرا ، والذي ستصبح فيه ، في سنة ١٩١٨ ، ذات صفة رسمية : «prépateur délégué»

واحترمت ماري في كريمتها الثانية « ايف » قلقها وتقلبها . فهي من الحكمة والتجربة بحيث لا تفرض على بنتيها سلطتها ، أو توجههما على رغمهما وجهتها ، واثقة من انهما ستشقان طريقهما في مفاوز الحياة ، دون تدخلها. وكانت تتمنى أن لو أصبحت ايف طبيبة تدرس تطبيق العلاج بالراديوم . ومع ذلك لم تفرض عليها هذا الاتجاه . وأيدت ، بتعاون وثيق ، كل مشروعات بنتها ونزواتها . وسرها أن رأتها تدرس الموسيقى ، وتركت لها اختيار أساتذتها ، وطرق عملها .. وتفدق ماري الحرية على مخلوقة تعذبها الشكوك ، وتتنازعها الحيرة ، مخلوقة كانت في حاجة الى أن تطيع توجيهها حازما . وكيف تثبين هذه الام غلطتها ، وهي التي دفعتها عبقرية فطرية لا تخيب نحو مصيرها ، رغم العقبات الهائلة التي اعترضت طريقها ؟

ان حنانها سيسهر حتى النهاية على ابنتيها اللتين وضعتهما للعالم ، أشد ماتكونان اختلافا ، دون أن تبدى أبدا تفضيلا لأحدهما على الأخرى . ستجد إيرين وايف فيها ، في كل ظروف حياتهما ، أما تحمى ، وترعى ، وحليفة متحمسة كريمة . وعندما يجيء دور إيرين ، فيما بعد ، ويصبح لها أولاد ، ستحيط ماري هاتين الذريتين بعنايتها وبعائتها ، ومحبتها .

من مارى الى ايرين ، وفردريك جوليو كورى (١) ١٩٢٨

أبعث اليكما بأطيب تمنياتى لسنة جديدة سعيدة ، اى سنة طيبة فى الصحة ، طيبة فى الروح المعنوية ، طيبة فى العمل والدأب . سنة تجدان لذة العيش خلال كل يوم منها ، دون أن تنتظرا الايام حتى تمر وتمضى لتجدا أنها كانت لذيدة ، ودون أن تدعا كل أمل الى لذات الايام القادمة . وكلما تقدمت بالانسان السن زاد شعوره بأن معرفة التمتع بالحاضر هى هبة قيمة ، ونعمة صافية . . انى أفكر فى صغيرتك « هيلين » ، واكون التمنيات لهنائها . ما أشد ما تؤثر رؤية تطور هذه المخلوقة الصغيرة التى تتوقع كل شىء منك بثقة لاحد لها ، والتى تعتقد بالتأكد أنك تستطيعين الحيلولة بينها وبين كل ألم ! وستعرف ، يوما ما ، أن سلطانك لا يمتد الى هذا الحد ، وان كان هذا ما يطمناه المرء لاولاده . غير انه ، مدين على الاقل ببذل كل جهد ليمنحهم صحة جيدة ، وطفولة هادئة وادعة ، ليحظى طويلا بثقتهم ما استطاع . .

من مارى الى ابنتيها ، فى ٣ سبتمبر ١٩١٩ :

... كثيرا ما أفكر فى سنة العمل التى تفتح ابوابها امامنا . وكذلك. أفكر فى كل واحدة منكما . الحق أنكما لى بمثابة غنى طائل ، وأرجو أن تحتفظ لى الحياة ببضع سنين طيبة نعيشها معا .

(١) فردريك جوليو هو زوج « ايرين كورى » . وقد اضاف اسم كورى الى اسمه ، تخليدا لذلك الاسم المشرق العظيم فى تاريخ الطبعة الحديثة . لان بير كما رابنا لم يعقب ولدا ذكرا . وقد قام فردريك وزوجته ببحوث باهرة فى النشاط الاشعاعى الصناعى العجيب الذى يقلقه الراديو ، كاشفا عنها لأول مرة فى يناير ١٩٣٤ ، فبهر بها العلماء ، وعدوها فتحا جديدا فى فيافى العلوم ، ونالا عليها جائزة نوبل فى ١٩٣٥

أمريكا

في صباح يوم من أيام شهر مايو ١٩٢٠ أدخلت سيدة الى قاعة الانتظار بمعهد الراديو ، وكانت تدعى مسز وليام براون ميلوني Mrs. W.B. Meloney ، وكانت تتولى تحرير مجلة كبيرة في نيويورك . وسألت السيدة الخادم التي فتحت لها الباب ، برجفة ، مشفقة من أن تكون مدام كورى قد نسيت الموعد الذى حددته لها !..

هى تنتظر هذا الموعد منذ سنوات ، لان حياة مدام كورى وعملها كانا يبهرانها . ولما كانت هذه المرأة المثالية الامريكية هى فى الوقت نفسه ، صحفية كبيرة ، فقد بذلت جهودا مضنية للتقرب من معبودتها . واوصلت اليها على يد عالم طبيعى من أصدقائها رسالة قالت لها فيها : انها تتمنى ، منذ عشرين عاما ، أن لو حدثتها بضع دقائق !.. وفى اليوم التالى ، استقبلتها مارى فى معملها ، فكتبت مسز ميلوني هذا الوصف :

« .. فتح الباب ، ورأيتها داخلة : امرأة شاحبة حية ، ذات وجه حزين ، مارأيت فى حياتى وجها أشد منه حزنا .. وكان عليها ثوب قطنى أسود !.. وكان محياها الساحر الضبور ، الحنون ، يعبر عن ذلك الدهول والشروود الذى خص به البحاث . فشعرت فجأة ، بأننى متطفلة على جوها وأغلة فى وقتها !.. »

وزاد خجلى على خجل مدام كورى . فمئذ اكثر من
عشرين عاما وانا صحفية محترفة ، صناعتى السؤال ،
لكننى مع ذلك لم اجد سؤالا اوجهه الى هذه المرأة العزلاء،
المرتدية ثوبا من قطن اسود ! . . . فحاولت ان ابين لها ان
الامريكيات مهتمات بعملها العظيم ، وحاولت ان اعتذر
لها عن تطفلى على وقتها الثمين . ولكى تسرى عنى مدام
كورى بدأت الكلام عن امريكا . فقالت :

— ان امريكا تملك نحو خمسين جراما من الراديوم .
اربعة فى بلتيمور ، وستة فى دنفر ، وسبعة فى نيويورك . . .
ومضت تعدد ، مسمية مكان كل ذرة . فسألتها :

— وفى فرنسا؟ . . .

— معملى يملك اكثر قليلا من جرام واحد !
— اليس عندك الا جرام من الراديوم ؟!
— انا ؟ . . . انا ليس عندى شىء مطلقا ! . . . فهذا الجرام
ملك معملى .

فاشرت الى حقوق الاكتشاف ، والفوائد التى كانت
تجنيها مدام كورى من ورائها فتجعل منها اغنى النساء ،
فقالت بهدوء :

— لا يجوز ان يفنى الراديوم احدا . هو عنصر ، فهو
ملك لكل الناس .

فاندفعت فى سؤالها :

— واذا كان لك ان تختارى من هذا العالم بأسره
شيئا ، فما يكون هذا الشىء ؟

وكان سؤالا غبيا . . . ولكنه كان سؤالا مقدورا . . .
ففى هذا الأسبوع عرفت ان سعر الجرام من
الراديوم فى السوق التجارية . . . ١٠٠.٠٠٠ مائة ألف دولار،
كما عرفت ان معمل مدام كورى ، ولو أنه بناء جديد ،
لا يملك وسائل العمل الكافية ، وان الراديوم الموجود به

موقوف على علاج المرضى ... »

فحدث ، ولا حرج ، عن دهشة هذه الامريكية المثقفة . فهي قد زارت معامل الولايات المتحدة الفخمة ، مثل معامل اديسون التي تشبه قصرا فخما ، وليس معهد الراديوم هذا بجانبها ، وان كان جديدا ، الا بناء متواضعا ، بائسا ، على سق الابنية الجامعية الفرنسية . وكانت مسز ميلونى تعرف ايضا مصانع بتسبرج التي يحضرون فيها املاح الراديوم ، بكميات هائلة ، يتصاعد دخان اسود من مداخنها الى اعلى الجو ، وتجرى بينها صفوف طويلة من العربات الحديدية المحملة بالمواد الخام ، التي يستخرج منها العنصر الثمين .

وها هي دى الآن فى باريس ، فى مكتب تافه الأثاث ، وجهها لوجه مع المرأة التي اكتشفت الراديوم ! .. فسألتها :

— ماذا تَمنين ؟

وتجيبها مدام كورى فى رقة :

— انى فى حاجة الى جرام من الراديوم حتى اتابع بحوثى ، ولكنى لا استطيع شراءه . فالراديوم غال جدا على ! .. فوضعت مسز ميلونى تصميم مشروع مدهش : تريد ان يقدم بنات وطنها جرام الراديوم الى مدام كورى . فما عادت الى نيويورك حتى الفت لجنة من اعضائها فطاحل العالم الجديد ، ووجهت نداء الحملة الوطنية الخاصة باعتماد راديوم مارى كورى Marie Curie Radium Fund . وقبل مضى عام على زيارتها « للمرأة ذات الثوب القطنى الاسود » ، كتبت الى مدام كورى : « وجد المال ! .. الراديوم بين يديك ! »

قدمت نساء امريكا هذا العون الكريم ، وفى مقابله ،

سألنها بلطف : « لماذا لا تحضرين لرؤيتنا ؟ .. اننا نريد التعرف بك » .

فترددت ماري ، انها دائما تتجنب الزحام . وهي خائفة . فكيف تتهجم على زيارة أمريكا هذه ، اولى بلاد العالم ظمأ الى الاعلان ؟! ..
وحاولت مسز ميلوني ان تزيل اعتراضاتها واحدا بعد واحد :

- تقولين انك لا تريدان الافتراق عن ابنتيك ؟ ..
اننا ندعو معك كريمتيك . وستكون برامج الاستقبالات معقولة ، محدودة . فتعالى ! .. لتقومى برحلة جميلة ، ويقدم اليك رئيس الولايات المتحدة شخصا جرام الراديوم فى البيت الأبيض .

تأثرت مدام كورى ، وتغلبت على مخاوفها ، وقبلت ، وهى فى الرابعة والخمسين من عمرها ، ولأول مرة فى حياتها ، التزامات رحلة طويلة رسمية .

وكانت فتاتها أشد ما تكونان افتتاناً بهذه المفامرة ، فأعدتا العدة لها . واضطرت ايف أمها الى شراء ثوب أو ثوبين ، وأقنعتها بأن تترك فى باريس ثيابها الخلقة المحبوبة البالية ! .. وخجلت فرنسا من التكريم الكبير الذى ينتظر العالمة الفذة فى الجانب الآخر من المحيط ، فمنحتها وسام اللجيون دونور ، فرفضته ماري كورى للمرة الثانية ! .. وطلبت بعد ذلك منحه لمسز ميلوني . وظلت معتزلة فى « شقتها » الفخمة ، افخم شقة بالباخرة « أوليمبيك » . تقلقها ، ولا تمرضها ، تلك الأغوار العميقة من أوقيانوس خضم ، وتؤنسها مسز ميلوني الدمثة ، المتفانية ، الرقيقة الحاشية .
نيويورك ! .. رشيقة ، جريئة ، فاتنة ، ظهرت فى

فباب جو جميل .. وجاءت مسز ميلونى تنذر مارى بأن الصحفيين ، والمصورين الفوتوغرافيين ، ومصورى السينما ، فى انتظارها . وكان جمهور لا نهاية له ، مكدسا على رصيف الميناء ، يترقب وصول العاملة . وكان المتطلعون يذرعون الأرض روحة وجيئة منذ خمس ساعات ، قبل أن يلمحوا تلك التى نوهت الصحف بمقدمها ، وأشادت ، بأضخم حروف فى صدرها ، بالضيعة القادمة ، مطلقة عليها « المنعمة على الجنس الانسانى » . وكانت هناك فرق مجندة من المرشحات والتلميذات ، ووفد من ثلاثمائة امرأة يلوحن بالورود الحمراء والبيضاء ، يمثلن الجاليات البولونية فى الولايات المتحدة . وكانت الألوان البهيجة للرايات الأمريكية ، والفرنسية ، والبولونية ، تخفق فوق ألوف الأكتاف المتزاحمة ، والأعناق المشرتبة ، والوجوه المتطلعة ..

وأجلسوا مارى على سطح الباخرة « أوليمبيك » الأعلى ، فى مقعد كبير ، ورفعوا عنها قبعتها ، وأخذوا منها حقيبة يدها . وضج المصورون بأوامرهم ونواهيهم : « انظرى هنا ، مدام كورى ! .. اديرى رأسك الى اليمين ! . ارفعى رأسك ! .. انظرى هنا ! .. سن هنا ! .. الى هنا ! .. » ، بأصوات تغطى على الدوى المتواصل لأربعين آلة فوتوغرافية وسينمائية ، مصفوفة فى نصف دائرة ، مسددة تهدد وجهها المندهش العليل ..

لقد كانت مجهودات مدام كورى القاطعة فى سبيل الاعتكاف فى الظل ، قد وفقت جزئيا فى فرنسا . اذ نجحت فى اقناع مواطنيها وأهلها ، بأن العالم الكبير ليس معناه : أن يكون شخصية بارزة .. ولكن ما ان وصلت الى نيويورك حتى سقط القناع ، وظهرت

الحقيقة . فاكشفت ايرين وايف يفتة ما تمثله للكون
تلك المرأة المنزوية التى عاشتا دائما فى ظلها ..
ان الشعوب اللاتينية تعزو الى الأمريكان العبقرية
العملية ، وتحفظ لنفسها ، فى غرور فريد ، باحتكار
المثل الأعلى والحساسية . وها نحن أولاء قد رأينا كيف
تكون المثالية العليا فى أمريكا عند قدوم مارى ، فانهم لم
يقدسوا فيها عبقريتها واكتشافها وحدهما ، وانما
قدسوا أيضا احتقارها الكسب المادى ، وتفانيها فى
الحياة الذهنية ، وتذوقها الخدمة العامة .

وأغرقت شقة مسز ميلونى بالزهور التى جاء بها
صاحب بيتان كان قد شفاه الراديو من سرطان ،
فظل يربى بشغف ، منذ شهرين ، ورودا نادرة الوجود ،
لا مثيل لجمالها ، ليقدمها الى مارى ! ..

وعقد مجلس حربى قرر برنامج الرحلة . فكل المدن ،
وكل الجامعات الأمريكية ، تدعو مدام كورى ، وقد
انهالت عليها المداليات ، والألقاب الشرفية ، والدكتوراه
الفخرية بالعشرات ..

وكانت مسز ميلونى تزعم ان مدام كورى قد احضرت
معها ثوبها الجامعى ، ولم تعرف أن مدام كورى ، وهى
الأستاذ الوحيد من جنسها النسوى ، قد تركت للرجال
فرحة هذه الزينة ! ..

استدعوا خياطا على عجل ليفصل ثوبا جامعيًا فخما
فضفاضا من الحرير والقטיפه ، ومارى نافذة الصبر
تضيق بأكمامه الواسعة ، وتضجر من ثقله ، وتشكو من
لمس الحرير الذى يضايق أصابعها المسكينة التى براها
الراديو وأتلفها ..

صبايا فى ثياب بيضاء على طول الطرق المشمسة ،

آلاف الصبايا يجرين على العشب الاخضر للقاء سيارة
مدام كورى .. فتيات يلوحن بالرايات والازهار ، يهتفن
بالحياة ، ويرتلن الأناشيد .. تلك هى الرؤية الفاتنة
التي كانت للأيام الأولى ، المخصصة للكليات النسوية :
سميث ، فاسار ، براين مور ، مونت هوليوك .. وياها
من فكرة طيبة كريمة ، لايناس مارى كورى ، بمزجها أول
وصولها بهذه الشبيبة المتحمسة ، بهؤلاء التلميذات ،
مثلها ! ..

ومرت مندوبات هذه الكليات نفسها ، بعد أسبوع من
ذلك ، فى قاعة كارنيجى بنيويورك ، بمناسبة المظاهرة
الهائلة التى أقامتها جمعية النساء الجامعيات .
فانحنين أمام مارى وقدمن إليها تارة زنبقة فرنسا وتارة
وردة « أمريكان بيوتى » .. فى حضرة النخبة المختارة من
الأساتذة الأمريكان ، وسفيرى فرنسا وبولونيا ،
و « اينياس بادرفسكى » الموسيقار العالمى ، الذى جاء
يصفق لرفيقة الايام الحالية ، وهى التى كانت تستمع
اليه على البيانو فى شقة برونيا بشارع المانيا ، فى حى
المذبح ... وذهبت مرة فعمرت صالته الخالية مع
المعمرين (١) ! ... وتقبلت مدام كورى القبا ، وجوائز ،
ومداليات ، وتقبلت اكراما فائقا ، هو : « حرية مدينة
نيويورك » .

وفى حفلات الغداة وبعد الغداة ، حيث اجتمع ثلاثة
وسبعون وخمسائة من ممثلى الجمعيات العلمية

(١) نشرت « الاهرام » الغراء فى ١٥ يناير ١٩٤٣ برقية لمراسلها
الخاص بنيويورك تقول : « بعد المستر بادرفسكى فى طليعة عازفى
البيانو فى هذا القرن ، واكتسب من عزفه أكثر مما اكتسب أى عازف
آخر ، ونشرت مجلة « فاريتى » للمرح والسينما والراديو : ان
مجموع ما اكتسبه بادرفسكى (١٢٥٠.٠٠٠) مليوناً ومائتين وخمسين
الف جنيه استرليني ! .. »

الامريكية فى « ولدورف استوريا » لتكريم مارى ، كانت هذه تترنح من التعب . وبين هذه الجماهير القوية ، المتحمسة ، المتراسة ، الصاخبة ، وبين امرأة واهنة غادرت حياة الدير منذ قليل ، كان العراك غير متكافئ . . . لقد داخت مارى من الضجة والهتافات ، والنظرات التى لا عداد لها ، الموجهة اليها ، وداخت كذلك من العنف الذى كان يتدافع به الجمهور ، ويدفعها ، لكى يقطع عليها الطريق ويشاهدها ! . . . فكانت تخشى ان تهرس فى احدى هذه الدوامات المروعة . وما لبثت امرأة متهوسة ان سحقت يدها وهى تصافحها Shake hand بعنف شديد ، فاضطرت العالمة الى ان تقضى بقية رحلتها ويدها المهشمة مربوطة ، مشدودة الى عنقها : جريحة المجد ! . . .



وها هو ذا اليوم العظيم : « تحية العبقريّة » . . . حفل مشهود فى البيت الأبيض يكرم امرأة مشهورة « - ٢٠ مايو ١٩٢١ ، فى واشنطن ، قدم الرئيس هاردنج الى مدام كورى جرام الراديو فى القاعة الشرقية ، التى ازدحم فيها الدبلوماسيون ، وكبار الموظفين ، ورجال القضاء ، والجيش ، والبحرية ، وممثلو الجامعة . الساعة الرابعة . فتح الباب على مصراعيه لدخول الموكب : مسز هاردنج على ذراع مسيو جوسران ، سفير فرنسا . ثم مدام كورى على ذراع الرئيس هاردنج . ثم مسز ميلونى وايرين وايف كورى ، وسيدات « لجنة مارى كورى » .

وبدأت الخطب ، وكان آخرها خطاب رئيس الولايات المتحدة ، فيتوجه فى مودة الى « المخلوقة النبيلة » الى الزوجة الوفية ، الى الام الحنون ، التى أدت كل فروض

المرأة ، رغم عملها الساحق » . ويقدم الى ماري لفافة من البرشمان مربوطة بشريط مثلث الألوان ، ويعلق في عنقها قلادة من الحرير المتموج ، يتدلى منها مفتاح من الذهب الخالص : مفتاح خزانة جرام الراديو (١) ! .. واصفوا في خشوع لكلمات الاعتراف بالجميل التي نطقت بها ماري . ثم في لجة من الفرح ، مر المدعوون في الفرفة الزرقاء امام العاملة ، وكانت جالسة على كرسى ، تبسم ، في صمت لأولئك الذين يتقدمون نحوها واحدا بعد واحد . وكانت كريماتها تصافحان المدعوين نيابة عنها ..

وظهرت الصفحات الاولى من الصحف ، تعلن بحروف ضخمة : « مكتشفة الراديو تتلقى من اصدقائها

(١) في خريف سنة ١٩٢٠ ذهب الى ولاية كولورادو الامريكية جيش من العمال ، وقصدوا الى منطقة قاحلة في جنوبها ، لينقبوا فيها عن تير معين ، كانوا قد بحثوا في مختلف الولايات الامريكية ، عن هذا التير النفيس ، ولم يظفروا به ، لذلك اضطر زعيمهم الى الاكتفاء بنوع من الرمل ، يكثر في صحارى كولورادو القاحلة ، يدعى « كارتويت » . فاخذ رجاله ، وكانوا اكثر من ثلاثمائة ، يشتغلون ليل نهار في جمع اطنان منه ، ثم نقلوها في صحارى لا تخرقها طرق ما ، مسافة ١٨ ميلا الى اقرب مكان فيه ماء ، حيث عنوا بتشيد معمل خاص لغسل هذا الرمل وتنقيته . هنا عولجت خمسمائة طن منه معالجة كيميائية حتى بقى منها مائة طن فقط . وما بقى سحق حتى صار مسحوقا دقيقا ، ثم وضع في اكياس نقلت بسكة الحديد الى بلدة تدعى بلاسرفل . ثم شحنت الاكياس في مركبات خاصة مسافة ٢٥٠٠ ميل الى بلدة تدعى كانونزبرج ، بولاية بنسلفانيا في الشمال الشرقى المتوسط من الولايات المتحدة الامريكية . وفي كانونزبرج عهد الى مائتى رجل في تحويل هذه الاطنان من المسحوق الناعم الى بضع مئات من الارطال فقط ، مستعملين مقادير كبيرة من الماء في غسل المسحوق ، ثم معالجته بمواد كيميائية واهماض ، لاستخراج كنز ثمين منه . لم يضيع الرجال ذرة واحدة منه ، على رغم تعدد عمليات الغلى والتنصيف والتبلر . وانقضت اشهر ، فاذا بالباقي من ٥٠٠ طن ، من رمل كولورادو ، هو مقدار يسير جدا ، ارسل الى معامل البحث في شركة بنسبرج الكيميائية بحراسة حرس

الأمريكان كنزا لا يقدر بمال . وما كان يكون أشد دهشة الصحفيين لو علموا بأن ماري كورى ، عندما قرأت عشية الحفلة وثيقة الهبة ، رفضت بندا يقول بأن الهبة لها :

— لابد من تغيير هذا البند . فالراديوم الذى تقدمه لى أمريكا انما يجب أن يكون دائما ملكا للعلم ، لا استخدمه ماعشت الا فى الشئون العلمية ، وذلك لأنى اذا مت ، فان الراديوم بهذا البند الواجب تغييره ، ينتقل الى ابنتى .. وهذا مستحيل . فانى أريد أن أهبة الى معملى . فاستدعوا لنا محاميا ! .

فاستمهلتها مسز ميلونى ، وهى مبفوتة شيئا ما ، لتأجيل هذه الشكليات للأسبوع القادم . فقالت ماري :
— لا الاسبوع القادم ، ولا غدا ، بل هذا المساء . فان

خاص . هنا فى المعامل الكيميائية اجريت العمليات الاخيرة فى استخراج بضع بلورات من ملح معين . فلما تم استخراجها ، كانت سنة كاملة قد انقضت على جمع الرمل من صحارى كولورادو ، وانفق عشرون ألف جنيه ، فكانت تلك البلورات اثمن مادة معروفة على سطح الارض ، اثمن من الذهب مائة ألف ضعف !.. ثم وضعت هذه المادة فى انابيب صغيرة من الرصاص ، والانابيب حفظت فى صندوق فولاذى كثيف الجدران ، مبطن بالواح كثيفة من الرصاص ، ثم وضع الصندوق الفولاذى فى صندوق آخر من خشب المغنة المصقول ، وهذا حفظ فى خزانة متينة ، انتظارا لقدم زائر كريم من فرنسا ... وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ وقف رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، فى ردهة الاستقبال فى البيت الابيض ، يحف به سفير فرنسا ، ووزير بولوتيا المفوض ، وأعضاء وزارته ، ورجال القضاء ، واكبر المشتغلين بالعلم . ووقفت امامه سيدة نحيفة البنية ، ودیمة المنظر ، مرتدية ثوبا اسود . ثم خاطبها الرئيس فقال : « كان من حظك أنك قمت بخدمة خالدة الانسانية . واقد عهد الى أن أقدم لك هذا القدر الضئيل من الراديوم . فنحن مدينون لك بمعرفتنا له ، وملكنا اياه . لذلك نرفعه اليك واثقين أنه ، وهو فى حيازتك ، لابد من أن يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم ، وتخفيف آلام الناس .. »
تلك السيدة كانت مدام كورى . « أساطين العلم الحديث »

وثيقة الهبة ستصبح نافذة ، وقد أموت في بضع ساعات ! ..

فبحثوا حتى وجدوا بصعوبة ، في تلك الساعة المتأخرة ، أحد رجال القانون . ووضعوا البند الاضافى الذى ارادته مارى . فوقعته فى الحال !

وتوالت ضروب الآلاء والتكريم والالقاب الجامعية الفخرية ، وتبودلت الهدايا العلمية .. غير أن الصحفيين الأمريكان ، لم يلبثوا أن اتهموا بلادهم بأنها ضربت على امرأة مسنة رقيقة ضريبة من التجارب والمتاعب ، فوق ما تحتمله قواها . فأعلنت جريدة بحروف هائلة: اسراف فى الضيافة : « ان النساء الأمريكيات قد دللن على فطنة فائقة بمساعدتهن للعالة ، ولكن قد يوجه الينا النقد المر لأننا قد جعلنا مدام كورى تدفع ثمن هديتنا من ذات لحمها وعظمها لمجرد ارضاء كبريائنا » . وفى صحيفة اخرى ترى هذا الراى الجريء : « ان اى مدير « سيرك » او « موزيك هول » ، كان يقدم لمدام كورى مبلغا أكبر بكثير من ثمن جرام الراديو ، فى نظير نصف هذا الجهد » ! .. او : « لقد قتلنا ، او كدنا نقتل يوما ما ، المارشال جوفر من فرط حماسنا .. فهل ترانا سنقتل مدام كورى ؟! »

فألغيت الحفلات كلها ، اللهم الا التى لا غنى عنها مطلقا لأهميتها ، وكانت مع ذلك كفيلة بأن تضنى أشد الرياضيين قوة وجبروتا ! .. وفى ٢٨ مايو ، بنيويورك ، أصبحت مدام كورى دكتورا فخريا لجامعة كولومبيا الشهيرة . وفى شيكاغو أعلنت عضويتها الشرفية بالجامعة ، وتلقت القابا فخرية عديدة فى ثلاثة استقبالات: الأول وضع فيه ، حولها وحول كريمتها ، حبل يفرق بينهن وبين الجماهير التى تمر فى صفوف أمامهن .

والثاني رتل في الأناشيد الوطنية : الفرنسي ، ثم الأمريكي ، ثم البولوني .. واختفت ماري تقريبا وراء تلال الزهور التي راكمها المعجبون بها عند قدميها .. وكان آخر استقبال يفوق في حرارته كل ما سبقه : فقد جرى في الحي البولوني بشيكاغو لجمهور بولوني كله . ولم تكن العالمة هي التي يهتف لها أولئك المهاجرون ، وإنما كان رمز الوطن البعيد .. رجال ونساء يذرفون الدموع ، يحاولون تقبيل يدي ماري ، أو لمس طرف ثوبها وفي ١٧ يونيه ، اعترفت مدام كوري للمرة الثانية بغلبها ، فقطعت شوط مجدها . فان ضغط دمها قد هبط هبوطا مروعا ، مما أقلق الأطباء . فاستراحت حتى استردت قواها ، وذهبت الى بوسطون ، ونيوهافن ، وجامعات ولسلي ، ويل ، وهارفارد ، وسيمونز ، ورادكليف . وفي ٢٨ يونيه أبحرت على « الأوليمبيك » حيث وجدت غرفتها غاصة بالبرقيات ، مختنقة بسلام الزهر وحل محل اسمها ، في صدر الصحف ، اسم « نجم » آخر جاء من فرنسا . فاللأم جورج كاربنتييه Carpentier ، الذي سبقته شهرة مستفيضة ، قد وصل الى الولايات المتحدة . وما أشد خيبة أمل الصحفيين الذين لم يستطيعوا ان ينالوا من مدام كوري أقل نبوءة عن توقع له الغلبة في ملاكمته مع دمبسي ! .. ماري متعبة جدا ، ومسرورة جدا ، في وقت معا . فها هو ذا الراديو يغادر امريكا معها على الباخرة ، وراء خزانات ضخمة من الفولاذ تجعله في مأمن الى الشاطئ .. وهذا الجرام يحمل على التأمل في مهمة ماري كوري . فقد اضطرت للحصول على هذا القدر الضئيل ، الى ان تعبر المحيطات ، وان تتسول في طول قارة وعرضها ... كيف لا يمر بفكر الانسان أنها لو كانت قد وضعت توقيعا

بسيطاً فيما مضى ، على شهادة تسجيل الاكتشاف ،
لتبدل الحال ؟ .. كيف لا يخطر بالذهن أن ماري كورى
(الفنية) كان يمكنها أن تهب بلادها المعامل ،
والمستشفيات ؟! أو لم تكن عشرون سنة كفاح ، ومتاعب
ومشقات ، خليفة بأن تحمل ماري على الأسف بله
الندم ؟! أو لم تكن كافية لاقتناعها بأنها ، إذ احترقت
الثراء يوماً ما ، قد ضحت بنفسها وبتقدم عملها وازدهار
علمها ، من أجل هواجس وأوهام ، واضغات أحلام ؟!

في المذكرات القصيرة التي كتبتها مدام كورى لدى
عودتها من أمريكا عرضت لهذه الاسئلة، ودونت عليها الجواب:
» .. إن عددا كبيرا من أصدقائي يؤكدون ، بأسباب
وجيهة ، أنه : لو أننى ، أنا وبير كورى ، قد ضمنا
حقوقنا ، لأمكننا الحصول على الوسائل المالية اللازمة لتشيد
معهد للراديو ، دون أن نتعثر فى العقبات التي عطلتنا
نحن الاثنين ، والتي لا تزال تعطلنى وتعرقلنى . بيد أننى
لا أزال مقتنعة بأننا كنا على حق . فالإنسانية ، يقينا ،
فى حاجة الى رجال عمليين ، يبتزون من عملهم أقصى ما فى
وسعهم ، وهم ، دون أن ينسوا المصلحة العامة ،
يصوتون مصالحهم الشخصية . ولكن الإنسانية أيضا فى
حاجة الى ذوى الخيالات والأحلام ، الذين يعدون تقدم
عمل لهم تقدما خاليا من المصلحة ، له من القوة الجاذبة
ما لا يستطيعون له دفعا ، فيستحيل عليهم أن يقفوا
، عنايتهم على فائدتهم المادية الذاتية . «

وما من شك مطلقا ، فى أن أهم الحلم والخيال هؤلاء
لا يستحقون الثراء ، لأنهم لا يرغبون فيه . ولكن ينبغى ،
على أى حال ، للمجتمع المنظم تنظيما طيبا ، أن يكفل
لهؤلاء العاملين الوسائل الناجمة لاتمام مهمتهم ، فى حياة
خالصة من المشغوليات المادية ، موقوفة على الدرس ...

ازدهار

تعلمت « التلميذة الخالدة » من رحلة أمريكا أشياء غابت عنها ، ولم تكن تعلمها . فقد أظهرتها على أن العزلة المختارة التي قيدت نفسها بها لم تكن أمرا مألوفا . ان طالبة تستطيع أن تحبس نفسها مع كتبها في غرفة سطح ... وان باحثا خاملا يستطيع أن يقطع مابينه وبين عصره ، ويعكف بكليته على أعماله الشخصية .. بل قد يكون هذا واجبا عليه . أما مدام كورى ، في سن الخامسة والخمسين ، فهي شيء آخر : غير طالبة ، وغير باحثة . ان مارى كانت مسئولة عن علم جديد ، وعن علاج جديد . وسلطان اسمها كان من العظمة بحيث انها بإشارة بسيطة ، او بمجرد حضورها ، تكفل نجاح مشروع يهم الصالح العام ويكون عزيزا عليها . وسنراها ، من الآن فصاعدا ، تحتفظ بمكان في حياتها لهذه المبادلات ، وهذه المهام والبعثات .

وليس هنا مجال الافاضة في وصف رحلاتها . فهي تتشابه : من مؤتمرات علمية ، الى محاضرات ، الى حفلات جامعية ، الى زيارات للمعامل ، كلها تدعو مدام كورى الى عدد كبير من عواصم البلدان حيث يحتفى بها ويحتفل . وستحاول أن تخدم وتنفع ، وذلك ، غالبا ، وهي تناضل ضعف صحتها وخورها .

وعندما أتمت فروضها الرسمية ، كانت خير مكافأة

لها أن تكتشف الأصقاع الجديدة ، والمشاهد الخلوية ،
وأن ترضى شغفها بالطبيعة . ان ثلاثين سنة في جهاد
مضن ، لم تؤثر عندها الا في زيادة تعلقها بجمال الكون .
وفي رحلتها الى ريو دي جانيرو ، عاصمة البرازيل ، مع
كريمها ايرين عبر الاوقيانوس ، تفرح كالاطفال بروبة
السماك الطيار وسمت الشمس ، وبالكواكب تقيب
وتبدو ، فتساءل عن ماهية هذه النجوم الساطعة ،
وأسمائها في سمائها هذه ! ..

واستقبلتها ايطاليا وهولندا وانجلترا مرارا . وفي
١٩٣١ قامت مع ايف برحلة ساحرة لا تنسى خلال
اسبانيا . ودعاها الرئيس مزاريك في بيته الريفى
بتشيكوسلوفاكيا . وترددت على مؤتمرات بلجيكا حيث
حلت أهلا وسهلا ، وكانت تتعشى عند الملك البرت والملكة
اليزابيث ، اللذين قابلا ماري في ساحة بلجيكا الدامية ،
وحملها صداقة نادرة . ولم يعد ثمة في الدنيا من يجهل
اسمها . ألسنا نجد ، في بلدة قديمة برربوع الصين ، في
« معبد كونفوشيوس » بتاريوان - فو ، صورة مدام
كورى ؟ لقد أحلها حكماء البلاد بين « المحسنين الى
الانسانية » ، الى جنب ديكارت ، ونيوتن ، وبوذا ، وكبار
اباطرة الصين ...

وفي ١٥ مايو ١٩٢٢ ، اجمع مجلس عصبة الأمم على
انتخاب « مدام كورى سكلودوفسكى » عضوا في اللجنة
الدولية للتعاون الفكرى . ققبلت مدام كورى
سكلودوفسكى ! .. لتصبح نائبة الرئيس في هيئة تضم
الشخصيات البارزة في عالم الفكر : برجسون ، جلبرت
مورى ، جول دستريه .. وغيرهم وغيرهم ..

Bergson, Gilbert Murray, Jules Destrée

كانت طول حياتها تلازمها فكرة : هذه المواهب الفكرية

التي تظل مجهولة ، عاطلة ، في الطبقات المحرومة من المال . فقد يكون مختفيا وراء هذا الفلاح ، أو ذاك العامل : كاتب ، أو عالم ، أو مصور ، أو موسيقار . . . فبذلت جهدها لزيادة الأموال الموقوفة على الدراسات العلمية الدولية . ففي أكواخ الفقراء كنوز نادرة خفية ، يعد من الاجرام نبذها واحتقارها وضياعها . . .

وقامت برحلتين ، بثلاث رحلات ، بأربع رحلات ، الى بولونيا . وهي مذ صارت بلادها حرة ، يراودها أمل عظيم : هو تأسيس معهد للراديو في فارسوفيا ، يكون مركزا للبحوث العلمية ومعالجة السرطان . ولم يكن عنادها كافيا للتذليل الصعاب . فان بولونيا الناقصة من استعباد طويل ، كانت فقيرة ، فقيرة في المال ، وفي الفنيين . ولكن ماري نادت حليفها القديمة وشقيقتها برونيا ، فانبرت هذه ، رغم تقدم سنها ، تطلب المال ، أو بالأحرى تدعو الى شراء الطوب : « اشتر طوبة لبناء معهد ماري سكلودوفسكى كورى ! . . » . هكذا راحت الدعوة في الوف البطاقات « الكارت بوستال » ، وعليها نداء العالمة : « ان احر امانى تشييد معهد للراديو في فارسوفيا » .

واشترت بولونيا ، من اقصاها الى اقصاها ، الطوب والحجارة . وحرموا افواههم لقمة العيش ، ليشيدوا رمزا عاليا لحب الأوطان . وعندما وقف رئيس الجمهورية يضع الطوبة الأولى ، وتضع مدام كورى الطوبة الثانية ، ورئيس بلدية فارسوفيا الطوبة الثالثة ، نوه رئيس الدولة باعجابه بأن ماري ما زالت حافظة لسانها القومي ، تجيد لفتها ، رغم النفي الطويل . . . او لم يكن هو نفسه في باريس رفيقا لدموازيل سكلودوفسكى ، في الحى اللاتيني ؟! . . وفي هذا الحفل الحاشد ، يحاورها وبداعبها :

- أتذكرين الوسادة الصغيرة التي أعرتني إياها منذ ثلاثة وثلاثين عاما ، عندما عدت الى بولونيا في مهمة سياسية سرية؟! .. لشد ما نفعتني في القطار وسادتك !
وتجيبه ماري ضاحكة :

- أذكر .. وأذكر أيضا أنك نسيت ردها الى ! ..

ومرت الأيام ، وأصبح الطوب جدراننا . ومع ذلك ماذا تصنع ماريا وبرونيا ، ولا يزال ينقص البناء ، رغم ما جمعتاه وما دفعته من مالهما ، مال طائل لشراء الراديو الذي سيقوم عليه علاج المرضى ؟

ان ماري لا تثبط لها عزيمة . فهي تنفض الأفق بنظرها الثاقب ثم تتجه نحو الغرب .. نحو الولايات المتحدة . نحو مسز ميلوني ، هذه الأمريكية الكريمة التي تعرف معزة معهد فارسوفيا عند ماري .. فتقوم بمعجزة جديدة ، وتجمع المال اللازم لشراء جرام من الراديو ، الجرام الثاني الذي تقدمه امريكا لمدام كوري ! . فيعود كل شيء على بدء ! .. وكما حدث في ١٩٢١ ، تبهر ماري في أكتوبر ١٩٢٩ الى نيويورك لتشكر الولايات المتحدة باسم بولونيا .. وكما حدث في ١٩٢١ تستقبلها الأفراح والأمجاد ، رغم ما كانت فيه أمريكا من ضائقة اقتصادية ... وهي ، خلال هذه الرحلة ، تحل ضيفا على الرئيس هوفر في البيت الأبيض ..

وفي ٢٩ مايو ١٩٣٢ يتوج العمل المشترك لماري كوري وبرونيا داوسكي . فيفتتح رئيس الجمهورية البولونية معهد الراديو .. وترى ماري بولونيا لآخر مرة .. تجوس خلال الشوارع القديمة في مسقط رأسها ، وتزور نهر الفستول الزيارة المقدسة عندها كاليج ، تتأمله بحنين ، وتأسى على فراقه ، وتصف هذا الماء ، وهذه

الأرض ، وهذه الحجارة التى يتعلق بها كل كيانها ، فى رسائل الى ايف :

... خرجت هذا الصباح فى نزهة منفردة على شاطئ
الفيستول ... وكان النهر الثعبان يرفد باسترخاء فى
فراشه الرملى الكبير .. وعلى الجانبين خضرة ، وفى
السماء زرقة .. فتذكرت أغنيتنا التى تقول عن
الفيستول : « ان هذه المياه البولونية لها من السحر
بحيث يظل الذين ينهلون منها عاشقين لها حتى فى اعماق
القبور » ... وهو ما يبدو لى حقا وصدقا .. فان لهذا
النهر جاذبيته العميقة لى ، من حيث ادرى ولا ادرى ..
الى اللقاء يا حبيبتي . قلبى عنى اختك ايرين . انى
أقبلكما معا من كل قلبى ، الذى هو لكما ..
أمك ..

وفى فرنسا ...

فى ١٩٢٢ ، قدم خمسة وثلاثون عضوا فى اكاديمية
الطب بباريس الى زملائهم الطلب الآتى :

الاعضاء المقعون يرون أن الاكاديمية تتشرف بانتخابها
مدام كورى عضوا حرا ، اعترافا بنصيبها فى اكتشاف
الراديوم ، وفى علاج جديد فى الطب هو : الكوريتراپى .

وكان هذا النص ثوريا . فالاكاديميون لا يرون أن
ينتخبوا امرأة فحسب ، ولكن أن يخرجوا على العادة
والعرف بانتخابها من تلقاء أنفسهم ، دون أن ترشح نفسها
للعضوية . فوق أربعة وستون عضوا من أعضاء هذا
المجمع العظيم هذا المنشور ، وبذلك أعطوا درسا لزملائهم
أعضاء اكاديمية العلوم . وتنازل جميع المرشحين عن المقعد
الخالى اكراما لمدام كورى .

وفى ٧ فبراير ١٩٢٢ . كان الانتخاب لameda . فوقف

المسيو شوفار ، رئيس الاكاديمية ، فخطب مارى من
أعلى المنصة بقوله :

« اننا نحى فيك عالمة عظيمة ، وامرأة ذات قلب كريم ،
لم تعيش الا من أجل التفانى في العمل ، وانكار الذات في
سبيل العلم . نحى وطنية قامت دائما في الحرب ، كما
قامت في السلم ، بأكثر من واجبها . وحضورك هنا يجلب
لنا المعنويات الطيبة للامثال التى ضربتها للناس ، كما يحمل
الينا مجد اسمك . . فنحن من أجل هذا نشكرك . ونحن
نفخر بوجودك بيننا . فانت أول امرأة فى فرنسا تدخل
أكاديمية ، ولكن أية امرأة أخرى كانت خليفة بذلك
مثلك ؟ ... »

وفى ١٩٢٣ قررت « مؤسسة كورى » التى قامت على
هبات البارون هنرى دى روتشيلد فى ١٩٢٠ ، أن تحتفل
احتفالا مشهودا بمضى خمس وعشرين سنة على اكتشاف
الراديوم . وتشترك الحكومة فى هذا التكريم وتنال موافقة
المجلسين التشريعيين : (النواب والشيوخ) بالاجماع على
قانون بمنح مدام كورى معاشا سنويا قدره أربعون ألف
فرنك « مكافأة وطنية » ، مع توريثه من بعدها لكريمتها
ايرين وايف كورى .

وبعد مضى خمس وعشرين سنة أيضا على يوم ٢٦
ديسمبر ١٨٩٨ ، الذى قدم فيه بير كورى ومدام كورى
وج بيمون ، مذكرتهم التاريخية عن وجود « مادة جديدة
ذات نشاط اشعاعى قوى فى البتشيبلند » ، أقيمت مظاهرة
كبيرة فى قاعة الاحتفالات بالسوربون ، حيث احتشد
جمهور لا يحصى . وكانت الجامعات الفرنسية والاجنبية ،
وجمعيات العلماء ، والسلطات المدنية والعسكرية ، والبرلمان
والمدارس العليا ، وجمعيات الطلبة ، والصحافة : كلها
ممثلة بوفود . وجلس على المنصة المسيو الكسندر ميليران

رئيس الجمهورية ، والمسيو ليون بيرار وزير المعارف العمومية ، وبول آبل مدير أكاديمية باريس ورئيس « مؤسسة كورى » ، والبروفيسور لورنتز الذى كان سيتكلم باسم العلماء الاجانب ، فى حين يتكلم البروفيسور جان بيران باسم كلية العلوم ، والدكتور أنطوان بكير باسم أكاديمية الطب . وشوهد بين هذه « الشخصيات » رجل وقور ، أبيض الشعر ، وامرأتان كبيرتان فى السن تكفكفان دموعهما : هيللا وبرونيا ومعهما ، جوزيف ، وكانوا قد جاءوا من فارسوفيا ليحضرُوا انتصار « مانيا » المبين . فالمجد الذى عقد اكليله على جبين صفرى أبناء سكلودوفسكى لم يزيف شيئا ، ولم يضيع من المحبة الاخوية شيئا . ولم يحدث أن التأثر والكبرياء قد جملا وجها الى الحد الرائع ، الذى تجلى على هذه الوجوه الثلاثة .

وقدم رئيس الجمهورية الى مارى كورى المعاش الوطنى : « كدليل ضعيف مخلص على مشاعر الإعجاب العالمى ، والتقدير ، والعرفان بالجميل » . ونوه وزير المعارف ، فى ظرف ، تعليقا على ذلك : « ان اقتراح هذا القانون واقراره ، وهو يحمل امضاءات ممثلى فرنسا جميعا من حكومة وبرلمان ، يعد بمثابة التصميم على تجاهل تواضع مدام كورى وعدم الاعتراف non avendus - كما يقال فى لغة القانون - بوجود زهداها فى المادة » ! ..

وربما لم يكن هناك من بين جميع الخلائق التى احتفل بها وكرمت ، من أبدى مثلما أبدت « التلميذة الخالدة » من وجه مطلق موصد ، وهيئة ابتعاد وشروء . . وفى عاصفة الهتاف باسمها والتهليل لها ، لم يبد أحد أشد منها وحدة ووحشة . .

جزيرة سان لويس

كانت ماري تعود من أسفارها ، وقد حطمها التعب ، وامتلات حقيبة يدها الضخمة ، المهداة اليها من جمعية النساء البولونيات ، بركام من الاوراق ، وعلب النظارات .. وتراها قد احتضنت ، فوق هذا الحمل الثقيل ، طاقة زهر تافهة ذابلة ، قدمها اليها بعض الناس في الطريق ، ترحمها ولا تجسر أبدا على القائها والتخلص منها ! ..

فتصعد ، بدون مصعد ، الطبقات الثلاث العالية ، لبيتها بجزيرة سان لويس ، في قلب باريس .

وكان ذلك المسكن العائلي ، على رصفة « بتون » ، غريبا : شقة كبيرة جدا ، قليلة أسباب الراحة ، كلها دهاليز وسلالم داخلية ، سلخت فيها مدام كورى ، مع ذلك ، من عمرها اثنين وعشرين عاما ! .. وكانت غرفها الفسيحة في بيت من طراز القرن السابع عشر ، تنتظر عبثا الكراسى ذات المساند ، والكنبات الفخمة ، التى تطابق أركانها الفسيحة وطرازها العريق .. فقد احتشد، كيفما كان ، الاثاث المصنوع من خشب المغنة ، الموروث من الدكتور كورى الشيخ ، فى البهو الهائل الذى يتسع لخمسين شخصا ، وقلما يجتمع فيه أكثر من أربعة ، على أرض من خشب مصقولة بالشمع ، تنوء وتئن تحت الاقدام .. فلا بسط ، ولا ستائر . ماري لاتفلق المصاريع

الخارجية ، لأنها تحب الزجاج المجرد الذى لا يسلبها أى شعاع من الشمس ! .. فهي تريد نهر السين ، وورصفاته ، ونوتردام : هذا المشهد الذى يخلب العقول ، تريده كاملا غير منقوص ...

عاشت طويلا فى فقر مدقع لا يمكنها من أن يكون لها مسكن جميل . أما الآن فلم تعد راغبة فيه ، ولم يعد لديها من الوقت ماتضيعة فى تغيير اطار عيشها الذى سيظل دائما متواضعا .

هذا المسكن ، الذى اختارته من بين جميع المساكن ، لهدوئه ، كان أشد المساكن ضجيجا : أيف تعزف على البيانو ، والتليفون العتيق يدق ، والقط يقفز فى دهايز البيت كالفرس المغوار ، وجرس الشقة القوى يرن ، ويتجاوب صداه .. ثم الصغير المتوالى من السفن والزوارق البخارية الجارية فى السين ...

وتبدأ حركة الخادم قبل الساعة الثامنة صباحا ، وهى وخطوات مدام كورى الخفيفة المتعجلة ، توقف البيت ... وقبل التاسعة بربع الساعة تقف سيارة متواضعة أمام البيت ، ويضرب السائق الكلاكسون ثلاث مرات ، فتهرول ماري الى قبعتها ومعطفها وتنزل السلم بسرعة . فالمعمل فى انتظارها !

وبفضل المعاش الحكومى الوطنى ، ودخل يعزى الى الكرم الأمريكى الحاتمى ، اختفت المشاغل المادية . ولكن مدام كورى ما عرفت قط كيف تنتفع بمالها . فليست لديها خادمة مصقولة ، وهى لم تدع مرة واحدة سائق سيارتها ينتظر أكثر من بضع دقائق والا شعرت بأنها مذنبه . واذا دخلت بصحبة أيف ، الى متجر ، فهي لا تنظر الى الاسعار ، ومع ذلك لا تقع يداها العصبيتان الا على أبسط ثوب ، وأرخص قبعة ، وما كان يعجبها سوى ذلك

ولم تكن تستبيح الانفاق الا على الاشجار والاحجار .
تحب البيوت الريفية والساحلية . بنت بيتين : احدهما
في لاركويست Larouest حيث كان اكثر صحبها
من العلماء واسرهم يقضون الصيف بصحبة عميد اساتذة
التاريخ في السوربون المرحوم شارل سينيوس ، والثانى
على شاطئ البحر الابيض المتوسط . فقد جاءت السن
التي تتطلب شمس الجنوب الاشد حرارة ، ومياه البحر
الأدفأ من مياه ساحل « بريتانى » . وكانت تحلم بهجر
باريس وقضاء الشتاء فى ضاحية « صو » كما كانت تفعل
فى الزمن الخالى . . . فاشتريت قطعة أرض ، وفكرت فى
بناء بيت ، ومرت السنون دون أن تفعل . وكانت كل
يوم ، فى ساعة الغداء ، ترى وهى عائدة على القدمين من
المعمل ، تجتاز جسر « لاتورنل » ، بخطى مسرعة تقرب
من خطى الشباب ، وتصعد ، وهى متقطعة الانفاس قليلا ،
الادوار الثلاثة لبيت جزيرة سان لويس القديم . . .

وفى ذات صباح ، من ١٩٢٦ ، أعلنت ايرين ، الهادئة
الطبع ، أهلها بخطبتها لفردريك جوليو ، خير العاملين فى
معهد الراديو واذكاهم والمعلم . فانقلب نظام البيت بدخول
هذا الشاب الى بيت النساء الثلاث ، الذى لا يدخله أكثر
من اربعة او خمسة من الاهل او المقربين . ولم يحل سرور
مارى بخطبة بنتها الكبرى دون تأثرها من انها لن تستطيع
بعد أن تعيش ساعة بساعة مع رفيقتها فى العمل . ولكنها
لا تلبث أن تتخذ منها ومن خطيبها معا مساعدين بدلا من
واحد ، وتعتاد اشتراكهما معها فى مشاغلها ومباحثها
وامانيها .

— أفلا تذهبين الى المعمل يامه ؟
فتلقى العينان الرماديتان على ايف نظرة تبرق حنانا :
— بلى ، سأذهب الساعة .. ولكنى قبل ذلك سأمر

على أكاديمية الطب ... ولما كانت الجلسة لا تبدأ الا في الثالثة ، فأظن أن لدى من الوقت ما يسمح بالمرور على سوق الزهور .. وربما ذهبت لحظة الى حديقة اللكسمبورج .

وهي في سوق الزهور لا تشتري زهرا ، ولكن نباتات لحديقة معهد الراديوم ! .. فلعل تعودها الفاقة قد صار غريزة تصرفها عن الزهور الجميلة الغالية .. فاذا حملها اليها الاصدقاء كعادتهم تتأملها بدهشة وشيء من الاستحياء!

وفي منتصف الثالثة تترك مارى السيارة الفورد على باب اللكسمبورج وتسرع الى موعتها ، « القريب من السبع الذى الى اليسار » ! .. ومن بين مئات الاطفال ، الذين يلعبون في حديقة الحى اللاتينى ، تهب طفلة اذا مارات العاملة الكبيرة ، وتجرى نحوها بكل السرعة التى تمكنها منها ساقاها الضئيلتان : هي « هيلين جوليو كورى » بنت ايرين . فتتحدث الجدة بضع دقائق مع الطفلة المرتدية ثوبا احمر صارخا ، وتسألها هذه : « الى أين انت ذاهبة ، يامه ؟ ... لماذا لاتبقين معى ، يامه ؟ .. »

وتشير ساعة مجلس الشيوخ المشرفة على الحديقة الى أن الساعة الثالثة الا عشر دقائق .. فلا بد لمارى من مغادرة هيلين وفطائرها الرملية ...

ثم تقصد القاعة الكالحة لجلسات عمداء الطب في فرنسا بشارع بوناپرت . وتأخذ مكانها المعتاد الى جوار صديقها القديم الدكتور « رو » . وتأخذ نصيبها من أعمال أكاديمية الطب ، المرأة الوحيدة بين ستين زميلا موقرا .. — آه لشد ما انا متعبة ! ..

لعلها كانت تهمس ، كل مساء تقريبا ، بهذه العبارة وهي منهوكة القوى .. ولم يفن شيئا قول ابنتها لها : « انك تعملين فوق الطاقة . لا يحق لامرأة في الخامسة

والستين ، وليس في مقدورها ، أن تعمل - كما تعملين -
اثنتى عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة في اليوم . . «
وكانت ايف واثقة من أن نصيحتها لا تجدى في أمها نفعا ،
فهي لا تستطيع أن تعمل دون ذلك ، والاعدت هذا التقاعد
علامة مروعة على الانحلال .

ومنذ خرجت ايرين من البيت ، لتستقل بحياتها
الزوجية ، كانت مدام كورى تتعشى كل مساء مع ابنتها
ايف ، وحدهما . فتتحدث معها عن العمل ، الذى هى
ملك له روحا وجسدا ، ومن يقصده من شباب العلماء
من كافة بقاع الارض . . تقول ، وقد انتهت من تناول
الحساء :

- تصورى . . اننى ذهبت لالقى تلميذى الصينى
«mon chinois» فى قاعة الطبيعة ، فتحدثت
بالانجليزية ، وبدا أن محادثتنا لاتنتهى . . ففى الصين
تعد المعارضة أو المناقضة من قلة الادب . فكنت اذا فرضت
فرضا دلت هذا الشاب تجاربه على عدم صحته ، يمضى
فى موافقتى ومجاملتى . . وكان على انا ان احزر ما يكون
عنده من اعتراض ! . . وانى ازاء تلاميذى ، من اهل
الشرق الاقصى ، احس بالعار من طباعى السيئة ! . . فيما
اعظم حضارتهم بالقياس الى حضارتنا ! . . « ثم تناول
بعض الفاكهة المطبوخة » . . ايفيت ! . . لابد من أن ندعو
ذات مساء تلميذى البولونى لانى اخشى ان يكون تائها فى
باريس . . .

ففى برج بابل ، الذى هو معهد الراديو ، يتوالى
العاملون من مختلف الجنسيات . وكان دائما بينهم بولونى
على نفقتها الخاصة ، من حيث لا يحتسب ، ولا يعلم ابداء
زعماء منه أنه « على حساب مؤسسة كورى » ! . .

ثم تكف فجأة عن الكلام ، وتنحنى نحو بنتها وتقول بصوت آخر :

- والآن يا حبيبتي !.. قولى لى شيئا .. حدثينى عن انباء هذا العالم !..

فهى تعرف كيف تعالج السياسة دون مرارة .. واذا اشاد بعض الفرنسيين امامها بالديكتاتورية ، ردت عليهم فى لطف : « اننى عشت فى عهد الاستبداد ، واما انتم فلا .. فلن تدركوا معنى هناء العيش فى بلاد الحرية .. » . وكان دعاة الثورة والعنف يلقون منها نفس المعارضة : « انكم لن تقنعونى ابدا بأنه كان من الخير قطع رقبة لافوازييه (١) ... »

ولم تكن مدام كورى تنصح النساء بأن يسلكن فى الحياة مسلكها : « ليس من الضروري ان تعشن عيشة ضد الطبيعة كعشتى » .. تقول ذلك للمعجبات المتحمسات . « انى وهبت العلم جل وقتى ، وذلك كان لاستعدادى ، وميلى الى البحث ... وما أتمناه للنساء ، للفتيات ، هو حياة عائلية بسيطة ، والعمل الذى يطيب لهن » .

ويحدث فى تلك الامسيات الهادئة ، على العشاء ، ان تتحدث مدام كورى وايف عن الحب . فهذه المرأة ، المعذبة عذابا فاجعا مضنيا ، لم تكن تقدر هذه العاطفة تقديرا كبيرا . وما كانت لتتخرج من ان تتخذ رأيا لها ما قاله كاتب فرنسى كبير : « ليس الفرام عاطفة مكرمة » . وكتبت ذات مرة الى ايف :

اعتقد ان علينا ان نبحث عن قوى معنوية فى مثال أعلى، يمكننا ، دون كبرياء منا ، من ان نرتفع بمطامحنا ونسمو

(١) Lavoisier عالم كيميائى فرنسى شهير (١٧٤٣ - ١٧٩٤) قطع عنقه على المقصلة أثناء الثورة وقال قتلته : « ليست فرنسا فى حاجة الى علماء ! .. »

بأحلامنا . وكذلك أرى من المؤلم المؤنس تعليق كل شأن الحياة على عواطف عاصفة هوجاء كالحب ..

واذ كانت ايف ستخرج بعد العشاء الى حفلة موسيقية جاءت مدام كورى الى غرفتها ، فاضطجعت على الديوان ، تنظر الى بنتها وهى تلبس ... وكانت آراؤهما ، فى زينة النساء وجمالهن ، على طرفى نقيض تماما . وكانت ايف هى التى ترغب أمها على تجديد ثيابها السوداء قبل أن تصبح رثة بالية ، وكانت الام تستسلم ، بل تمزح وهى تبدى لبنتها ملاحظاتها :

- آه !.. يا حبيبتي المسكينة !.. ما أبشع كعب حذائك !.. لا .. أنك لن تجعلينى أبدا أصدق أن النساء خلقن للمشى على عكازين !.. ثم ، ماهذه « الموضة » الجديدة ؟. « ديكولتيه » الظهر فى فساتين السهرة ؟ لقد كان الكشف عن بعض الصدر محتملا ، أما هذه الكيلومترات والكيلومترات من الظهور العارية ! .. فاللهم حوالينا ولا علينا ! .. فهذا أولا : غير لائق . وثانيا : تعرضين نفسك للالتهاب الرئوى . وثالثا : هذا بشع !.. وانى أعلم أن السبب الثالث ينال منك مالا يناله السببان الاولان !.. فاعلمى ، بعد هذا كله ، أن ثوبك جميل !.. ولكنك غالبا تلبسين السواد . ان اللون الاسود ليس لمثل سنك ...

وكانت زينة الوجه تطول ، وتعذب ، فبعد جهد جهيد ، يرضى ايف عن النتيجة ، فتلتفت الى نداء أمها الساخر : « أديرى وجهك ، حتى أعجب بك !.. » . وتفحصها مدام كورى فحسا علميا ، أمينا .. وأخيرا تفزع :

- بالطبع ، لبس لدى اعتراض فى الجواهر على هذا النوع من التنكر بالدهان وتلطيف الألوان !.. فانى أعلم أن هذا كان يعمل دائما . وفى مصر القديمة ، كان النساء

يبتكرون ماهو ادهى وأمر !.. ولا يسعنى الا أن أقول لك شيئاً واحداً : اننى أرى هذا شنيعاً !.. فأنت تعذبين اهدا بك ، وتصبفين شفتيك دون أية فائدة ...

— ولكن يامه ! .. اؤكد لك أنه هكذا حسن ! ...
— أحسن !! .. اسمعى ، انى لاعزى نفسى . سأجىء غدا صباحاً ، لأقبلك فى فراشك ، قبل أن يكون لديك وقت لوضع هذه الشناعات على محياك !.. انى أحبك ، حين لا تكونين زائفة . والآن أسرعى يابنتى الصغيرة . مساء الخير وتترك لها ايف بعض كتبها ، فهما برغم اختلاف ذوقهما الادبى ، تحبان معا كبلنغ وكوليت ... فلا تمل مارى كورى مطالعة « كتب الغاب » و « مولد النهار » و « سيدو » و « كيم » : الانعكاسات الحية لهذه الطبيعة الخلوية التى تجذ فيها راحتها ومزاجها ...

وكان المشهد يتكرر كل مساء . فتعود ايف فتجد النور فى غرفة والدتها ، فتدفع الباب ، وتدخل .. واذا بمارى كعادتها ، محوطة بأوراقها وجداولها وأرقامها ونشراتها ، جالسة على الارض ، على الخشب ... لم تتعود أبداً ان تجلس على كرسى كبير الى مكتب ، كما هى تقاليد « المفكرين » !.. كان لابد لها من مكان غير محدود تبسط فيه وثائقها وجداولها !..

وتكون مستفرقة فى احصائيات معقدة ، فمع أنها تلحظ عودة بنتها ، الا أنها لا ترفع رأسها .. فحواجبها مقطبة ، ووجهها مهموم .. وعلى ركبتيها كراسية : ويدها قلم رصاص تعلم به وترسم .. وتخرج من شفتيها تمتمة وهمهمة

مارى كورى تعد وتحصى .. وكما كانت منذ ستين عاماً ، فى فصل الحساب ، بمدرسة مدموازيل سيكورسكا الابتدائية ، كانت هذه « البروفسور » فى السوربون ، تحسب باللغة البولونية !..

معبد المستقبل

— هل مدام كورى هنا ؟
— انى ابحث عن مدام كورى فهل جاءت ؟
— هل رايت مدام كورى ؟
شبان ، وشابات ، فى معاطف المعمل البيضاء ، يسائل
بعضهم بعضا ، فى الدهليز الذى لابد للعامة من اجتيازه
عند وصولها الى معهد الراديو .

ولن يطول انتظارهم . ان هؤلاء الخمسة ، العشرة ،
المجتمعين فى الصباح ، فى طريقها ، ليسألها كل منهم نصيحة
او تشجيعا او تفسيرا او توجيها ، سيسمعون السيارة
العتيقة تجتاز شارع بير كورى ، وتفتح بوابة « معبد
المستقبل » ، وتبدو مدام كورى ، فتزاحم عليها الاصوات
تسأل ، وتستفهم ، وتستفسر ، او تعلن نتيجة طيبة ،
او تعلن عونا وغوثا ...

وهى سعيدة بهذا التزامم الباكر ، فتترك عملها الخاص
وتروح وتجيء ، هنا وهناك ، بين مساعدتها : تشير
وتنصح ، وتعجب ، وتنقد ، وتهنىء .. وتراجع الرسائل ،
وتنظمها ، وتقدمها .. وتتشدد فى المرفوع منها الى
الاكاديمية ، تقراه ، مرتجفة اليدين من التأثير والذكرى
.. وتصحح الاخطاء الفنية ، بله الجمل والعبارات ..
وهى تزيد فى غنى معملها عاما بعد عام . فتدور مع

جان بيير في الوزارات ،تطلب الاعانات ، والبعثات العلمية
لمعهدھا . وكان اولياء الامور يلبون طلبھا ، لانھا « مدام
كورى » ، فحصلت في ١٩٣٠ على اعتماد للبحوث ، فوق
العادة ، بخمسمائة ألف فرنك . وكان في الطرف الاخر ،
من حديقة شارع بيير كورى ، البناء الثانى من المؤسسة ،
حيث يعمل البروفسور ريجو ومساعدوه ، الذين تسميهم
مارى « الجماعة اللى فى الوش Les gens d'en face »
يقيمون حربا عوانا على السرطان . وبلغ عدد المرضى الذين
عولجوا من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ : تسعة عشر وثلاثمائة وثمانية
آلاف مريض فى معهد الراديوم !.. وكان لابد لذلك من
أسلحة هائلة للحصول على الشفاء والنتائج المعجلة، فبلغ
مااستعاروه من « اتحاد المناجم » وحده عشرة جرامات!
ووجهوا النداء للحكومة ، وطلبوا التبرعات . وكان فى
مقدمة المحسنين البارون هنرى دى روتشيلد Rothschild
والاخوان لازار Lazard Frères ، وكذلك « فاعل
خير » مدهش ، رفيق متواضع ، بذل كل مايمكن من
الاحتياطات لاختفاء شخصيته ، وقد منح مؤسسة كورى
...ر.٣٠٠ فرنك .. ثلاثة ملايين واربعمائة ألف فرنك

وكان البروفسور ريجو ، القائم على العلاج بالراديوم ،
من أنقى الناس ذمة ، وأشدھم انفة . كان مثل مارى يمقت
دوى المجد . فنبذ كل نفع مادى .. ولو أنه كان قد
« عمل زبائن » لكسب ثروة طائلة ، غير أن هذه الفكرة
المجردة نفسها لم تخطر له فى بال !.

هذه السنوات اللامعة المثمرة هى ايضا سنوات النضال
الفاجع ، فمدام كورى مهددة بالعمى . أخبرھا الطبيب
فى ١٩٢٠ أن « كتركتھ » مزدوجة « اظلام عدسة العين »
ستصيبھا فى الليل قليلا قليلا ، فلم تدع مارى يأسھا يبدو
فاعلنت ، بلا جزع ، ابنتيھا بهذه المحنة ، ثم تحدثت للحال

عن العلاج : عملية محتملة خلال سنتين أو ثلاث سنوات
... ومن الآن الى ذلك الحين ، خلال الانتظار القاضى
عليها ، يزداد بلور النظارات سمكا ، ويضع بين العالم
وبينها سحابا ثقلا ، وبين عملها وبينها ضبابا كثيفا
مقيما ...

من مارى الى برونيا - ١٠ نوفمبر ١٩٢٠ :

ان اشد متاعبى يصدر عن عيني واذنى . لقد ضعف
بصرى كل الضعف ولا يحتمل ان يكون له دواء ناجع .
اما اذناى ، فان دويا يكاد يكون متواصلا ، واحيانا قويا
جدا ، يضطهدنى ... وانى من هذا لفى قلق عظيم . فقد
يتعرقل منه عملى ، وقد يستحيل .. وربما كان للراديوم
دخل فى هذه المتاعب ، ولكن لا يمكن الجزم بهذا قطعا .

هذه هى آلامى . فلا تحدثى احدا عنها حتى لاتشيع وتذيع
والآن فلنتحدث عن شىء آخر ..

« لا تحدثى احدا عن هذا ... » .. هذا هو مااستقر
عليه الراى بين مارى وابنتيها ، واخواتها ، واخيها ،
الذين كانوا وحدهم موضع سرها . وكانت فكرتها الثابتة
ان تحول دون اذاعة هذا الخبر حتى لاتنشر يوما احدى
الصحف : « مدام كورى عاجزة »

وأصبح أطباؤها شركاء لها فى هذا التواطؤ . وكانت
نظاراتها تصنع باسم « مدام كاريه » .

وكانت مارى تضرب فى تيه من الظلمات ، لا تستطيع له
قطعا ، اذا ارادت أن تعبر طريقا أو تصعد درجا ، فتأخذ
احدى ابنتيها بذراعها ، وبضفطة خفيفة باليد ، تدلها على
ما امامها من اخطار أو عقبات . وعلى المائدة ، تمد اليها
ما تريد ، كالملاحه التى تبحث عنها بحركات الثقة الكاذبة ،
الداعية الى الاشفاق .

وأصرت على ألا يعلم أحد في المعمل بعجز عينيها ، ولكن كيف السبيل الى المضي في هذه الكوميديا الشنيعة الباسلة؟ وبرغم كل محاولاتها ، واحتياطاتها ، وحزر المعمل المأساة لزم المعمل الصمت ، متظاهرا بعدم الفهم ، لاعبا الدور بمهارة مثل مارى !..

من مارى كورى الى ايف - ١٣ يوليه ١٩٢٣ :

حبيبتي - اظن أنه ستعمل لى العملية صباح الاربعاء ١٨ الجارى . يكفى حضورك الى هنا فى العشية . فالحر لا يطاق ، وأخشى عليك التعب .

عليك أن تقولى لاصدقائنا فى لاركويست « المصيف » ، ان ورائى تحريرات بدأناها معا ، وانى بحاجة اليك لانها طلبت منى على عجل . انى أقبلك . « مه »

ملحوظة - قولى لهم أقل مايمكن قوله ، يا حبيبتي ! تلك الايام فى المستشفى كانت شواظا من نار ، حيث تغذى ايف بالملعقة الصغيرة « مدام كاريه » الجامدة ، العمياء ، ذات الوجه الجريح المحجب بالاربطة . وكان القلق ، من مضاعفات غير منتظرة ، من النزيف ، قد تبع ذلك ، وأضاع ، لعدة أسابيع ، كل أمل فى الشفاء ، وعملت عمليتان أخريان فى مارس ١٩٢٤ . وعملية رابعة فى ١٩٣٠ . . . ولم تكد تخلص من الضمادات والاربطة ، حتى راحت تستخدم عينيها الجريحتين ، وان كانت لا تستطيع بعد تركيز بصرها .

وكتبت من « كافالير » بعد أشهر من العملية الاولى الى ايف :

اننى امشى وأتنزه فى الطرق الجبلية على حصاء حادة ، وأسير بسرعة فى امان . . وأما ما يضايقنى فهو الرؤية المزدوجة التى تحول بينى وبين معرفة الاشخاص الذين

يقتربون منى . اتمرن كل يوم على القراءة والكتابة . ولكن ذلك كان حتى الآن أصعب من المشى !.. فلا بد أذن من أن تساعدني على تحرير مقال الموسوعة « الانسكلوبيديا » البريطانية ...

وانتصرت ، قليلا قليلا ، على حظها السيء . واتخذت نظارات غليظة ، فاستعادت نظرها الطبيعي أو كادت .. فتخرج وحدها ، بل وتسوق سيارتها . وفي المعمل تتمكن ، من جديد ، من عمل ادق المقاييس والمكايل .. آخر معجزة في حياة معجزة ماري تبعث مرة أخرى من الظلمات لتجد من النور ما يكفيها لتعمل ، وتعمل حتى النهاية .. ولعل السر في ذلك البعث ، يبدو في خطاب الى اختها برونيا ، في سبتمبر ١٩٢٧ :

اننى أحيانا تنقصنى الشجاعة ، وأقول لنفسي بضرورة الكف عن العمل ، والذهاب لسكنى الريف ، والانقطاع لفلاحة البساتين .

ولكن ألوف الصلات تستبقيني ، ولا أدري متى أستطيع تنظيم الأمور على هذا النحو .. وكذلك لست أدري ، حتى ولو شغلت بوضع الكتب العلمية ، هل أستطيع الاستغناء عن المعمل ؟ ..

ومن يراها ، جالسة على كرسي ، مشتبكة الذراعين ، محنية الظهر ، زائفة البصر ، أمام تجربة في المعمل ، لم توفق الى النتيجة التي تتوقعها ، يلقاها أشبه ماتكون بامرأة فلاحة عجوز ... عجوز جدا ، خرساء ، آسية ، في حداد أو حزن عظيم ...

أما النجاح فيلهبها بالحماس والخفة والشباب ، ويعطيها أجنحة تحلق ... فتروح نجوس خلال الحديقة

مستبشرة مبتهجة ، كأنما كانت تريد أن تخبر شجيرات
الورد ، وأشجار الزيزفون ، وأشعة الشمس ، بمبلغ
سعادتها ! ...

لقد اصطلحت مع العلم ، وصارا من جديد على وفاق ،
فهي على استعداد للضحك من كل كيانها ، والافتتان ..

خاتمة الرسالة

كثيرا ما كان يحدث أن تتكلم مدام كورى عن موتها ، فتعلق ، بهدوء ظاهر ، على الحدث المحتوم ، وتستعرض عواقبه العملية ، وتنطق ، دون تأثر ، مثل هذه العبارات : « ... من البديهي أننى لن أعيش بعد سنين عدة .. » . أو : « انى ليشفلى مصير معهد الراديو حين لا أكون من أهل هذا العالم . »

هذا ، فى حين أن فطرتها تأبى عليها قبول فكرة العدم ، وتدفعها عنها . وأولئك الذين يعجبون بها عن بعد يظنون أن وراءها حياة لا نظير لها . وهذه الحياة فى عيني مارى لاتستحق الذكر ، لا نسبة بينها وبين المهمة الملقاة على عاتقها .

فمنذ ثلاثين عاما مضت ، وببئر كورى يتطير من موت تكون المصادفة وسيلته ، فدفن نفسه فى العمل بحرارة فاجعة ... وهاهى ذى مارى ، بدورها ، قد قبلت التحدى المبهم ، وخفت للنزال ..

ولكى تدفع عن نفسها اعتداء تتوقعه وتخشاها ، اندفعت بقوة تبني حولها أسوارا واستحكامات من المشاريع والواجبات . تزدرى تعباً يزداد كل يوم شدة والحاحا ، وهذه الاوجاع المقيمة التى ترهقها : بصرها المكفهر ، وروماتيزم فى الكتف ، وطنين فى الاذنين ..

فما هذا كله ؟ .. هناك أشياء أهم وأعظم . فقد
 شيدت ماري ، في أركاي Arcueil (من ضواحي
 باريس) ، مصنعا خاصا بتحضير المعادن الاشعاعية
 بكميات هائلة . وكانت شديدة الرغبة في اقامة هذا
 المصنع من زمن ، ونظمت فيه التجارب الاولى بلهفة
 وتحمس . وهى مشغولة من قبل بوضع كتابها ، الذى
 هو تمثال منيف للعلم ، لا يستطيع أحد ، اذا اختفت
 مدام كورى ، أن يكتبه ويقيمه . وبحوث « الاكتينيوم
 Actinium لا تتقدم بالسرعة الكافية ! .. ثم أليس
 عليها أن تتولى بعد ذلك دراسة دقائق أشعة
 « ألفا Alpha » ؟

تنهض ماري فى ساعة مبكرة ، وتجرى الى المعمل ،
 وتعود اليه مساء ، بعد العشاء ...
 انها تشتغل بسرعة غريبة ، وكذلك بعدم تبصر
 غريب ، هو من خصائصها . فقد احتقرت دائما
 الاحتياطات التى تفرضها بصرامة على تلاميذها : ألا
 يتناولوا انابيب العناصر الاشعاعية الا بالكماشات
 الدقيقة Pincers ، وألا يلمسوا الانابيب المجردة ، وأن
 يستخدموا الدرق الواقية ، لتدرا عنهم وتحميهم من
 الاشعاعات الكهربائية المؤذية .

واخيرا سلمت ماري بتحليل الدم ، فوجده الفحص
 غير طبيعى . فماذا فيه ؟ .. ان مدام كورى ، لخمس
 وثلاثين سنة مضت ، تمسك بالراديوم ، وتستنشق
 انبثاقات الراديوم وما يفوح منه ... وقد ظلت خلال
 سنوات الحرب الاربع معرضة نفسها للأشعة الاخطر
 من ذلك أيضا، الأشعة السينية x الصادرة عن أجهزة

رونجن . فالتحول الخفيف في الدم ، وحروق اليدين
المزعجة المؤلمة ، التي تجف تارة والتي تتقيح تارة أخرى ،
ليست هذه ، بعد ذلك كله ، الا عقوبات غير صارمة
لكل هذه الاخطار التي عرضت نفسها لها ! ..

وفي ديسمبر ١٩٣٣ ، تأثرت مدام كورى بمرض
قصير ، ودل كشف الاشعة على حصة كبيرة في المرارة .
وهو نفس المرض الذي اودى بحياة ابها مسيو
سكلودوفسكى ! .. فلكى تتجنب ماري عملية تخيفها ،
اتخذت نظاما للطعام وخضعت للعلاج .



وفجأة ، رأينا هذه العالمة ، التي ظلت دهرا طويلا
تهمل راحتها وصحتها ، وتؤجل مشروعاتها الشخصية
المتواضعة التي تمس شفاف قلبها ، مثل بناء بيت في
ضاحية « صو » ، وتغيير مسكنها في باريس ، رأيناها
تندفع الى هذه الاعمال اندفاعا ، فتراجع رسومات فيلا
« صو » ، وتدفع نفقات طائلة لبنائها حالا ، وتستأجر
شقة جميلة في بناء حديث بالمدينة الجامعية La Cité
Universitaire ، القريبة من الحى اللاتينى ، حيث
معهدا ومعملها .. وملعبها ! ..

لقد أحست الضنى والكلال ، وحرصت على أن تبرهن
لنفسها على انها بخير وعافية . فتذهب لرياضتها
المحبوبة : الانزلاق على الثلج بفرساي ، وتلحق بايرين
تلك في السافوى Savoie ، وتحس السعادة لانها
مازالت محتفظة بلين عضلاتها ورشاققتها . ثم تجيء
أختها برونيا الى باريس ، بعد اذ فقدت زوجها الدكتور
كازيمير دلويسكى ، وفقدت ولديها . فتنتهز ماري
الفرصة لتسليه أختها ورياضة نفسها برحلة بالسيارة
الى جنوب فرنسا .

وكانت الرحلة نكبة . فقد ارادت ماري ان تقوم بجولات طويلة لتظهر اختها على جمال الطبيعة ، فلما وصلت بعد مراحل عدة الى « فيلا كافالير » كانت منهوكة القوى ، مصابة بالبرد . وكان بيتها عند وصولها مثلجا ، ولم تنفع النار ، التي أشعلت على عجل ، في تدفئته بسرعة . فارتجفت ماري من القشعريرة ، وارتمت في أحضان برونيا تزفر وتنتحب كطفلة مريضة . فهي مهمومة بكتابها ، وتخشى من نزلة شعبية تحول بينها وبين اتمامه . فتعنى بها برونيا . وتعالجها ، وتهديها ، وتطيب خاطرها . وفي اليوم التالي ، تنصرف ماري على خور عزيمتها ، فلا ينال بعد منها .

أيام في الشمس الساطعة ، تستجم فيها ، وترد اليها قواها ، وتشد من أزرها . فاذا آبت الى باريس كانت خيرا منها في ذهابها عنها . وقال الطبيب : مصابة بالانفلونزا ، وقال - كما قال جميع الاطباء منذ أربعين عاما - : من شدة الاجهاد . ولم تلق ماري بالا الى الحمى الخفيفة التي لاتركها .. وعادت برونيا الى بولونيا وهي شاعرة بقلق غامض . وامام قطار فارسوفيا ، على الرصيف الذي طالما وطأته اقدامهما ، تتعانق الشقيقتان لآخر مرة .

ماري تروح وتجىء بين المرض والصحة . وفي أيام انتعاشها تذهب الى العمل ، وعندما تحس الدوار والضعف تبقى في بيتها ، تؤلف كتابها .

ولكن عدوها المتربص كان يتعجل الظفر بها . فزاد الحاح الحمى عليها ، واشتدت رعشتها ، وعصفت بها رجفتها . وكان لابد لايف من صبر أيوب ، حتى ترضى امها باستقبال الطبيب من جديد ، فلم يكن لها طبيب

مداو . فهذه العالمة ، هذه الرفيقة للتقدم والارتفاع ، كانت في تمردها على العلاج كالفلاحة ! فأبت الاستماع الى النصيح بملازمة الفراش . وظلت تنزل وتصعد طبقات بيتها المتعبة ، وتعمل كل يوم تقريبا ، في معهد الراديوم .



وفي عصرية ضاحية من شهر مايو ١٩٣٤ ظلت الى منتصف الساعة الرابعة في قاعة الطبيعة ، تلمس أجهزتها : رفقاءها المخلصين ! .. وتبادل مساعدتها بضع كلمات ، ثم تتمم : « أشعر بالجمى ... سأعود الى البيت » .

ثم تدور بعد ذلك في الحديقة كعادتها ، حيث كانت الازهار تتنضر وتزهو بأوراقها البهيجة الالوان .. فتقف بفتة ، أمام شجرة ورد ذابلة ، فتنادى :
- جورج ! .. اعتنوا بهذه الشجرة في الحال ! ..

وتتقدم طالبة تتوسل اليها الا تبقى في تيارات الهواء ، وأن تعود الى دارها . تطيع ، ولكنها قبل أن تصعد الى سيارتها ، تلتفت وتصيح بالبستاني ، لكيلا ينسى شجرة الورد ! ..

هذه النظرة القلقة ، نحو نبتة يابسة ، هي وداعها الاخير للمعمل والمعهد .. والمعبد ...

لم تعد تغادر سريرها . وبدأ نضال مؤسس ضد داء غير محدد ، يوصف تارة بأنه أنفلونزا ، وتارة نزلة شعبية ، مما هد حولها . تحملته بوداعة مدهشة . وقبلت أن تنقل الى عيادة للتشخيص الكامل . وعملت صورتان للاشعة ، وخمسة أو ستة تحاليل حمت الاخصائيين الذين دعوا ليكونوا الى جانبها . فما من

شئ ظاهر المساس بعضو من أعضاء بدنها ، وما من داء يبدو بجلاء . ففرضوا عليها كاسات الهواء ، فلم يخفف ذلك من المرض ولم يزده . فعادت الى بيتها وبدان تسمع حولها الهمس بكلمة : « مصحة Sanatorium » . وعرضت عليها ايف ، وهى مشفقة ، فكرة هذا المنفى . وهنا ايضا اطاعت ماري ، وتقبلت الرحيل . فقد وضعت آمالها فى هواء انقى من هواء باريس ، وتخيلت ان ضجيج المدينة وغبارها حالا دون شفائها . وتوالى على خدمتها ايف ، وايرين ، وزوجها فردريك جوليو ، وكانوا احيانا يشغلونها عن حالها بذكر مايطيب لها من فيلا ضاحية « صو » والشقة الجديدة ، فتضحك منهم وهى تتلمس نظرة ابنتها ، لتفسرها :

— ربما كنا نتعب أنفسنا سدى ونمنىها بالمحال ...

وزادت ضعفا على ضعف . وقبل أن تنقل الى المصحة ، جمعت ايف ، فى استشارة اخيرة ، أربعة من اعظم اساتذة الطب فى فرنسا . ففحصوها نصف ساعة ، وقالوا بتنبه داء الصدر ، وان اقامتها فى الجبل تتغلب على الحمى . وكانوا من المخطئين .

وبرغم المضاعفات الخطيرة ، نصح الاطباء بالسفر حالا . وكانت الرحلة عذابا مطبقا . وعند وصول القطار الى سان جرفيه Saint Gervais سقطت ماري مفسيا عليها فى اذرع ايف والمرضة . وعند ما حلت آخر الامر فى أجمل غرفة بمصحة Sancellemoz ، عملت أشعة جديدة ، فلم يظهر ان الرئتين مصابتان ، وكانت الرحلة بلا جدوى !

وزادت الحمى على أربعين درجة ، ولم يمكن اخفاء

هذا الرقم عن ماري التي كانت تراجع الترمومتر ببطء
العالة . ولم تكذ تنطق بشيء ، غير ان هينها الشاحدين
قد عكستا جزعها وهلعها ..

ودعى البروفسور روش Roch من جنيف ، على
عجل ، فقارن فحص الدم في الايام الاخيرة ، حيث كان
عدد الكريات البيضاء والكريات الحمراء جميعا قد هبط
هبوطا سريعا . فروح عن ماري ، وطمأنها ، وكان يلزمها
التفكير في حصة المرارة ، واكد انه ما من حاجة اطلاقا
الى عملية ، وان العلاج سيأخذ مجراه .. بيد ان الحياة
كانت تفر من هذا الجسد المضنى ...

وعندئذ بدا الكفاح المتلاحق المروع الذي يابى فيه
الجسم الفناء ، فيناضل العدم بقوة غشوم وعزيمة
وحشية .. وكانت « ايف » تناضل نضالا آخر . لا بد
من احتفاظ أمها بصفاء الذهن الذي لم تتفلفل فيه فكرة
الموت ، ولا بد من التمسك بهذه المعجزة ، لتجنب ماري
الما نفسيا هائلا ، وينبفى ، خاصة ، تخفيف الام
البدنى ، بحيث يطمئن الجسم والروح في وقت معا .
فلا عجلة في نقل دم لايجدى ، الآن ، غير الفرع .. ولا
جمع لافراد الاسرة جمعا مباغتيا الى جانب فراش
المحتضرة ، فانها لاتكاد ترى أهلها محتشدين ، حتى
يقع من فوره ، في فؤادها ، ذلك اليقين البشع ..

سيمجد الدهر ابدا أسماء أولئك الذين أعانوا هذه
المرأة العظيمة وهذه الام الكريمة ، في أيامها الفاجعة ،
ومن بينهم : الدكتور توبيه Dr. Tobé مدير
السنتوريوم ، والدكتور بيرلونس Dr. Pierre Lowys
اللذان لم يسعفا ماريأ بعلمهما وحده ... بل .. كان

حياة المصحة كلها توقفت وجمدت ، للنبيسا الذى يمزق
القلوب : مدام كورى تموت ..

فلم تعد الدار الا وقارا ، وتفانيا ، وصمتا ، ورحمة
.. وكان الطبيبان يتبادلان المكث فى غرفة مارى ،
يسندانها ، ويروحان عنها . وكذلك يعالجان ايف ،
ويعينانها على المقاومة ، وعلى الكذب ، ويعدانها بان
يخففا عن امها بالمخدر والحقن ، فتنام ، لكى لا تحس
شنيع الآلام ..

وفى صباح ٣ يولية ، استطاعت مدام كورى ، للمرة
الاخيرة ، أن تقرأ الترمومتر ، وهو فى يدها المرتعشة ،
فتلاحظ هبوط الحرارة الفجائى ، الذى يسبق النهاية ،
فتبتسم فرحا . ولما اكدت لها ايف أن هذه علامة
الشفاء ، وانها الآن سوف تتعافى ، قالت ، ناظرة الى
النافذة المفتوحة ، متجهة فى أمل ، فى شفف حار بالحياة ،
نحو الشمس ، نحو الجبال الثابتة : « انه ليس الدواء
الذى نفعى .. انه الهواء النقى الخالص .. وهذا
العلو الشاهق ... »

وكانت ، اثناء احتضارها ، تئن ائينا وتشكو فى
دهشة حاملة : « .. لا أستطيع أن أعبر عما فى نفسى
... اننى غائبة ... » . ولم تنطق باسم أحد من أهلها
.. بل كانت مشاغل عملها ، الصغيرة والكبيرة ، هى
التي تدور اعتسافا فى ذهنها العجيب الصافي صفاء...
عجيبا .. فتذكر : « الجمل .. الفصول .. النشر ..
الكتاب .. »

وتحديق طويلا فى فنجان شاي حاولت ان تقلبه بالملقعة
.. كلا ... ليست ملقعة ... انها عصا بلورية ، أداة
دقيقة من أدوات المعمل :

— هل هو مصنوع بالراديوم أو الميزوتورיום ؟ ..

لقد ابتعدت عن بنى الانسان ، ولحقت ، الى الابد ،
بهذه « الاشياء » الحبيبة اليها ، والتي وقفت حياتها
عليها ..

ولم تعد تنطق الا بأقوال مبهمه .. ثم توجه فجأة ،
الى الطبيب الذى جاء يحقنها ، هذه الصيحة الضعيفة
الضجرة :

— لا أريد . أريد أن تدعونى وما بى ..

كشفت لحظاتها الاخيرة عن الحيوية ، والمقاومة
الجبارة فى مخلوق لم تكن هشاشته الا ظاهرا ، وعن قلب
متين سجن فى بدن تهرب منه الحرارة ، فيظل يخفق ،
ولا يتعب ، ولا يخمد . بينما يمسك كل من الدكتور
بيير لوئس وايف ، مدى ست عشرة ساعة بعد ذلك ،
يد من هاتين اليدين الثلجتين ، يدى المرأة التى لا تريد
الحياة ولا تريد الفناء .

وفى الفجر ، عندما تكون شمس الجبال بلون الورد ،
وتبدأ شوطها فى سماء نقية نقاء بديعا .. عندما يشرق
الضوء الساطع لصباح رائع ، فيفمر الحجرة ، والفراش ،
ويبلغ الوجنتين الضامرتين ، والعينين الرماديتين ،
اللتين أحالهما الموت الى مثل الزجاج .. عندئذ يقف
القلب ، أخيرا ، ويكف عن الخفقان .

وامام هذه الجثة ، كانت ماتزال لدى العام كلمته .
فالعوارض غير الطبيعية ، وتحليلات الدم ، تختلف عن
انواع الانيميا الخبيثة المعروفة ، وتشى بالمجرم الحقيقى ،
وهو : الراديوم .

كتب البروفسور ريجو :

« ان مدام كورى يمكن ان تحسب بين الضحايا ، على طول المدى ، للعناصر ذات النشاط الاشعاعى الكهربائى ، التى اكتشفتها هى وزوجها ... »

وفى المصححة ، كتب الدكتور توبيه هذه النشرة الرسمية :

« ماتت مدام كورى فى مصحة Sancellemoz ، يوم ٤ يولية ١٩٣٤ والداء : أنيميا خبيثة مصحوبة بحمى سريعة . والنخاع العظمى لم يعمل عمله ، فيحتمل انه قد أصيب من تراكم الاشعاعات الطويل »

انتشر النبأ من المصححة الهادئة ، فى العالم كله ، انتشار النار فى الهشيم ، ليمس ، هنا وهناك ، قلوبا حساسة ، بالالم والحزن . فى فارسوفيا : هيللا ، وفى برلين ، فى قطار مسرع نحو فرنسا : جوزيف سكلودوفسكى وبرونيا ، برونيا التى حاولت عبثا أن تصل فى الوقت المناسب الى المصححة ، لتلمح الوجه الحبيب ، وفى مونيخ : جاك كورى ، وفى لندن : مسز ميلونى ، وفى باريس : اصدقاء مخلصين ...

وفى معهد الراديو ، وقف الشباب العلماء ، أمام الاجهزة الهامدة : ينتحبون ... وكتب جورج فورنييه ، وهو من تلاميذ مارى المقربين : « لقد خسرنا كل شئ » لقد استراحت مدام كورى فى نجوة من هذه الآلام ، وفى نجوة من الاضطرابات ، ومن التحيات ، على مرقدتها ، فى المصححة ، حيث لم يسمحوا لاي أحد أن يعكر صفو راحتها ، ولا بنظرة ... ولن يرى أى متطفل ذلك اللطف العلوى ، الذى اتخذته مارى قباء لها ، لهذا الرحيل ... كانت فى ثياب بيضاء شاملة يحلل شعرها الابيض جبينها العظيم . والوجه صفو فى سلام ، وقور ،

باسل ، كفارس فى سلاح ... انها ، فى هذه اللحظة ،
أجمل وأنبى ما على ظهر الارض ...

وكانت يداها الخشتان ، المتحجرتان ، المشوهتان
من الرادىوم بحروق بعيدة الغور ، قد فقدتا حركتهما
العصبية المألوفة ... فهما ممدودتان على الملاء
الناصعة ، جامدتان ، بلا حراك ..

وفى يوم الجمعة ٦ يولية ، ١٩٣٤ ، عند الظهر ،
شيعت مدام كورى ، بلا خطب ، ولا مواكب ، ولا رجال
سياسة ، ولا شخصيات حكومية ، لتأخذ فى تواضع ،
مكانها فى محلة الاموات . فدفنت فى مقبرة « صو » ،
على مشهد من الاقرباء ، والاصدقاء ، والمساعدين ،
والمريدين ، الذين احبوها . ووضع تابوتها فوق تابوت
بيير كورى . وألقت برونيا وجوزيف سكلودوفسكى فى
الحفرة المفتوحة قبضة من تراب بولونيا ..

وزاد على شاهد القبر سطر جديد :

مارى سكلودوفسكى كورى

١٨٦٧ - ١٩٣٤

وبعد مرور عام ، ظهر كتاب مارى الذى أتمته قبل
اختفائها ، حاملا الى الشباب « عشاق الطبيعة » رسالة
اخيرة .

وفى معهد الرادىوم ، حيث استؤنف العمل ، جاء
المجلد الضخم ، الى المكتبة المنيرة ، لينضم الى المؤلفات

العلمية الاخرى . وعلى غلافه الرمادى ، اسم المؤلف

مدام بيير كورى

استاذ فى السوربون

جائزة نوبل فى الطبيعة

جائزة نوبل فى الكيمياء

وعنوانه ، مكون من كلمة واحدة ، صارمة ، ساطعة :

Radioactivité

فهرس

صفحة

٥	للكرى
٨	مقدمة

الجزء الاول

١٢	مانيا
١٩	أيام كثية
٣١	مراقة
٣٥	مواهب
٤٤	مربية
٤٨	صبر جميل
٥٥	الفرار

الجزء الثانى

٦٢	باريس
٧٢	أربعون روبلا فى الشهر
٨٦	بيير كورى
١٠٦	زوجان شابان
١١٦	اكتشاف الراديو
١٢٥	أربع سنوات فى سقيفة

صفحة

١٣٥	الحياة الشاقة
١٤٢	رسالة الدكتوراه
١٥٢	العدو
١٦٢	على مدى الايام
١٦٧	١٩ أبريل ١٩٠٦

الجزء الثالث

١٨٧	وحدها
١٩٤	انتصارات ومحن
٢٠٢	الحرب
٢١٢	السلام
٢١٥	أمريكا
٢٢٨	ازدهار
٢٣٥	جزيرة سان لويس
٢٤٣	معبد المستقبل
٢٤٩	خاتمة الرسالة

هذا الكتاب

تعتبر مدام كورى نموذجا فذا ورائعا للانسان المعاصر .. لقد عاشه من أجل العلم ، واعطت حياتها كلها للمعرفة الانسانية حتى وصلت الى اعلى درجات هذه المعرفة ، فكانت نموذجا للعبقريّة الانسانية ، عند تجند نفسها في سبيل الخير والارتقاء والتقدم وفي سبيل التغلب على مصاعب الحياة البشرية ..

وقصة مدام كورى يجب ان تكون في يد شبابنا واجيالنا الجديدة . ان حياتها هي القصة المثالية النبيلة التي تضيء لكل شاب وفتاة طريق الخير والنبوغ والتقدم ، واذا كنا نعيش في مجتمع يحلم بأن تنتشر في الكهرباء في كل قرية وننتشر المصانع على طول الوادي وعرضه ، ويستطيع الانسان فيه ان يتخلص من الامراض المتوطنة وان يعيش الاطفال سعدا اصحاء يتسمون للمستقبل باستمرار .. ان كنا نريد مجتمعنا من هذا النوع فنحن بحاجة الى مثل عليا جديدة ، بحيث تكون هذه المثل العا مصباحا يضيء طريق كل فتى وفتاة في بلادنا التي تبحث عن السعادت والتقدم والحب والخير ..

وهذا الكتاب الذي ترجمه الى العربية الكاتب الكبير احمد الصاوي محمد كتبه ايف كورى ابنة مدام كورى ، وقد كتبه الابنة الوفي بأسلوب ساحر ممتع جميل كأنه سيمفونية رائعة من سيمفونيات موسيكا خيالات .. وقد حافظ الصاوي على مافي الكتاب الاصل من جماليات وجاذبية ، ذوبة فجاء الكتاب في النهاية قصة ممتعة ولامعة من قصص الكفاح والخلق الرفيع والعلم النبيل والسعادة العائلية القائمة على الاخلاص والتفاهم .. وهي قصة يجب ان يعيش معها شبابنا وفتياتنا طويلا .. ففيها كنز من العواطف الدافئة والقيم النبيلة والطموح العالي المحب للانسان وخير الانسان .

هذا الكتاب

تعتبر مدام كوري نموذجا فذا ورائعا للانسان المعاصر . لقد عاشت من أجل العلم، واعطت حياتها كلها للمعرفة الانسانية حتى وصلت الى اعلى درجات هذه المعرفة ، فكانت نموذجا للعبقريّة الانسانية ، عندما تجند نفسها في سبيل الخير والارتقاء والتقدم وفي سبيل التغلب على مصاعب الحياة البشرية ..

وهذا الكتاب الذي ترجمه الى العربية الكاتب الكبير احمد الصاوي محمد كتبته ايف كوري ابنة مدام كوري ، وقد كتبته الابنة الوفية بأسلوب ساحر ممتع جميل كأنه سيمفونية رائعة من سيمفونيات موسيقار حساس ..

الضمن : ٥ ل . ل .
او ما يعادلها

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية هنمدي ومالعة - ص.ب. ١٦٠٥٤٦
بناية برج شهاب - شقة الغياض - ص.ب. ١٩٥١١٩
شرقيا : موكيازي - بيروت